# عبثا ... عبثا ... !

بقلم : محمود تيمور



أستمعى الى يا أمى ، ولا تقاطعينى .

أصغى الى ابنك ، وهو يروى لك طرفا من حياته .

لعلك تبتسمين فى عجب ، وتقولين :

وهل أجهل أنا من تاريخ حياتك شيئا قل أو كثر ؟

نعم ، أنت تجهلين بعض جوانب من حياتى ، ما فى ذلك ريب ... وربما كانت هذه الجوانب التى لا تعلمينها من امرى على صغرها هى أعظم جوانب حياتى خطرا ، وأبعدها أثرا . وربما كنت أنت على علم بظواهرها ، ولكنك لا تعرفين من تفاصيلها ما يصور حقيقتها الكاملة .

أنت تحسين معى ، وما اذكر أنك فارقتنى أو فارقتك يوما أو ليلة ...

كانت حياتنا معا موصولة الحلقات ، بيد أنى أؤكد لك على الرغم من ذلك أنك لم تسبرى غور هذه النفس البشرية .. نفسى أنا ابنك الذى هو جزء منك !

دعينى اذن أكشف لك مكنون صدرى ، واطالعك بسر من حياتى دفين .

استمعى الى يا أمى ولا تقاطعينى .

لا تعترضى على شىء مما أنا قائلة ..

الزمى الصمت ... صمت الوعى والانتباه .

ما أفشيه الساعة لك هائل فاجع ..

أنت فقيرة ، وأنا مثلك فقير .

لم يكن لى من التعليم نصيب ، ولكنى استطعت أن أكتسب غير قليل من الثقافة ، وألم بضروب شتى من المعرفة ، وأتفطن الى ظواهر الحياة حوالى .

لقد استهوتنى أحاديث المتعلمين ، فأنصت لها كل الانصات ، والتقطت الكثير مما يجادلون فيه ، وحفظته عن فهم ودراية .

كان أطيب وقت الى هو الوقت الذى اقضيه عن كثب من زمرة المتعلمين فى المشارب والأندية ، وأنا قابع فى ركنى المنزوى ، غارق فى صمتى المديد .

فهمت مما يخوضون فيه من الحديث امور الدنيا ، وتصاريف الحياة ، وشواغل الناس ، دون أن يحس أولئك المتعلمون أنى لقنت منهم شيئا .

كنت أقضى أطول وقتى لا أنبس الا فى الندرة ، فالكلمة لا تبرح فمى الا عن اضطرار ، وشعارى الدائم هو الصمت والهدوء واجتناب الاختلاط بخلق الله فكان فى ذلك ما دعاهم أن يلقبونى : العبيط !.

عبيط ... أو ماكر خبيث ...
وحقك يا أمى لا أدرى اى الرجلين أنا ، ولكن جميع الناس ، وأنت أولهم ، يطلقون علىّ لقب العبيط ! .

أما أنا فى نظرها « هى » فكنت العبيط الأكبر ، ولذلك وقع اختيارها علىّ .

صه يا أمى ...

قلت لك أصغى الى ، لا تقاطعينى ..

ارهفى سمعك ، لكى تتلقى من ابنك العبيط النبأ الهائل الفاجع الذى يزلزل كيانك .

... بل ساصمت أنا ، مرهفا سمعى ... أقادمون هم علىّ الساعة ؟
كأنى بهمس تترامى أصداؤه الى اذنى ...

كأنى بخفق اقدام تتدانى ...

لا ، لا شىء من ذلك ، أحسب أن الوقت لم يحن ، نور الشمس الوضاح لم يكشف السر بعد .

لقد احتفوا بليلة الزفاف حتى الفجر ، وهم الآن مستسلمون للكرى ...

على أن أتم حديثى معك ، أو بالأحرى اعترافى لك ، قبل أن يقدموا ليصطادونى وانهم لا شك فاعلون .

أميل الى اعتقاد انى عبيط ...
نعم ، أنا عبيط ، والا لما استطاعت «هى» ان توقعنى فى حبالها على هذا النحو المهين .

انت تعلمين يا أمى انى وسيم الطلعة ، فمنك انتقلت الى هذه الوسامة . وان شبابى لينفجر نشاطا وحيوية ، وانى مهذب الطبع خدوم ، وفوق ذلك أتحلى بفضيلة الصمت ... وهذا ما قربنى اليها وقربها الى ... هذا ما اغراها بأن تختارنى دون سواى .

انهـا ربة نعمتى ، وربة نعمتك أنت أيضا يا أمى ... لقد منحتنا هـذا « الحاصل » الذى نبيت فيه ، وناوى اليه ، وسكنت هى فى شـقتها الفاخرة فوقه ، وكذلك منحتنا الكساء والغذاء ، واسبغت علينا عطايا وهبات ، وان كنا نحن أيضا لم نبخل عليها وعلى زوجهـا بكل ما نستطيع من خدمات .

كنت أتهيبها وأتهيب زوجها معها ، واعدهما من صنف آخر ارقى شانا من الصنف الذى ننتسب اليـه ، وكان الزوج ذا حزم وارادة ، اذا مثلت أمامه احسست الضياع ...

لم يكن أصلب منى عودا ولا اشـد بنية ، فلو قدر له أن ينازلنى فى مصاولة حرة لما ثبت ازائى دقائق معدودات ، ولـكن ذلك لم يكن يعصـمنى من أن أرهبه غاية الرهبـة ، وأن أرتجف لمرآه ...

فيم كل هذا الذى أستشعره نحوه ؟ الأنى عبيط ؟ .

سمعت يوما فى المشرب رجلا يصفنى بقوله : صدقونى ان هذا الشاب ليس بالعبيط ، بل هو هادىء خجول طيب الى ابعد حدود الطيبة !

لست فى الحق طيب القلب الى هذا المـدى ، فان بى نزعة الى الشر ، نزعة ممتدة الى الأعماق السحيقة من نفسى ، وبين جنبى ضغينة مطوية ، ضغينة على ذلك الزوج ، برغم ما ألقاه من عطفـه واشفاقه ، فأنا أكرهه ... امقته ... ولما وافته منيته لم تذرف عينى عليه دمعـة ، بل شعرت بفرحة باطنـة ، واستبان لى انى كنت اتمنى موته ... لماذا ؟ ... لا أدرى !

وكانت « هى » مدة حـدادها على زوجها تزداد فى لبوسها الأسود حسنا ووسامة ، وكلما حاولت أن أرفع اليها بصرى اتملى مفاتنهـا ارتدت نظراتى حسيرة متعثرة .

ومضت الأيام سهلة رخية ...

وانقضت مدة الحداد ، وعاد الاشراق الى محياها ، ورنت ضـحكاتها عذبة ناعمة ، وأحسست بها ... بها « هى » تطيل وقفاتها معى ، وتفيض فى حديثها الى ، وهى تتوسمنى ..

واشـتد اهتمامهـا بى ، فـكانت تستبقينى فى الشقة وقتا ليس بالقصير ، لأؤدى لها بعض الخدمات الخاصة ، وكانت تقول لى أنها ضاقت ذرعا بخادمتها التى تكرر منها الاهمال والعناد .

واجتهـدت فى خدمتها ، باذلا كل وسعى ، وأنا أتلقى رضاها عنى بغبطة وارتياح .

وعلى مر الأيام وجـدتنى اقوم لها باكثر ما كانت خادمتها تقوم به : أطهو واغسل وأكوى ، وأؤدى غير ذلك من اعمال منزلية شتى .

كنت نشـيطا احس الحيـاة بكل ما تحويه من بهجة واسعاد .



ومثلت هى أمامى مرة تتوسمنى ، ثم قالت متلطفة : أنت شاب مجد فى عملك ... ووسيم ايضا !

وابتسمت لى ابتسامة متألقة ، وتابعت حديثها تقول : صحيح عبيط . وماله ؟ ... أحسن عبيط ! .

وفى لحظة داعبتنى بقرصة فى خدى ، فكانت أسعد لحظة من عمرى ...

وفى غد ألفيتها تهدى الى كسوة من ملابس زوجها الراحل ، وحقا كانت حلة فاخرة ، فلما ارتديتها وبدوت بها أمامها ، صاحت متهللة الوجه : يا لها من أناقة . لقد زدت فى نظرى وسامة وخفة ! .

وبدأت تستدعينى الى حجرتها الخاصة ، لأساعدها وهى تبدل ملابسها ، وطفقت ترينى ما خفى من مفاتنها ، وهى تشير باصبعها نحوى ، وترنو الى ، وتردد على سمعى فى صوت منغم : لا ترفع عينك ... الزم الأدب يا ولد !

فكنت أهمهم ، وأنا أختلس اليها النظر على الرغم منى ، وكل جارحة من جوارحى تلتهب .

ويوما ، وهى فى مثل هذه الحال معى ، وانا واقف منها كالصنم ، ولسانى منعقد ، وجدتنى أنقض عليها ، دون وعى ...

لكانما كنت فى حلم ، أعتصر بين يدى ليمونة حلوة ، وأرتشف رحيقها ارتشاف الظامىء للماء العذب ، بل

انى على الأصح اكلتها أكلا ، واحسست بانى لم ابق منها شيئا لراغب فيهـا من بعد !

وتواصلت الأيام ، وأنا استمرىء ذلك المتاع العظيم ...

وكثيرا ما كانت تقول لى فى حنان زائـد : أنت طيب القلب ... طيب القلب جدا .

ولكن هذا الطيب القلب يا أمى جرؤ على أن يذبح دجاجة سمينة رائعة ، وجرؤ كذلك على أن يذبح معها ديكا له خطره فى عالم الديكة !

صه يا أمى ...

يخيل الى أن لغطا يعلو فى الخارج .

أنصتى معى فى سكون تام .

عجبا ... انهـا أصوات الجنادب التى تساكننا فى هــذا « الحاصل » العتيق .

اطمئنى يا أمى ولا تخافى .

أتراك خفت فعلا عندما عدت اليك فى مطلع الفجر ، بعـد أن قمت بأداء مهمتى ؟

هل رأيت السكين الكبيرة ؟ انهـا هنالك تحت اللحاف راقدة ، سـكين المطبخ المظيمة ، لقد عنيت أنا بشحذها أياما حتى غدت أرهف من حد السيف فعلت ذلك حتى لا يكون معهـا ألم ، ولا تشويه للجسد ..

وتم الأمر فى لحظات قصار ... فى سهولة ويسر ... وكثيرا ما يغلو المرء فى حساب عظائم الأمور !

شد ما ابغضت هذا الزوج الجديد ابغضتـه بغضـا لا تستطيعين أن تتصوريه ، ولم أكن قد رأيته الا خطفا فى تلك الليـلة البارحـة ... ليلة الزفاف !

اذا استطعت يا أمى ان تحشـدى حقد الحاقدين فى هذا الكون ، فاعلمى انه اذا وزن بالحقد الذى حملته له فانه ليتضاءل ولا يغدو شيئا !

لم يكن أمامى غير هـــذه السبيل ، فسلكتها وأرحت نفسى .

لماذا اخترته يا حبيبتى زوجا ثانيا لك ؟ ألم أكن أنا اكثـر من زوج ... كنت طوع يمينك مثل كلب وفى ، ولكن كان عليك أن تعرفى أن هذا الكلب عقور له أنياب كأنياب الذئاب !

لماذا نبذتنى ، واتخذته عوضا عنى ؟ ألأنى عبيط وهو الذكى الألمعى ؟ ألأنى من سـكان « الحواصل » وهو من سكان الدور ؟

لقد عشت معك وقتا تتساقى الحب متعة موصولة ، وكنت راضية بى كل الرضا ، فما الذى غير قلبك على ، وأنا الحريص على اسعادك ، بل انى لراض ان أبذل حياتى فداء لحياتك ؟

ألقيتك تقصيننى عنك بغتة ، لافسح المكان لغريبى ، وأنت تغمريننى بالمنح والهدايا ، حتى تهونى على نفسى قبول

الأمر الواقع المرير ، وأخيرا أصدرت أمرك الى أن ألزم مكانى فى « الحاصل » مع أمى ، كعهدى من قبل ...

صه يا أمى ، ودعينى أنصت .

انهم قادمون ...

ذلك خفق أقـدامهم على الأرض الصلبة ، تتجه نحو « الحاصل » ...

ها هم أولاء يسارعون الى ...

أثمة سلاسل معهم تصلصل ؟

أحس عن يقين أنهم اللحظة مقبلون .

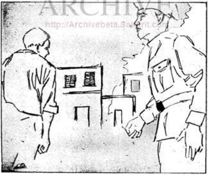
لا يكذب حدسى هذه المرة .

فليأتوا ، كل شىء معد ، كل شىء فى متناول أيديهم ، السكين المخضبة بالدم راقدة تحت اللحاف ، وأنت يا أمى على وسادتك غائصة فى ذهول وخبال ...

الضوضاء تعلو ... أكبر الظن أن الحى كله قد اجتمع ليشهد العبيط وهو يستقبل ضيوفه العظام ...

سأنهض يا أمى للقائهم ... لا يصدر عنك صوت ... ابقى غائصة فى ذهولك وخبالك ... وداعا ... وداعا ليس بعده لقاء !





# الفارس الجميل

بقلم : علي أحمد باكثير

●● وارتحل مصعب بزوجتيه الى الكوفة ثم لحق به الأحنف بعد ذلك . وكان فى نية مصعب أن يعجل بالسفر الى مكة للقاء أخيه وعرض الأمور عليه ، لولا ان واجهته أول ما قدم الكوفة ، مشكلة أصحاب المختار . فانهم لما سمعوا بمقتل صاحبهم ضاق بهم الأمر ولم يجدوا لهم مأمنا الا أن يتوافدوا الى الكوفة ليستسلموا لمصعب وينضموا اليه عسى أن يقبلهم ليقاتلوا معه عبد الملك ابن مروان .

قالوا لمصعب : لا تقتلنا واجعلنا فى مقدمة جيشك لقتال عبد الملك فان ظفرنا فلكم وان قتلنا لا نقتل حتى نقتل منهم طائفة وكان الذى تريد .

فرق لهم وكاد يجيبهم الى ما طلبوا لولا ان جماعة من كبار أصحابه يتزعمهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث أبوا ذلك وقالوا : هؤلاء قد قتلوا أولادنا وعشائرنا وجرحوا منا خلقا فاخترنا او اخترهم . فحار مصعب ماذا يفعل . وأشار عليه الأحنف بن قيس ألا يصغى الى هؤلاء ، وأن يقبل التائبين من أصحاب المختار فانهم يكرهون آل مروان ويتحرقون لقتالهم وسيكونون قوة له.

قال مصعب : لكن أصحابى سيتخلون عنى اذا فعلت .

واشتد الحاح أصحابه عليه فى وجوب قتل أصحاب المختار حتى ضاق بهم صدره فقال لهم : أفعلوا ما بدالكم .



وخشى هؤلاء أن يرجع مصعب فى قوله فانطلقوا فى الحال فذبحوا من أصحاب المختار ثلاثة آلاف رجل فى يوم واحد . وكانت مذبحة اشمأز لها مصعب لما بلغته . واخذ يلوم أصحابه ويعنفهم ولكن بعد فوات الأوان .

وطفق الأحنف يلومه ويقول له : انك بما فعلت قد أفسدت أصحابك هؤلاء عليك ، وشجعتهم على مخالفتك ، والاستقلال برأيهم دونك . ان هؤلاء أهل العراق لا يصلحون الا بالشدة والحزم ويفسدهم اللين والمراعاة .

فاسترجع مصعب وقال : دعنى من لومك الآن يا أبا بحر . فقد نفذ المقدور ولا سبيل الى رد ما وقع .

ولم يكد مصعب يفيق من هول هذه الحادثة حتى واجهته مشكلة أخرى ، حينما جيء اليه بزوجتى المختار بن أبى عبيد « أم ثابت بنت سمرة بن جندب ، وعمرة بنت النعمان بن بشير » فقيل له : يجب أن تستتيبهما فان تابتا واعلنتا البراءة منه أطلقتهما والا قضيت عليهما بالقتل .

فسأل مصعب الأولى عن رأيها فى المختار فقالت : ماذا تقول فيه انت أيها الأمير ؟ .

ــ أقول أنه كافر ملحد .

ــ قالت : فانى أقول فيه بقولك انت .

فاطلق سراحها .

ثم سأل الثانية عنه فقالت : يرحمه الله . لقد كان عبدا لله صالحا .

ــ ويلك أما تعلمين انه كافر ؟ .

ــ أصلحك الله أيها الأمير والله لو علمت انه كافر ما أقمت عنده يوما واحدا .

ــ يا هذه ألا قلت كما قالت ضرتك فيه فأطلق سراحك ؟ .

ــ أيها الأمير لعلها قالت لك ذلك فيه طمعا منها أن تتزوجها انت ؟ .

ــ فضحك مصعب وقال لها مداعبا :

ــ وانت أليس لك فى ذلك ؟ .

ــ لا والله لا أتزوج قاتل زوجى أبدا .

تحار مصعب فى أمرها . واراد أن يكتب الى اخيه عبد الله ليستفتيه فيه ولكن أصحابه ثاروا عليه وقالوا له : يجب قتلها اسوة باصحاب المختار الآخرين .

قال لهم : انها امرأة وفية لزوجها . ولا ينبغى لها أن تقول فيه غير ما قالت .

قالوا له : لعلك أعجبك جمالها فاردت أن تستبقيها فانك ــ ما علمنا ــ زئر نساء .

فنهرهم غاضبا وقال لهم : قبحكم الله من قوم سوء . ويلكم أترون جديرا بى ان أقتل النساء ؟ . اغربوا عن وجهى .

فانفضوا من عنده وهم يقولون : والله لنكتبن الى اخيك أمير المؤمنين فى شأنها .

فسأل مصعب عمرة عن أهلها فقالت

له : انهم بالحيرة فأمر بأن تحمل الى اهلها هناك ريثما يأتيه جواب أخيه عبد الله فى أمرها فينفذه .

ولكن الشرطة الذين انتدبهم لمرافقتها قتلوها فى الطريق بين الكوفة والحيرة . فلما بلغ مصعبا ذلك ثار وغضب وتوعد القتلة بالعقاب ، لولا أن جاء جواب من عبد الله بن الزبير يأمره بقتلها اذا أصرت على رفضها أن تتبرأ من زوجها الكافر . فما كان من مصعب الا أن سكت عنهم .

بيد أن الأثر الذى تركته هذه الحادثة فى مصعب كان عميقا جدا فلم يستطع أن يطرد من ذهنه خيال عمرة وهى مضرجة بدمائها فى الأرض القفر ولا من سمعه صدى أبيات ابن أبى ربيعة التى سارت بها الركبان وانتشرت فى كل مكان .

ان من اكبر الكبائر عندى
قتل حسناء حرة عطبول
قتلت باطلا على غير ذنب
ان لله درها من قتيل
كتب القتل والقتال علينا
وعلى الغانيات جر الذيول

* * *

وضاق مصعب بمقامه فى الكوفة وأراد أن يرتحل الى اخيه لعله يجد فى الرحلة فرجا من الكرب الذى هو فيه . ولكنه ينتظر قدوم ابراهيم بن الاشتر الذى كتب اليه بانه قادم ، ولم تطوع له نفسه مغادرة الكوفة قبل أن يقدم ابراهيم فيعهد اليه بمراقبة شئون الحكم فى أيام غيبته بالحجاز ، اذ كان لا يثق بأحد ثقته بابراهيم . وكان مصعب معجبا بابراهيم بن الاشتر منذ كان ابن الأشتر خصما له يقاتله مع عدوه المختار بن أبى عبيد كما كان ابن الأشتر معجبا بمصعب كذلك ، يكبر أحدهما الآخر لشهامته وفروسيته .

وكان ابن الأشتر متحمسا للمختار لما أظهره من التشيع لآل البيت والمطالبة بدمائهم واعادة الحقوق اليهم ودعوته فى ذلك الى محمد بن الحنفية . وظل كذلك الى أن تبين له كذب المختار فيما ادعى من كتاب محمد بن الحنفية اليه ، ذلك الكتاب الذى زوره المختار عليه فتبرأ منه حينئذ وتخلى عنه .

وكانت الحرب سجالا بين المختار ومصعب فما راع مصعبا ذات يوم الا ابن الأشتر يقبل عليه وحده والسيف مشهور فى يده فحاول رجال مصعب أن يمنعوه فقال لهم مصعب دعوه فلما دنا منه أغمد سيفه فتعانقا عناقا حارا جعل القوم يتعجبون له اشد العجب ثم اختليا فى مجلس وتطارحا الحديث كانهما صديقان حميمان .

قال ابن الأشتر :

ـ والله يا مصعب لو أردت قتلك لحاولت ذلك ولربما نجحت فيه ، ولكن نفسى لم تطاوعنى على أن أقتل رجلا مثلك جمع الله له جمال الخلق وكمال الخلق . والله يا مصعب انى لأحبك وأعجب بك وأرى ان الدنيا سيقبح وجه الحياة فيها اذا خلت من وجهك .

واجابه مصعب قائلا : وانا والله احبك

وأقدرك يا ابراهيم ولقد حاولت جهدى ان ألقاك لأقتلك فأكون قتلت أشجع فارس فى العرب ولكنى لم أسلط عليك . والله ما يعدل رغبتى فى قتلك الا سرورى بنجاتك لعلك تتغلب خليلا لى فتقاتل معى هـــذا المنافق عدو الله المختار بن أبى عبيد .



قال ابن الأشتر :

ــ ان ذلك ليسرنى يا مصعب ولقد تبينت كذب المختار ونفاقه ، فتبرأت الى الله منه ، ولكن مروءتى تمنعنى أن اقاتله معك اليوم وقد قاتلتك معـــه أمس فأمهلنى يا مصعب حتى تفرغ أنت منه وحينئذ فادعنى فستجدنى ورجالى طوع أمرك .

ــ أين تمضى يا ابراهيم ؟ .

ــ سامضى أنا ورجالى الى جهـــة الموصـــل حيث كنت عاملا للمختـــار هناك .

فقبل مصعب منه ذلك وركب معـــه يودعه بنفسه حتى أوصله الى مأمنه .

فلما اعتزم اليوم مصعب أن يسير الى الحجـــاز ألح فى طلب ابن الأشتر فكتب اليه يستقدمه ويستنجزه وعده فلبى ابن الأشتر دعوته وقدم اليه مع رجالـــه بالكوفة فسر بهم مصعب وأكرمهم وجعل ابن الأشتر على الوفادة واعتمد عليه فى مراقبة شئون الحكم أثناء غيبته بالحجاز .

وأنكر أصـــحاب مصعب عليه ذلك ونصـــحوه الا يطمئن الى ابراهيم ابن الأشتر فقال لهم : ويحـــكم انكم لا تستطيعون أن تعرفوه مثلى . والله انى لأثق بابراهيم أكثر من النـــاس جميعـــا . ان عبـــد الملك بن مروان قد كتب اليه بالموصل يستقدمه اليـــه ليوليه الولايات فرفض دعوة عبد الملك وآثرنى عليه .

* * *

وغادر مصعب الكوفة فى وفـــد من وجوه أهل العراق حتى قدم على أخيه عبد الله بمكة . وكان أول ما فاتحه به عبد الله أن لامـــه فى تقريبه لابراهيم ابن الأشتر وذكره بأن أباه مالكا الأشتر هو الذى جرحه فى وقعة الجمل حيث

برك الاشتر على عبد الله فجعل يصيح صيحته المشهورة .

اقتلوني ومالــكا

واقتلوا مالكا معى

فاجابه مصعب بان ذلك أمر قد مضى ولا شان لابراهيم بما كان من أبيه .

فلما أكثر عبد الله عليه فى ذلك غضب مصــعب وقال : انى اخترت ابراهيم ابن الأشتر على علم منى فاما أن تقرنى على عملى واما اعتزلت فول مكانى من شئت .

فعجب عبــد الله من شدة مصعب فى هذا الأمر واعرض عنه ولم يعاود القول فيه . وكان مصعب يأمل من اخيه أن يكرم وفادة أصحابه الذين قدم بهم من العراق فقد كانوا من خيرتهم وسيكونون لسان صدق له حين يرجعون الى بلادهم ولكن عبــد الله بن الزبير خيب أمله وآمالهم فيه فأحرج مصعبا أمامهم حتى قال لهم مصعب : لا يغضبنكم هذا من اخى فانه رجل متزمت متشدد لا يرى من حقه أن يرزأ بيت مال المسلمين من اجلكم ولكنى سأنوب عنــه فى تكرمتكم وعطاياكم حين نعود الى العراق .

ولم يكتف عبد الله بحرمانهم من العطاء حتى قال لهم لما اجتمعوا عنده : جئتنى يا مصعب بعبيــد أهل العراق لأعطيهم من مال الله .. وددت والله أن لى بكل عشرة منهم رجلا من أهل الشام ، صرف الدينار بالدرهم ! .

فاجابه احــدهم وكان قاضى الجماعة فقال :

يا أمير المؤمنين ان لنا ولكم مثلا قد مضى وهو ما قال الأعشى .

علقتهــا عرضا وعلقت رجلا

غيرى وعلق أخرى ذلك الرجل

علقناك يا أمير المؤمنين وعلقت أهل الشام وعلق أهل الشام عبد الملك بن مروان فماذا عسينا أن نصنع ؟ .

وضاق مصعب بأخيه صدرا فاختلى به وجعل يلومه ويعنفــه على ما صنع بوفد العــراق وقال له : انك لن توفق أبدا . أجيئك بوجــوه أهــل العراق ونخبتهم لتكرمهم فيكونوا قوة لك فاذا أنت تهينهم وتمنعهم من عطـــائك . ما هكذا يا أخى تكون السياسة وما هكذا تحفظ الخلافة .

فقال له عبد الله :

ويلك يا ابن أخت بنى كلب أتريــد أن تفتننى عن دينى لأفرق مال الله بددا فى هؤلاء وما فيهم الا غنى عنه وليس بينهم فقير يستحق العطاء ولا مسكين . بئست الخلافة اذن ان كنت لا أحفظها الا بشراء الذمم كما يفعل آل مروان ! .

ـ اذن فلن تبقى لك أبدا .

ـ اذن فلا كانت ! .

ـ عــلام اذن تفرق كلمة المسلمين وتجعل لهم خليفتين خليفــة فى مكة وخليفة فى الشام ؟ .

ـ ويلك انمــا أردت أن احملهم على المحجة البيضاء وانقذهم من طمع آل مروان وتكاثرهم وفسادهم .

ـ فانك لن تصل الى ذلك بكزازة اليد والعطاء المصرد .

ـ هلم يا مصعب لقد أردت أن احاسبك أنت فاذا أنت تحاسبنى ! .

ـ فى أى شىء تريد أن تحاسبنى ؟ الم أقض لك على المختار بن ابى عبيد ؟ ألم اوطد لك حكم العراقين ؟ ألم اجمع حولك الأنصار ؟ .

ـ ولكن ماذا فعلت بمال الله الذى جعله فى يدك ؟ ألم تمهر كلا من سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة خمسمائة الف درهم ؟ ألم تعط لعلى بن الحسين الذى حمل اليك أخته من المدينة الى البصرة أربعين الف دينار ؟ .

ـ هذا خويصة أمرى فلا شأن لك به وما أمهرتهما من مال الله كما تزعم بل من صلب مالى . أولا تذكر حين اجتمعنا عند الحجر الأسود من قديم فتمنى كل واحد منا أمنية ، وقد تمنيت أنت الخلافة فاعطيتها ، وتمنيت انا أن أملك العراقين وان اجمع بين سكينة وعائشة فاعطيت ما تمنيت فماذا يضيرك من ذلك ؟ .

وادرك مصعبا وقت الحج فلما وقف بعرفات لقيه رجل وسيم الهيئة فنظر اليه مليا فسأله مصعب :

ما خطبك ؟ .

ـ لا شىء غير انى نظرت اليك فقلت فى نفسى هذا فتى اكره أن تراه بثينة !

ـ أنت جميل بن معمر ؟ .

ـ نعم . وانت مصعب بن الزبير . وددت لو رزقنى الله مثل وجهك هذا بما طلعت عليه الشمس .

فتبسم مصعب وقال : ماذا كنت تصنع به يا جميل بن معمر ؟ .

ـ افتن به قلب بثينة واشغفه حبا .

ـ فضحك مصعب حتى بدت نواجذه ثم قال : ـ

انك تحسدنى على وجهى وأنا أحسدك على شعرك .

ـ ماذا تصنع بالشعر وعندك ما يغنيك عنه ؟ .

ـ استعطف به قلوب الهواجر ! .

ـ وهل لك من هواجر يا مصعب ؟ وقد جمع الله لك بين أجمل نساء العرب ؟ .

ـ لو تعلم يا ابن عمى ما القى من مغاضباتهن ما قلت الذى قلت .

ـ انما يصنعن ذلك دلالا ، لا قلى ولا ملالا ، ولن يغنى عنك الشعر فى ذلك شيئا ، وشتان يا مصعب بين هجر الدلال وهجر القلى والملال .

ـ أو تشكو بعد من بثينتك ؟ ألم يرق قلبها لك بعد ؟ .

ـ لو قد رق لى قلبها ما تمنيت لى وجها كوجهك ؟ .

ـ هل لك فى أن ألقاها فاكون شفيعا لك عندها .

ـ كلا كلا . يا رجل . ضل من جعلك شفيعه الى امرأة .

وتولى جميل عنه مسرعا ومصعب يضحك .

وكان مصعب ذات يوم بالبيت فلما انتهى الى الحجر الأسود هاجته الذكرى فوقف هنيهة يسترجع ما كان فى أول شبابه حين اجتمع عند الحجر الأسود مع جماعة فيهم أخواه عروة بن الزبير وعبد الله بن الزبير وفيهم عبد الله بن عمر وعبد الملك بن مروان فقالوا ليقم كل واحد منكم وليسأل الله حاجة ، وكيف أن الله قد أعطى كل واحد منهم ما تمناه .

واشتاق أن يرى أولئك النفر فذهب الى عبد الله بن عمر ليذاكره بذلك . فلما لقيه أعرض عنه ابن عمر وجعل يلومه على ما فعل بأصحاب المختار كيف قتل فى يوم واحد ثلاثة آلاف رجل فأخذ مصعب يعتذر ويقول : انهم فسقوا اذ اعتقدوا أن صاحبهم يوحى اليه .

قال عبد الله : هلا استتبتهم أولا فمن لم يتب منهم قتلته ؟ .

ــ ما كانوا ليتوبوا ابدا .

ــ الم يعرضوا عليك ان يقاتلوا معك ؟ . . افلا يدل ذلك على أنهم ترجى توبتهم ؟

ــ لقد اردت أن أقبلهم لولا أن أصحابى من وجوه أهل العراق عارضوا فى ذلك وقالوا اخترنا أو اخترهم .

ــ ما أخالهم الا نظروا فى ذلك لصالح عبد الملك بن مروان خشية أن تقاتله بهؤلاء .

وذعر مصعب لهذه الكلمة التى أرسلها عبد الله بن عمر ارسالا دون تدبر ولا روية ، ولكنها أثارت فى قلب مصعب شجنا كامنا . فقد كان يحس فى أعماق نفسه أن لاشفاقه من قتال عبد الملك ، ورغبته الخفية فى توقيه جهد ما يستطيع أثرا فى موقفه من أصحاب المختار ، اذ الحوا عليه الحاحا شديدا فى أن يبقى عليهم ليقاتلوا معه عبد الملك بن مروان ، فكأنه أراد التخلص منهم حتى لا يحملوه حملا على ما لا يريد .

ولكنه لم يشأ أن يعترف بهذه الحقيقة التى يكتمها عن الناس جميعا ولم يكاشف بها غير صديقه الأحنف بن قيس . ترى ماذا يكون موقف أخيه منه لو علم ؟ .

وكان قد سمع من الأحنف بن قيس مثل هذا الاتهام الذى سمعه من عبد الله ابن عمر اذ قال له الأحنف يوم مذبحة أصحاب المختار : الا يجوز يا مصعب أن لعبد الملك بن مروان يدا فى تحريض أصحابك هؤلاء على المطالبة بقتل أصحاب المختار لما علم من تحمسهم لقتاله ؟ .



ولكن لم يكن لمقالة الأحنف اذ ذاك فى نفسه مثل الأثر الذى تركته مقالة عبد الله بن عمر اليوم فقد خشى أن يشيع هذا الظن فى الناس فيبلغ أخاه عبد الله بن الزبير .

وصاح مصعب مجيبا عبد الله بن عمر :

ماذا تقول يا ابن عمر ؟ أتشك فى نية أصحابى وأخلاصهم ؟ أو تتهمهم بالعمل لصالح عبد الملك بن مروان ؟ .

– انا لا أتهم أحـدا ، ولكن ان كان لأحد صالح فى قتل هؤلاء فهو عبد الملك ابن مروان .

– انما الح اصحابى فى قتل هؤلاء لان هؤلاء قتلوا وجرحوا كثيراً من أولادهم وعشائرهم .

– انى لا الومهم بل الومـسك انت . ويحك خبرنى يا مصعب لو ان رجلا اتى ماشـية الزبير فذبح منها ثلاثة آلاف راس فى غـداة واحـدة السـت تعده مسرفا ؟ .

– بلى .

– أفتراه اسرافا فى البهائم ولا تراه اسرافا فيمن ترجو توبتهم ؟ .

فتأثر مصعب ممـا سـمع ووقف مكتئبا لا يحير جوابا .

فانصرف عنه عبد الله بن عمر وهو يقول :

– يا ابن أخى أصب من المـاء البارد ما استطعت فى دنياك .

فكان لهذه الكلمة الأخيرة أثر عميق فى نفس مصعب لا تمحوه الأيام ، فقد ظل يذكرها طول حيـاته وكلما فـكر فى معناها اقشعر بدنه وتقطع قلبـه ندما وخشية .



* * *

لم يخف مصعب على أخيه عبد الله استياءه منه لما أساء استقبال وفـد العراق ، ولما اغلظ له الحديث فى أمر سكينة وعائشـة ، فلم يشأ ان يكثر التردد عليـه أثناء اقامته بمكة فكان لا يزوره الا نادرا .

ولما عزم على الرجوع الى العراق خطر له أن يرحل من مكة دون أن يسلم على أخيه أو يودعه حتى يكون ذلك بمثابة الاحتجاج عليه . ولكنه عاد فرأى ان فى ذلك افتئاتا على حق أخيه الخليفة ، وخشى أن يتخذ أحد بطانته من ذلك سببا لا يغار صدره عليه وتصويره بصورة من يريد الخروج عن طاعته .

وحين حضر لتوديعه جلس معه طويلا فذاكره عبد الله فى امر عبد الملك ابن مروان ووجوب معاجلته بالحرب ، فوعده مصعب خيرا وقال له انى راجع الى العراق لأدبر فيها الأمور واهيىء فيها الأسباب حتى اذا اطمأننت الى استقامة الأحوال بها مضيت بجيشى اليه وكتبت اليك لتعززنى بجيش من عندك يلقانى فى الطريق .

قال عبد الله : أخشى يا مصعب أن تنسيك الدعة فى العراق ما تعدنى به اليوم فأجابه مصعب فى شىء من الحدة :

يا أخى لم لا تحسن رأيك فى ؟ ان الدعة لا تشغلنى عن مهام الأمور .

ـ هذا قول تقوله يا مصعب وأخشى أن يكذبه ما يبلغنى من عملك .

وكان مصعب يخشى أن يكون قد بلغ عبد الله شىء عن ضعف نيته فى قتال عبد الملك لما بينهما من الصداقة القديمة ، ولكنه لما ذكر الدعة ادرك يقينا ان اخاه لا يدرى عن هذه الحقيقة شيئا فاطمأنت نفسه وانشرح صدره ، وان اظهر الحدة فى رده عليه حينما اتهمه بحب الدعة .

ولم يكد مصعب يصل الى الكوفة ويستقر بها اياما حتى انتهى اليه ان اخاه قد عزله من ولاية البصرة ، وولى مكانه عليها ابنه حمزة ، فغضب مصعب غضبا شديدا ، ولم يقلل من غضبه ان عبد الله كتب اليه فى الاعتذار عن ذلك بأنه اراد أن يفرغه هو للاستعداد لقتال عبد الملك حتى لا يشغله عنه شىء ، وأن من الخير أن يكون على البصرة رجل من آل الزبير أثناء سير مصعب الى الشام لمنازلة عدوه .

واجتمع بالأحنف بن قيس وابراهيم ابن الأشتر وغيرهما من كبار أصحابه فتذاكر معهم سوء سياسة أخيه وبخله واستبداده بالرأى . واستشارهم فيما ينبغى عليه ان يفعل .

فأشار عليه اكثرهم بألا يخضع لأمر اخيه ولا يعترف لحمزة بولاية البصرة وان يكتب الى نائبه بها أن يستمر فى حكمها بالنيابة عنه ولا يمكن حمزة من شىء حتى يضيق صدره فيلحق بأبيه راجعا الى مكة .

ولكن الأحنف بن قيس خالفهم فى هذا الرأى بشدة وقال لمصعب :

انك ان فعلت ذلك أعلنت للناس انك على خلاف مع أخيك أمير المؤمنين ولن يستقيم لك ولا له أمر بعد ذلك .

ـ فماذا أصنع يا أبا بحر ؟

ـ فاطرق الأحنف مليا ثم قال له :
ـ ماذا ترى فى ابن أخيك حمزة هذا ؟ .

ـ شاب اخرق أحمق لا يحسن أن يسوس بيته .

ـ فاتركه اذن يحكم البصرة برهة حتى يظهر فساد سياسته وعجزه عن القيام باعباء الولاية فسيضطره اخوك حينئذ الى عزله وبعيد الولاية اليك .

ـ واذا لم يفعل ؟

ـ كلا يا مصعب لا تمض فى سوء الظن باخيك عبد الله الى ابعد مما ينبغى لك ، فمهما يسغ لنا ان نقول فيه فلا ينبغى ان ننسى انه شديد فى الحق على نفسه وعلى أقرب الناس اليه .

فقال مصعب : صدقت يا ابا بحر ان عبد الله لكما وصفت وهذا ما حيرنى فى أمره كيف يحاسبنى على النقير والقطمير ثم يولى ابنه هذا الاخرق على البصرة ؟

ولما انصرف أصحابه من عنده ولم يبق الا الأحنف قال له :

ـ ويحك يا مصعب ما كان ينبغى ان تعلن هذا على ملأ من الناس فانك لا تأمن ان يكون فيهم من يكتب الى اخيك عبد الله بما يسمع منك .

فقال مصعب : ليبلغه ذلك فانى لا ابالى .

ـ كلا يا مصعب ما يكون لك ان تصعب الأمور على نفسك وان الكياسة ملاك السياسة .

قال له مصعب : اعلى ان انتظر حتى يثبت عجز حمزة وفساد سياسته لغير شىء الا ان اوافق اخى عبد الله على استبداده ؟

قال الأحنف : ويحك أى شىء يعجلك؟ انك لست حريصا على قتال عبد الملك ابن مروان . وهذا ضعف فيك فماذا يضيرك أن تجد فى عزلك عن البصرة وتوليتها لحمزة ما تعتذر به الى اخيك عن التعجيل بالمسير الى الشام خشية أن تضطرب أمور العراق فى غيبتك ؟ .

فاستراح مصعب لهذه الكلمات اذ أصابت هوى فى نفسه فقد كان لا يكره شيئا فى الحياة ما يكره أن يضطر الى محاربة ذلك الصديق الحميم .



* * *

طرأ على مصعب تغير شديد فى مزاجه وسلوكه ونظرته الى الحياة منذ عودته من الحجاز . فلم يعد ذلك المرح البسام الذى ياخذ الحياة أخذا لينا ، ويستقبلها بصدر منشرح ، ويستمتع بها استمتاع من لا يفكر الا فى يومه ولا يبالى بغده .

وأخذت الهموم تساور قلبه فتكدر عليه يومه وتؤرق ليله أحيانا وتضطره للتفكير فى المستقبل فيجده كالحا لا يبشر وجهه بخير ولا يفتر ثغره عن أمل . أين تلك الثقة التى كانت تفيض بها نفسه ؟ وأين تلك الآمال التى كان يجيش بها صدره ؟ لقد قضى على كل ذلك ما لقيه

به أخوه عبد الله حين قدم عليه فى عاصمة ملكه .

لقد كان يعلم أن أخاه مقبوض اليد ، ولكنه لم يخطر بباله قط وهو قادم عليه بعد ذلك النصر الكبير الذى أحرزه على عدوه اللدود المختار بن أبى عبيد أن تبلغ بأخيه كزازة اليد بحيث يمنع عطاءه عن تلك النخبة المختارة من وفد العراق الذين قدم بهم عليه مزهوا بهم مؤملا ان يلقوا من أخيه امير المؤمنين ما يكافىء بعض ما قدموا من نصرة له ، وبعض ما أظهروا من اخلاص فى سبيله ، حتى يبيض وجهه هو أمامهم فيستطيع فى المستقبل أن يثق باستمرار ولائهم له وعدم انصراف قلوبهم عنه الى أعدائه .

لقد رجع من الحجاز وهو يشعر بالخزى والهوان مما فعله أخوه عبد الله بوجوه أهل العراق اذ لم يكتف بمنع العطاء عنهم بل أهانهم جهارا وندد بهم على تلك الصورة المندية حيث وازن بينهم وبين أهل الشام فود لو ان له بكل عشرة منهم رجلا واحدا من أهل الشام صرف الدينار بالدرهم .

أجل انه قد اجزل لهم العطاء عقب عودته من العراق ليعوضهم عما فاتهم من عطاء أخيه ، وبالغ فى التحبب اليهم والتقرب الى قلوبهم ، ولعله قد نجح فى استبقاء مودتهم له . ولكن كيف يزيل عنهم أثر الاهانة التى مستهم من أخيه وكيف يستعيد له بعدها ولاءهم

واخلاصهم ؟ وان فرقا كبيرا بين أن يخلصوا له هو وبين أن يخلصوا للقضية العامة التى يعمل لها ويجاهد فى سبيلها أخوه أمير المؤمنين .

انهم لن يوازنوا بينه وبين عبد الملك ابن مروان فما هو الا امير تابع لأخيه عبد الله ، ولكنهم سيوازنون حتما بين عبد الله بن الزبير الخليفة بالحجاز وبين عبد الملك بن مروان الخليفة بالشام فمن ذا يستطيع أن يلومهم اذا مالت نفوسهم الى عبد الملك ؟ .

وها هو ذا أخوه عبد الله يعزله عن ولاية البصرة كانما يريد أن يؤكد لهؤلاء العراقيين أن ليس لأخيه مصعب شىء من الأمر ، وكانما يقول لهم بلسان حاله : ويلكم لا تغتروا بصاحبكم مصعب فانى أنا الحاكم من ورائه ومرجع الأمر كله الى .

انه هو الكريم بالطبع والنحيزة لأشد الناس ضيقا بما جبل عليه أخوه عبد الله من البخل ، وأعمقهم احساسا بالألم والمرارة من جرائه وبالحياء منه والخجل كذلك .

وانه ليعتذر عنه لبعض من يجلسون اليه من غير خاصة أصحابه ، فيزعم لهم أن مرجع ذلك من أخيه عبد الله الى فرط تقواه وشدة محاسبته لنفسه وحرصه على ما استحفظه الله عليه من مال المسلمين أن يصرف فى غير ما أمر الله به أن يصرف من وجوه الخير والبر ،

ولكنه لا يؤمن بذلك فى قرارة نفسه ولا يعزوه الا الى رذيلة البخل وهى أبغض الخلال جميعا اليه .

وتسلسل الهموم آخذا بعضها برقاب بعض فيذكر أولئك الثلاثة الآلاف من أصحاب المختار الذين تركهم يذبحون فى يوم واحد بعد ما توسلوا اليه ان يبقى عليهم ليقاتلوا معه آل مروان أعداءهم وأعداءه وكان فى وسعه ان يحول دون ذلك لو وقف موقف الحزم من أشياعه الكوفيين .



ويتذكر تلك الكلمة التى حصبه بها الرجل الصالح عبد الله بن عمر حين لقيه بمكة فلم يزل دويها فى سمعه وقلبه : يا ابن اخى أصب من الماء البارد ما استطعت فى دنياك .

ويتذكر امرأة المختار ابنة النعمان ابن بشير صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم التى قتلها أصحابه غدرا وهى فى طريقها بين الكوفة والحيرة فعيره بذلك الشاعر عمر بن أبى ربيعة فى أبياته التى جرت على أفواه الناس فى كل مكان .

لقد احتمل قبلا كل ما احتمل من ذلك من أجل أخيه عبد الله أمير المؤمنين وفى سبيل القضية العادلة التى ينافح عنها لخير المسلمين ، والتى كان يطمع أن تنتصر فى المستقبل القريب .

أما اليوم وقد أوشك أن ييأس من مستقبلها فعلام احتمل كل ما احتمل ؟ وعلام استباح فى سبيلها ما لم يقره ضميره ولم تسوغه له مروءته ؟ .

ثم ان من أشد ما يؤلم نفسه ان العدو الطالب هو بقتاله لم يكن غير صديقه القديم الحميم عبد الملك بن مروان .

لقد استطاع زمنا أن يتقى الاشتباك معه فى حرب بما كان يشغله هو من قتال المختار بن أبى عبيد ، وبما كان يشغل عبد الملك من قتال الروم والخوارج ،

فأى عذر بقى له اليوم بعد ما قضى على المختار بن أبى عبيد وفرغ منه ؟ وان أخاه عبد الله ليحثه على المسير الى الشام لمنازلة عبد الملك ، وانه ليزعم له أنه ما عزله عن امارة البصرة وجعلها لابنه حمزة الا ليتفرغ مصعب لهذه المهمة الكبرى .

وانه ليعلم ان هذا عذر اقبح من

الذنب ولكن لماذا لا يتخذه سببا لتسويف المسير الى الشام كما نبهه الى ذلك الأحنف بن قيس ؟ فى وسعه الآن أن يكتب الى اخيه عبد الله بانه لا يستطيع ان يغادر العراق ويتوجه صوب الشام لمنازلة عبد الملك الا بعد ان يثبت حمزة انه قادر على ضبط الاحوال وتصريف الامور فى ولايته ويومئذ يطمئن هو فيسير .

والى أن يتم ذلك قد تجد امور وامور ليس من المستطاع التكهن بها اليوم .

* * *

ولم يطل بمصعب الانتظار فان حمزة ابن اخيه عبد الله لم يلبث ان ظهر عجزه عن حكم البصرة وسوء سياسته فى اهلها فضاقوا به وتذمروا من وجوده بينهم ، وآخذوا يستخفون بأمره ، ويستهينون بشـــأنه ، ويتندرون عليه فيغضب هو منهم ويشتط فى معاملتهم فلا يزيدهم ذلك الا نفورا منه واغراء به .

ولم يسع الاحنف بن قيس عنـــدئذ الا أن يكتب الى عبد الله بن الزبير يطالبه بعزل حمزة عن ولاية البصرة واعادتهـــا الى مصعب كمـــا كانت ويقـــول له : ان عبد الملك قد فرغ من منافســـة عمرو ابن سعيد الأشدق اذ قتله غدرا وأنه خليق الآن أن يستعد لغزو العراق .

واستجاب عبـــد الله بن الزبير لكتاب الأحنف فعزل ابنه حمزة ، وأعاد ولاية البصرة الى مصعب ، وأوصاه بالتوجه لمناجزة عبد الملك فكان ذلك يوما مشهودا اذ رجع مصعب الى البصرة ليصـــلح بها ما أفســـده ابن اخيه وليرتب فيها الأمور اســـتعدادا لمـــا ليس منه بد من التوجه الى الشام لتنفيـــذ ما أمره به اخوه عبد الله .

وأخذ معه نساءه الاربع فاعادهن الى دورهن بالبصرة ، وكانما احس انه يقيم بها هذه المرة مقام مودع ، وانه لن يلبث أن يغادرها لغير رجعة ، فاطلق لنفسه العنان فى الاستمتاع بأقصى ما يمكنه من مباهج الحياة فى هـــذه المدينة الوادعة ذات الزروع وذات النخيل وذات الشط الذى تتمايل فيه السفن والقوارب غادية رائحة .

آه ما أجمل الحيـــاة فى ظل السلام حيث لا حرب ولا خصام .

اللهم الا تلك الخصومات اللـــذيذة العذبة التى تنشب بينـــه وبين نسائه الجميـــلات اللائى يتنافسن عليه أيهن تكون لها الحظوة الأولى عنـــده والمقام الاول فى قلبه .

وقد أتيح لهن فى هـــذه المدينة من فراغه ودعته ما لم يتح لهن فى الكوفة ، فأمعن فى التحبب اليه والتدلل عليه فى أساليب مختلفة لكل واحـــدة منهن أسلوبها الذى تجيده .

ولقد كان يشقى بهن وبما يصدر عنهن من منافسات ومكايدات تدور حـــوله كأنما هو كرة تتلاعب بها الصوالج ولكنه كان يجـــد لذلك لذة لا تعدلها لذة فى الحياة .

كان يلذ له الهجر كما يلذ له الوصل

ويعجبه العتب الجميل كما تعجبه الشكوى الرقيقة ، وتطيب له المغاضبة كما تطيب له المراضاة وانها لأمور محببة اليه اذ يجد فيها مجالا لقلبه أن يتوثب ويتعذب ويشتكي ويستعتب ، ويتقلب بين حلاوة الوصل ومرارة الهجران .

ولقد اجتمع له من أجمل نساء العرب فى عصره ما كانت تكفى واحدة منهن ليقصر عليها بعلها قلبه ، ولكن قلب مصعب الكبير يتسع لهن جميعا وتبقى فيه بعد زوايا خالية تود لو أن الشرع اباح له أن يشغلها بنسوة اخر .

وكان أشد ما يلقى من ذلك ما يلقى من عائشة بنت طلحة فقدكانت أشرسهن عليه وأكثرهن نشوزا ودلا وتعذيبا .

انه لا يعرف من اين يأتى رضاها ولا من اين يأتى سخطها ، فقد يعمل شيئا يريد به رضاها فاذا هى تغضب منه ، وقد يأتى امرا يحاول به أن يغضبها فاذا هى ترضى عنه وتشكره عليه .

ولن ينسى أبدا كيف عرضت عليه ذات يوم ثمانى لؤلؤات لم ير الناس أكبر منها حجما قط ولا أجمل بريقا فاشتراها بعشرين الف دينار فانطلق بها فرحا الى دار عائشة ليقدمها هدية اليها ، وكان يعرف غرامها باللؤلؤ الأصيل وحرصها على الاستكثار منه وتدقيقها فى اختياره ، فلما دخل عليها عند الضحى وجدها نائمة فلم يستطع من فرط سروره بما يحمل لها أن ينتظر حتى تستيقظ من تلقاء نفسها فأيقظها ونثر اللؤلؤ فى حجرها وهو يقول :

ــ جئتك يا عائش بلؤلؤ لا يصلح لغير جيدك وليس عندك مثله .

فما راعه الا أن نظرت الى اللؤلؤ بغير اهتمام ثم قالت وهى تتثاءب .

ــ ويلك يا مصعب أمن أجل هذا توقظنى من نومتى ؟ والله ان نومتى كانت احب الى من هذا اللؤلؤ !

وعادت الى نومها وهى تومىء له أن اخرج ودعنى انم وحدى فى سلام .

وكان ربما يدعوها للتنزه معه فى بعض ضواحى المدينة فتقول له :

ويحك ألا تغار على من عيون الناس ؟

فيقول لها : أى شىء يدعونى للغيرة منهم عليك ؟ أنا أكبر من ذلك يا عائشة وانت أكرم من ذلك ؟ .

فتثور فى وجهه قائلة : انك لا تحبنى فاذهب عنى ولا تعد الى .

فيحاول أن يسترضيها فلا تقبل له كلاما وتصفق الباب فى وجهه وتبقى اياما مغاضبة له لا تأذن له ولا تكلمه .

وكانت من جانب آخر قلما تحتجب اذ كانت تجلس وتأذن كما يأذن الرجل فاذا عاتبها مصعب فى ذلك قالت له :

ان الله تبارك وتعالى وسمنى بميسم جمال احببت أن يراه الناس ويعرفوا فضلى عليهم فما كنت لأستره ، ووالله ما فى وصمة يقدر أن يذكرنى بها احد .

فاذا راجعها مصعب فى ذلك اندفعت تقول له :

ـ وبلك ان الغيرة من الضعف وهي لا تجدر بمثلك .

ـ انما أغار عليك حبا يا عائشة ولا أغار عليك ضعفا .

ـ فادع غدا أحد أصحابك ليجلس اليك ويراني بين يديك .

ـ أو بعد غد .

ـ كلا بل غدا والا فلا .

ـ حبا وكرامة .

قال ذلك وهو يعلم ان غد ذلك اليوم سيكون في نوبة سكينة بنت الحسين ولكنه لم يشأ أن يتقهقر امام تحديها السافر فوعدها ولا بد له أن يفي بالوعد وليكن ما يكون .

ولم يدرك أنها قصدت ذلك عن عمد لتفسد ما بينه وبين غريمتها سكينة الا بعد ذلك بأيام حين صارحته هي بذلك وهي تضحك من غفلته وسذاجته .

فلما كان الغد حضر مصعب الى دارها ومعه أبو عامر الشعبي، فلما ظعن في الدار التفت اليه وقال له ادخل فدخل معه ومضى نحو حجرته فتبعه الشعبي فاذا هو بحجلة جميلة مكسوة بالوان الحرير فوقف ينظر اليها مبهوتا متعجبا من حسنها وبهائها ، ودخل مصعب الحجلة واختفى فيها فهم الشعبي أن ينصرف ولكنه تذكر أن مصعبا لم يأمره بالانصراف ، وحدثته نفسه بالجلوس ولكنه خشي أن يغضبه ذلك منه فوقف منتظرا فاذا جارية قد خرجت فقالت :

ـ يا شعبي آن الأمير يأمرك أن تجلس

فجلس الشعبي على وسادة وثيرة غاص فيها حتى أشفق أن يتلفها او يفسدها وظل كذلك برهة لا يدري ماذا يفعل ولا ماذا يريد مصعب أن يفعل به .

وانه لكذلك اذ رفع سجف الحجلة فاذا هو بمصعب بن الزبير يحييه ويبتسم له فاطمأن قلبه قليلا ثم رفع السجف الآخر من الحجلة فاذا هو بعائشة بنت طلحة قد بدت في زينتها كأنها الطاووس فأخذت تبتسم له وتحييه فلا يحير جوابا ..

ـ ويحك يا شعبي الا ترد تحيتي باحسن منها ؟

وتلعثم الشعبي وتلجلج وهو يقول :

ـ معذرة يا سيدتي ..

ـ ماذا دهاك ؟ لطالما سمعت عنك انك فصيح المنطق فأين ذهبت فصاحتك ؟ وقهقه مصعب ضاحكا وهو يقول :

ـ دعيه فوالله لو رأيتك أول مرة مثله لأصابني الذي أصابه .

ثم وجه حديثه الى الشعبي فقال :

ـ هل تعرف هذه يا شعبي ؟

ـ نعم أصلح الله الأمير .

ـ ومن هي ؟

ـ سيدة نساء المسلمين عائشة بنت طلحة .

ـ كلا يا شعبي .

— فمن تكون اذن أيها الأمير ؟

— هذه ليلى التى يقول فيها الشاعر :

وما زلت من ليلى لدن طرشا ربى
الى اليوم أخفى حبهـا واد اجن

فحار الشعبى ولم يدر ماذا يقول . ورنت ضحكة عائشة وهى تقول :

— لا تصدق هذا الرجل يا شعبى . فانى أنا حقا عائشة بنت طلحة .

وسكت الشعبى ولم يدر بماذا يجيب

— أنظر الى يا شـعبى . الا يسرك ان تنظر الى ؟

— اذهب يا شعبى مصاحبا ووافنى العشى بالمسجد .

ولما كان العشى وافاه الشعبى بالمسجد فسلم عليه فلما رآه مصعب قال له ادن منى فدنا منه حتى وضع يده على مرافقه فمال اليه فقال :

— خبرنى ياشعبى هل رأيت مثل ذلك الانسان قط ؟ .

— لا والله ما رات عينى مثله قط .

— ولن ترى مثله ابدا .. أفتدرى لم ادخلناك ؟ .

— لا أيها الأمير .




— بلى يا سيدة نساء المسلمين

— هانتذا قد بدأ لسانك ينطلق .. تكلم يا شعبى وحدثنا حديثك .

— لو اعفيتنى يا سيدتى فانى والله لا ادرى كيف أحدثكما .

— فكـركرت عائشـه ضاحكة ثم قالت :

— أتحب ان تبقى هنا ام تنصرف ؟

— بل أنصرف اذا اذنت

— استاذن من دعاك .

— هل يأذن لى الأمير أصلحه الله ؟

— لتحدث الناس بما رأيت

ثم التفت مصعب الى كاتبه فقال له :

أعـط الشعبى عشرة آلاف درهم وثلاثين ثوبا .

فكان الشعبى يحدث أصحابه بما رأى ويقول لهم : ما انصرف يومئذ احد بمثل ما انصرفت به : بعشرة آلاف درهم وبمثل كارة القصار ثيابا وبنظرة من عائشة بنت طلحة .

أما سكينة بنت الحسين فقد كانت تحبه حبا صادقا ولكنها لا تظهر له من حبها الا القليل ، وكان هو يحبها حبــا

جما الا أن تعلقها بالسياسة ، والحاحها عليه بمعاجلة عبد الملك بن مروان كلما لقيته دون انقطاع ، وغرامها بالتنديد بسياسة أخيه عبد الله وقدحها فيه قد اقام بينه وبينها شيئا كالستار الرقيق يحول دون استمتاعه بحجبها على الوجه الذى يرضيه .



ولما عاد من الحجاز ساخطا على اخيه اخذت تلومه وتعنفه ولا سيما بعد ما عزله أخوه عن ولاية البصرة فكانت تقول له :

ـ لو عملت بمشورتى ورأيى ما انتهيت الى هذا الحال .

تشير بذلك الى ما كان من تحريضها اياه من قبل على الاستقلال بالعراق عن اخيه . فقد كانت ترى دائما أن مصعبا أحق من عبد الله بن الزبير بولاية هذا الأمر لا لأنه افضل منه أو اتقى منه بل لأنه اجدر أن يجمع قلوب الناس حوله بما يمتاز به من الخلال التى تحببهم فيه مما ليس عند عبد الله الا نقائضها التى تفض الناس من حوله .

وكانت تشفق أن ترجح كفه عبد الملك ابن مروان اذا بقى مصعب يعمل باسم اخيه ، فشتان بين من يشترى قلوب الأنصار والأتباع بالمال والجاه وبين من يبيعها بالشدة والصرامة ومنع العطاء .

كانت ترى مصعبا كفاء عبد الملك ، ان يفضله عبد الملك بدهائه ومكره فان مصعبا يفضله بفروسيته وشجاعته وكرمه وبجماله الذى يفتن الأبصار .

ولكن ماذا يجدى كل ذلك على مصعب ان كان يعمل من أجل أخيه الذى يهدم كل ما يبنيه ؟ .

انها لا تجهل مكانة عبد الله بن الزبير ، ولا تنكر تقواه وزهده وصرامته فى الحق ، وحرصه على اتباع النهج الذى سار فيه أمثال عمر بن الخطاب وعلى ابن أبى طالب من قبله على ما فيه من شوائب تقعد به عن اللحاق بهم .

ولكنها ترى أن الزمان قد تغير عما كان . وان الطراز الذى كان يصلح فى ايام عمر بن الخطاب لم يعد يصلح حتى لأيام جدها على بن أبى طالب بعد ما اندلعت نيران الفتنة فى أيام عثمان ابن عفان فذهب هو وقودها ، وتوالت الفتن كقطع الليل المظلم فقلبت موازين الأشياء ،فنجح من كان ينبغى ان يخفق واخفق من كان ينبغى ان ينجح . ومن ذا ينسى ما كان بين الأمام على ومعاوية ثم ما كان بين أبيها الحسين ويزيد ابن معاوية .

لقد اخفق على وهو أفضل الناس واتقاهم ، ونجح معاوية وظفر بالخلافة وهو لا يساوى قلامة ظفر على . ولقى أبوها الحسين مصرعه حين ثار على يزيد بن معاوية وشتان بين الحسين وبين يزيد .

فماذا يكون عبد الله بن الزبير اذا قيس بهؤلاء وكيف يتاح له النجاح من حيث اخفق من هم افضل واثبت فى هذا النهج الذى ساروا عليه ، ومن له بمهابة على فى صدور الناس أو بالحب الذى كانوا يضمرونه للحسين ؟

أما مصعب فانه من الطراز الذى يصلح لولاية الناس فى هذا الزمان ففيه جميع الصفات التى تحببهم فيه وتجمعهم عليه ، وتعينه على بلوغ الغاية ولا يعوزه الا شيء واحد هو الاستقلال بأمره عن اخيه .

ولقد ازداد أملها فى أن يقتنع برأيها هذا حينما عزل عن البصرة واسندت ولايتها لحمزة بن عبد الله بن الزبير ، اذ كان مصعب فى حالة سخط شديد على أخيه ولكن ذلك لم يدم طويلا اذ ما لبث أن أعيد الى ولاية البصرة فقضى ذلك على أملها فى اقناعه بالانصياع لما تريد .

على أنها لم تيأس كل اليأس من تحقيق الحلم الذى يراودها على وجه من الوجوه ـ ذلك الحلم الذى بدأ يطوف براسها منذ تزوجت مصعب ابن الزبير فوجدت فيه من خلال الشجاعة والكرم والمروءة ما أغراها أن تطمع له فى أمر لو تحقق كان فيه شفاء نفسها ونفوس شيعتها جميعا من الثأر لجدها ولأبيها وغيرهما من أهل بيتها النبوى الكريم من ذلك البيت الذى ناصبهم العداء وانتزع منهم الخلافة وأذاقهم صنوف العذاب والويل : بيت آل مروان .

# من أوائل كتاب الأقصوصة فى مصر

بقلم : عباس خضر

كان عبد الله نديم ( ١٨٤٣–١٨٩٦ ) أول من استرعى انتباهى – من حيث الزمن – فى مجال كتابة الأقصوصة . لا أقول انه قصد أن يحدث فنا قصصيا ، انما هى مادة صحفية كتبها بطريقة تلقائية ، فجاءت هكذا . .

كان يصدر فى الاسكندرية جريدته « التنكيت والتبكيت » سنة ١٨٨١ ، ويظهر أنه كان يحررها وحده ، وكان ينوع فى موادها ، فجاءت الأقصوصة فى جملة مواد الجريدة المتنوعة . كتب تحت عنوان « عربى تفرنج » الأقصوصة الأولى هكذا :

« ولد لأحد الفلاحين ولد فسماه زعيط وتركه يلعب فى التراب وينام فى الوحل حتى صار يقدر على تسريح الجاموسة فسرحه مع البهائم فى الغيط يسوق الساقية ويحول الماء . وكان يعطيه كل يوم اربع حندويلات واربعة أمخاخ بصل . وفى العيد كان يقدم له اليخنى ليمتعه بأكل اللحم .

وبينما هو يسوق الساقية وابوه جالس عنده مر بهما احد التجـــار فقال لأبيه : لو ارسلت ابنك الى المدرسة لتعلم وصار انسانا .

فأخذه وسلمه الى المدرسة ، فلما أتم الابتدائية أرسلته الحكومة الى أوربا لتعلم فن عينته له .

فبعد اربع سنين ركب الوابور وجاء عائدا الى بلاده ، فمن فرح ابيه حضر الى الأسكندرية ووقف برصيف الجمرك ينتظره . فلما خرج من الفلوكة قرب ابوه ليحتضنه ويقبله شأن الوالد المحب لولده ، فدفعه فى صدره .

فلما وصل به الكفر قامت امه وعملت له طاجنا فى الفرن مملوءا لحما ببصل ، فلما رآه قال لها :

زعيط – ليه كترتى الـ . . .

معيكة – من الـ ايه يا زعيط ؟؟

زعيط – من البتاع اللى اسمه ايه . .

معيكة – اسمه ايه يا ابنى ؟؟ الفلفل ؟؟

زعيط – نو ، نو . دى اللى يبقى لو راس فى الأرض .

معيكة – والله يا ابنى ما فيه ريحة التوم . .

زعيط – البتاع اللى يدمع العينين ، اسمه انيون .

معيكة — والله يا ابنى ما فيه انبون ولا . دا لحم ببصل .
زعيط — سى سا . بصل بصل ..
معيكة — وبا زعيط يا ابنى ، نسيت البصل وانت كان اكلك كله منه ؟!
معيط شكاه لاحد النبهاء وقال : ولدى توجه لاوربا وحضر يذم بلاده واهله ونسى لغته .

فقال له النبيه : ولدك لم يتهذب صغيرا ولا تعلم حقوق وطنه ولا عرف حق لغته ولا قدر شرف الامة ولا ثمرة الحرص على عوائد الأهل ولا مزية الوطنية ، فهو وان كان تعلم علوما الا انها لا تفيد وطنه شيئا ، فانه لا يميل الى اخوانه ، ولا يستحسن الا من يعرف لغتهم ، على انه اصبح كالحجل لما اراد ان يقلد الغراب فى مشيته ، وعجز عن التقليد واستحال عليه عوده لطبيعته الاولى ، فأصبح يقفز قفزا وقد خرج عن حد الجنسية وطباع النوعية . ولا يفعل فعل ولدك الا لئيم جاهل بوطنه ، فكم من شبان تعلمت فى اوروبا وعادت محافظة على مذهبها وعوائدها ولغتها وصرفت علومها فى تقدم بلادها وابنائها ، ولم ينطبق عليهم عنوان « عزبى تغرنج » .

حدث متخيل على نمط الواقع ، تتوافر له الوحدة والحبكة ، وشخصيات ذات ملامح ناطقة مرسومة من خلال الحوار ، وحوار ناضج كانضج ما يكون الحوار ، وموضوع تخدمه كل هذه العناصر بتركيز لا فضول فيه ، فيما عدا « الخطبة » الأخيرة التى اجراها على لسان النبيه ، وهى كل عيب هذه الاقصوصة .
وقد استعمل هذه الشخصية فى اقاصيص اخرى كتبها على هذا النمط ، وهى تشبه « الحارث بن همام » و « عيسى بن هشام » من حيث وضعها للرقابة على بقية الأشخاص والحكم على تصرفاتهم ، وواضح ان الكاتب يتقمصها ويتكلم على لسانها كلاما مباشرا .

والموضوع الذى تعالجه الاقصوصة ، وهو تنكر بعض المبعوثين الى الخارج لوطنهم ، وترفعهم على اهلهم ومواطنيهم ، وتنكرهم لكل القيم القومية ، طرق فى القصص بعد ذلك بعشرات السنين ، كما فى « قنديل أم هاشم » ليحيى حقى ، على اختلاف كبير فى المعالجة الفنية لطبيعة الزمن والتطور .

وقد تناول عبد الله نديم فى اقاصيص اخرى موضوعات اخرى مستمدة من اهتمامات عصره ومشكلات مجتمعه ، واهتم اهتماما خاصا بشرور الأجانب فى مصر واستغلالهم للبلاد واهلها فى حماية الامتيازات الاجنبية ، ففى قصة الفلاح والمرابى يجرى الحوار الآتى بين الزراع والتاجر الأجنبى :

الزارع — عاوز جنيه بالفرط يا سيدى ..
التاجر — فرط المائة عشرون كل سنة .
الزارع — أعمل اللى تعمله .
التاجر — شيل عشرين من مائة تبقى كام ؟
الزارع — هو انا كاتب ؟! شوف بفضل كام .
التاجر — يبقى سبعين ..

الزارع — يدوب كده .

التاجر — دلوقت صار لى مائة جنيه ، ضم عليهم عشرين واكتب الكمبيالة .

الزارع — اكتب وخد الختم اهو ..

وعند السداد يصبح الفلاح مدينا للتاجر ، بمائتين وعشرة جنيهات ونصف جنيه .. ولما يعاتب « النبيه » التاجر على هذا الاحتيال يقول له التاجر الأجنبي :

« يا خبيبي ، الزارع خمار ، وانا اذا كان موش يعمل كده موش لازم يجى تاجر بنكرجي بعد خمسة سنة .. » .

وحوار هذه القصة والقصة السابقة يدلنا على الاحساس الغريزي بفن القصة لدى عبد الله نديم ، فانه لم يتصل بهذا الفن فى أدب الغرب الا ما عسى أن يكون قد قراه من الروايات القليلة التى ترجمت أو مصرت .

وفى اقصوصة « سهرة الأنطاع » يقول لنا انه دخل مع هؤلاء « الأنطاع » ، الذين اجتمعوا فى بيت موسر كبير منهم ، فرآهم واجمين صامتين ، فتبادر الى ذهنه اولا ان رب الدار قد نزل به مكروه ، وجاء هؤلاء يواسونه وجلسوا معه محزونين .. ولكنه وجه اليهم عدة اسئلة عما يجدر بهم ان يشغلوا افكارهم به كتقدم اوربا وانتشار تجارتها ، او ما يستغلوا فيه ثرواتهم لنفعهم ونفع البلاد ، او ما اتت به الصحف من الأنباء ، فاجابه صاحب الدار بان كل ذلك لا يهمهم وان تقدم البلاد او تأخرهم لا يفيدهم شيئا احسن مما هم فيه ، وان الذى يهمهم هو مزاجهم وتناول « مكيفاتهم » وتبادل النكت والضحك . وبهذا تبينت له حقيقة « الأنطاع » وهى أنهم اجتمعوا لتعاطى ( الكيف ) وانهم يجلسون صامتين فى انتظار دواعى الأنس ، وقد وصف مجلسهم وتكاسلهم فيه وصفا دقيقا مميز الملامح والتفصيلات .

ومن العجيب ان تقوده الغريزة القصصية ايضا الى كتابة ما يشبه القصة الرمزية ، وذلك فى اقصوصة بعنوان « مجلس طبى لمصاب بالافرلجى » وكانت مصر قد وقعت فريسة للدين الأجنبى على يد « اسماعيل » وبسبب اسرافه ولهوه ، فتدخل الأجانب فى شئونها بحجة هذا الدين ، وفرضوا عليها ما سمى بالمراقبة الثنائية وانشىء صندوق الدين .

فى القصة شاب ( يرمز الى مصر ) يصفه الكاتب بانه قوى سليم البنية جميل الطلعة ، يحوطه اهله بالرعاية ويحمونه من كل اذى ، ولكن رجلا ( يرمز الى الاجانب ) ماهرا اتقن فن الخداع والاحتيال استطاع ان يتسلل اليه ، فاوهم أهله بانه من ذوى الورع والتقوى ، فانخدعوا به وامنوا له واسلموه اياه ، فراح يعرضه فى الأسواق والطرقات ، وجلب له من الغوانى الحسان من تعارض الشمس بحسنها وتكسف البدر بنورها ، وأوعز الى الحسان الغوانى ان يغازلن أهله بنغما تحرك الجبان ، فانصرف الأهل اليهن ، وغفلوا عن فتاهم ، فانفرد به الدجال

المحتال ، واغرى به الفتيات الملاح ، فتمنع حينا ، وعصمه اولا حياؤه وطهره الذى نشأ عليه ، ثم استجاب للاغراء الشديد والخصم العتيد ، فسار فى الطريق التى رسمها المنافق الخداع . وما هى الا رشفة كأس حتى اصـيب بالداء الافرنجى ( الزهرى ) فاصفر لونه وارتخت اعضاؤه وذهبت بهجته وغارت عيناه وتشوه وجهه وتهدلت محاسنه بقبائح تنفر منها الطباع ، وفطن بعض اهله لأمره ، فبكى وانتحب واخذ يذرف العبرات ويصعد الزفرات ، وجمع له الأطباء يشخصون داءه ويركبون له الدواء لعله يبرأ من علته ويقف سريان الداء ، واقبل اهله متلهفين لمعرفة راى الأطباء وسماع نصحهم ، فطلبوا اليهم الهدوء ومساعدتهم فى العناية به وحفظه من ان يصل اليه اجنبى غريب ، واخذ اهله يعملون بمشورة الاطبـاء ويبذلون فى خدمته والمحافظة عليه ما وسعهم من الجهد .

وعيب هذه الأقصوصة الرمزية ان حادثها الظاهر الذى يرمز غير مبرر فى بعض اجزائه ، كعرض المحتال الشاب فى الأسواق ، وهى الى هذا تعتمد على السرد والوصف ، وليس فيها حوار او مشهد محدد مصور .

ولكننا اذا نظرنا الى هذا الصنيع القصصى وجدناه شـيئا عجيبا فى ذلك الوقت . كانت ثقافة عبد الله نديم هى ثقافة الأدباء من امثاله الذين لم يتصلوا بالأدبى الغربى ، لا بطريق مباشر ولا غير مباشر ، فلم يزد ما عرفوه او ما عسى ان يكون بعضهم قرأه ، على تلك الروايات التى مصرت ولم يكن لها طابع ولا سمات ادبية ، الى ما عرض من مسرحيات مصرت هى ايضا كما مصرت الروايات .

ولا بد ان عبد الله نديم قد تأثر بها فى بضع تمثيليات مدرسية الفها لتلاميـذ مدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية بالاسكندرية ، وكان ناظرا لها فى الوقت الذى اصدر فيه « التنكيت والتبكيت » .

والواقع ان عبد الله نديم كان غريبا فى عصره وسابقا لزمنه ، كما يقال فى مثله ، وقد عدل عن السجع والزخارف اللفظية منذ اصدر « التنكيت والتبكيت » واطلق اسلوبه متحررا منها ، على حين ظلت الصحافة نفسها تصدر مرصعة بالسجع بعد ذلك عشرات السنين . ، ولو انه اتصل بأصول الفن القصصى ودرسه وتوفر عليه ، او امهلته الأحداث السياسية ، لكان لنا منه قصاصا رائدا تقدم بنهضة القصة عندنا نحو اربعين سنة .

كتب عبد الله نديم هذه الأقاصيص فى الوقت الذى بدا فيه «جى دى موباسان»، و « انطون تشيكوف » استاذا القصة القصيرة فى العالم ، او لعلهما لم يكونا قد بدا بعد كتابة القصة القصيرة . نشأ كل من موباسان وتشيكوف فى بيئة قصصية وسبقتهما تجارب فى لغتيهما ولكن عبد الله نديم شق بهذا الذى كتبه على هـذا النسق طريقا فى العربية لم يسبق اليه . وربما كان للعالم منه استاذ فى فن القصة القصيرة لو توافرت له ثلاثة امور : تجارب سابقة فى لغته ، وبلد آمن من الغـزو الأجنبى لا يشغله الدفاع عنه ، ولغة منتشرة فى العالم .

لقد كان مشغولا بفكرة الاصلاح الاجتماعى الى جانب همه الوطنى وتطلعاته القومية ، التى بذرها او أثارها فى نفسه ، وفى نفوس غيره من شباب ذلك الزمن ، جمال الدين الأفغانى . فحمل هم بلاده وأرقه ما وصلت اليه من ضعف وما لقيته من هوان أمام الغزو الأجنبى فى مختلف صوره .

ما بدا النديم بتلك الاقاصيص فى « التنكيت والتبكيت » حتى جذبته الاحداث، وعهد اليه « عرابى » فى نشر الدعوة الوطنية عن طريق التجوال فى مختلف بلاد القطر ، وكان يتذرع الى هذه الرحلات بدعوى انه يحصل اشتراكات الجريدة ، ورأى عرابى أن الأمر اجل من التنكيت ، فاتفق معه على تغيير اسم الجريدة ، وسميت « الطائف » ، ودخل الأمر فى جد اكثر ، اذ هوجمت البلاد عسكريا ، وجند النديم قلمه فى المعركة ، ثم كانت فاجعة الاحتلال ، واختفى النديم تسع سنوات قبض عليه بعدها ، ثم عفى عنه ، ثم نفى الى الخارج ، ثم عاد ، واصدر جريدة « الأستاذ » ولم يعد الى كتابة الأقاصيص .

وهو فى الواقع لم يكن يقصد احداث فن قصصى فى أدب العربية ، انما كان ذلك شكلا هدته اليه فطنته ، او قل روح الفنان الكامنة فيه ، الى ان يتخذه اداة لنقد المجتمع وبث أفكاره الاصلاحية ، على اننا سنرى هـذا الدافع الاجتماعى الاصلاحى فى محاولات قصصية بعد ، حتى فى القصص الفنية الناضجة نفسها .

نشرت أقاصيص النديم فى بضعة أعداد من جريدته الأولى ، ثم طواها الزمان عن الأبصار ، وظلت فى طياته حتى حفظت صحائفها واستقرت فى مخـازن دار الكتب بالقلعة . وما كان أسعدنى بعطر الفن يهبط على من صفحات صفراء ملصقة اطرافها المتآكلة بقصاصات ورق شفاف .

## لبيبـــه هاشـــم

كان « المعلم » الثانى من معالم طريق الأقصوصة المصرية ، قصص « لبيبة هاشم » ـ ( ١٨٨٠ ـ ١٩٤٧ ) ، وهى لبنانية الأصل ، جاءت الى مصر مع أهلها وهى صغيرة ، واقامت وتزوجت بها ، وتتلمذت لابراهيم اليازجى صاحب مجلة « الضياء » ، وكانت هذه المجلة نصف شهرية وتغلب عليها الموضوعات الأدبيـة واللغوية ، اذ كان صاحبها من رجال اللغة فى عصره ، وكانت تنشر فى كل عـدد « رواية » فى باب « فكاهات » وهى قصص قصيرة مترجمة وان لم يذكر الكاتب المترجم عنه . وقد نشرت فى سنتها الأولى قصتين مؤلفتين فقط احداهما لموسى صيدح ، والثانيـة للبيبـة هاشم ، أما الأول فلم نر له قصصا مؤلفة بعد ذلك ، وقصته لا تختلف كثيرا عن قصة لبيبة هاشم ، ترمى كل منها الى حكاية حادثة مسلية فيها شىء من الغرابة وشىء من الوعظ يقحم احيانا ، كما تقول لنا لبيبة هاشم فى أول قصتها « احسان هانم » :

« يأذن لى القارىء ان اقص على مسامعه حادثة جرت حقيقة ، وهى مع ما فيها من غرابة الواقعة وفكاهة الحديث لا تخلو من فائدة للمطالع اذ تنبهه الى التحذر من مثلها مما يمكن حدوثه فى كل زمان ومكان » .

نرى كثيرا فى قصص المحاولات الأولى حرص الكاتب على امرين ٠ الأول التنبيه الى ان حوادث القصة وقعت فعلا وان كانت اغرب من الخيال ، والثانى النص على فائدتها وعبرتها ، وكثيرا ما يكون هذا فى تعليق اخير ،

ونلاحظ الأمر الأول حتى فى القصص المترجمة ، ففى احداها يبداها المترجم هكذا : « هى حادثة واقعية كتبها عن نفسه واحد من مفتشى الشحنة ( البوليس ) بلندن يقال له ادوارد قال ... » :

ويبدو لى ان ذلك راجع الى ان فن القصة كان يتقدم الى الناس فى استحياء وارتياب ، لأنهم يصمونه بالعبث ومجرد اللهو ، ولا ياخذونه ماخذ الجد ، فكان يحاول ان يؤكد نفسه وينفى عنه تهمة « التلفيق » الخيالى والتفاهة المسلية .

وتقص لبيبة هاشم ــ بعد تلك المقدمة ــ حادثة تجرى وقائعها فى القسطنطينية، ولكى تؤكد انها جرت حقيقة تذكر انها وقعت مساء يوم ١٥ يونيو سنة ١٨٩٨ . فتاة جميلة فى ثياب راهبة طرقت باب قصر احدى الأسر ، ففتح لها البواب الذى فتن بجمالها ، وقالت لصاحبة القصر انها راهبة من اخوات المحبة فى مصر ارسلتها رئيسة الدير لبعض الأغراض فى تركيا ، وقد جاء عليها الليل فى الطريق ، فلجأت الى هذا القصر لما سمعت عن اهله من كرم الأصل والأخلاق ، وتريد أن تبيت الليلة ، فرحبت بها صاحبة الدار ، وانزلتها فى احدى غرفه ، واستبد بالبواب الشوق الى رؤية الفتاة التى وقع حبها فى قلبه أول ما رآها . فتسلل الى غرفتها ونظر من ثقب الباب فرآها مدججة بالسلاح ، وقد خلعت ثياب الرهبنة ، وتتدلى من حزامها سلسلة مفاتيح ، ورآها تشير بالمصباح الى آخرين فى الخارج ، وكشف امرها لسادته . وقبض عليهما رجال الشرطة هى وافراد العصابة ، وكان كشف امر هذه اللصة من ( حسنات الحب ) .

والقصة مكتوبة باسلوب مسترسل خال من التكلف ملائم للسياق القصصى متقدم بالنسبة لعصره ، وشخصياتها موصوفة من الخارج تتحرك تبعا لما تريد الكاتبة من التشويق والمفاجاة ، وليس فيها انفعال بموضوع تعالجه معالجة فنية ، شأن كل القصص فى تلك الفترة ، ونراها تتكلف الدلالة على المغزى الذى اشارت اليه فى المقدمة ، ومن قولها فى هذه المحاولة : « والحب كم له من حسنات » .

واستمرت لبيبة هاشم تكتب فى مجلة « الضياء » قصصا قصيرة من هذا اللون على قلة ، الى جانب مشاركتها فى القصص المترجمة للمجلة ، ولما توقفت « الضياء » اصدرت هى مجلة « فتاة الشرق » على غرارها سنة ١٩٠٦ وزادت عليها العناية بشئون المراة ، واستأنفت فيها نشر قصصها المؤلفة ، وظل مفهوم القصة القصيرة عندها كما هو ، حوادث كثيرة تقوم على المبالغة والتشويق والمفاجاة والوعظ . واكثر هذه الحوادث يدور بين لبنان ومصر وسوريا وتركيا ، ومعظمها يشبه ملخص القصة الطويلة . وقد كتبت قصتين طويلتين هما « شـــيرين » و « قلب الرجل » نشرتهما مسلستين فى « فتاة الشرق » ثم جمعت كلا منهما فى

كتاب ، ولم تجمع قصصها القصيرة . وقد وفقت فى رواية « شيرين » أكثر من « قلب الرجل » الأولى اجتماعية عصرية ، والثانية محاولة تاريخية ، واجـادتها الفنية فى « شيرين » لا نراها فى سائر ما كتبته من قصص .

ومن قصصها القصيرة التى نشرتها بمجلتها فى السنة الأولى قصة « جزاء الاحسان » تبدأها ـ على عادتها بتحديد تاريخ وقوع الحادث ـ هكذا :

« فى اواسط ديسمبر سنة ١٨٩٨ كان يرى منزل حقير فى احـــدى شوارع الاسكندرية مؤلف من غرفتين صغيرتين تمثلان للناظر حالة الفقر والشقاء » .

فى ذلك المسكن مريض يطلب الى زوجته ان تاتى بطبيب ، فتذهب الى احد آلاطباء ، فيكتفى الطبيب ببعض وصفها للمرض ، لأنه لمح علامات فقرها ، ويكتب لها تذكرة الدواء ، وتعمل جاهدة للحصول على ثمن الدواء ، وهو عشرة قروش ، ثم يراها شاب فى الطريق فيرثى لها ويعطيها ريالا .

وتلجأ الى مصادفة ظاهرة اذ حدث ان سائق سيارة يدهس بسيارته غلاما فى الشارع ، الغلام ابن بطلة القصة ، والسائق هو الشاب الذى كان قد منحها الريال فانقذ حياة زوجها ، وعند المحاكمة تتقدم الى القاضى وتطلب تبرئة المتهم « جزاء الاحسان » .

وهى قصة وعظية كما ترى وحوادثها مفككة ، ولكن قيمتها فى عرض الكاتبة لمظاهر الفقر ومظاهر الغنى والمفارقة بينهما فى المجتمع ووصف ذلك بدقة ، وكانت هذه النغمة الرومانسية قد ظهرت فى الأدب العربى اذ ذاك بتأثير الأدب الفرنسى، وخاصة على يد المنفلوطى ، ولهذا نرى القصة تشبه عبرات المنفلوطى .



ونتتبع هذه الكاتبه مع مرور الزمن،فلا نراها تتقدم الا فى الأســـلوب وطـلاقة التعبير ، اما المفهوم الفنى للقصة القصيرة فلم تصل اليه ، برغم مزاولتها للترجمة القصصية ، ونلحظ ان القصص القصيرة التى كانت تترجمها ولم تكن تذكر اسم كاتبها ، حوادثها كثيرة مضغوطة ، مما يدل على أنها فى الأصل قصص طويلة ، وهى فى هذا تعد انموذجا للمترجمين فى عصرها ، وعلى هذا يبدو لى ان القصة القصيرة بمعناها الحديث على نحو ما كتبها روادها فى الغرب ، امثال موباسان وتشيكوف وادجار آلان بو ، لم تظهر فى اللغة العربية مترجمة الا متاخرة . اما متى ظهرت مؤلفة فنحن فى الطريق اليها .

## قصتان لمنصور فهمى

ومما يدل على نوع فهم لبيبة هاشم للقصـــيرة أنها نشرت فى مجلتها « فتاة الشرق » يناير سنة ١٩١٩ قصة قريبة من سمت القصة القصيرة الفنية الحديثـة ، نشرتها فى غير باب « فـكاهات ـ رواية » المخصص لنشر القصص فى المجلة ، نشرتها كمقال ، كان العنوان « التوبة » وكتب تحته « بقلم حضرة الكاتب الاجتماعى القـــدير الدكتور منصور فهمى » وهى تصـــور حمالا يعيش فى مدينــة

أسيوط مع امه العجوز وابنه الذى ماتت امه ، يسكر الحمال ذات ليلة ويعربد ، ثم يعود الى بيته فى وقت متأخر ، ويدق الباب ، فلا يسعفه احد بالفتح ، فيسب ويلعن ، واخيرا استيقظ ابنه فقام وفتح له ، فضربه وشج رأسه ، وهرب الصبى واختفى ، ويصور الكاتب حزن البطل على ابنه ، وبحثه عنه دون طائل ، ثم توبته على يدى شيخ متصوف ، تصويرا واقعيا ، وان كان يجنح فيه اخيرا الى جو غريب من كرامات المشايخ ، لا شك انه تأثر فيه برومانسية الغرب الى جانب ما فى أعماقه من الايمان بمثل هذه الكرامات .

على اننا نرى فى المجلة نفسها بعد ذلك بثلاثة أشهر ( مارس سنة ١٩١٩ ) قصة أخرى للدكتور منصور فهمى نشرت فى باب القصص ( فكاهات — رواية ) قد يكون تصحيح الوضع بناء على اعتراض الكاتب وقد يكون لسبب آخر . وفى ذلك الوقت كانت قد بدأت جريدة السفور تنشر بواكير القصة الفنية القصيرة ، ولكن أكثر الصحف والمجلات — ومنها فتاة الشرق — لا تزال بعيدة عن هذه البواكير ، ما عدا قصة منصور فهمى وعنوانها « ابن الحاج نصر » .

تبدأ بهذه البداية التى تهب كريح الشمال الآتية من شمال البحر الأبيض المتوسط :

« أنا ذا ابن الحاج نصر ، الله .. الله .. ما الذى حل فى الدنيا ؟؟

قال ذلك بصوت مرتفع .. » .



والحاج نصر كان غنيا عريقا فى القرية ، ولكنه أسرف وأتلف ماله ثم مات ولم يترك لابنه شيئا ، واضطر ابن الحاج ان يعمل اجيرا فى أرض رجل حديث الغنى بالقرية ، ومرة اهانه الخولى ، فخرج من البلد ثائرا حتى مر برجل كان رفيقا لأبيه ، فاكرمه وفاء منه وعرفانا لفضل سيده الراحل ، ثم اتى اليه أمين المخازن بأمر صاحب الارض واسترضاه ، وعاد الى العمل فى الساقية ، حتى فاجأه الصرع وهو الى بئر الساقية .

وفى خلال ذلك رسم لنا الكاتب شخصية « ابن الحاج » كنموذج لعزيز قوم ذل واعطانا لمحات انسانية وشاعرية فى تصوير العلاقات بين افراد القصة .

ولم نر بعد قصصا لمنصور فهمى ، فقد عدل عن كتابة القصص وانصرف الى نواح اخرى من النشاط الثقافى واعمال الوظائف التى تولاها . واليقين ان هذه الباكورة كانت — لولا ذلك — ستفضى الى ثمرات انضج وكنا كسبنا كاتبا من كتاب القصة البارزين .

# وقفة على الدرب

بقلم محمود البدوي





كان الجو صيفا وطريق الاسكندرية الزراعى مزدحما بالسيارات الذاهبة اليها والراجعة منها ... وكانت السيارات الخاصة تمرق كالسهام من بين اللوريات الضخمة المحملة بأكياس القطن وألواح الخشب وفناطيس البترول .

وكان الطريق الممهد كبساط من الديباج يساعد على هذه السرعة ويضاعف منها كلما أحس السائق بان الزمام فى يده .

وكنت مسافرا فى هذا الطريق ساعة الغروب مع أربعة من الركاب ولم اكن اعرف منهم أحدا ، فى سيارة أجرة اخذناها من ميدان المحطة .

وكانت الحرارة شديدة حتى بعد ان غربت الشمس فجلسنا صامتين .. ثم فتح احدنا الحديث بعد ان تجاوزنا مشارف المدينة وأخذ يتحدث عن ازدحام القطارات المسافرة الى الاسكندرية فى هذه الأيام واستحالة حجز تذكرة فى يوم السفر .

وكانت السيارة تمضى بنا على سرعة ٧٠ كيلو مترا فى الساعة وظروف الحال كلها تدل على أننا سنبلغ طنطا فى الساعة التاسعة والنصف والاسكندرية بعد الحادية عشرة .



ولكن حدث ما لم يكن فى الحسبان . اذ تعطلت بنا السيارة ونحن على مبعدة سبعة فراسخ من طنطا وحاول السائق اصلاحها بكل وسيلة فلم يوفق ومع ذلك لم ييـأس وظل يعمل بيـديه فى جلد عجيب .

وظهر الضـجر على وجوه الركاب الأربعـة فنفضوا أيديهم من السائق وأعطوه نصف الأجـر .. ومر لورى فاستوقفوه وبعـد محـاورة قصيرة رضى سائقه ان يأخذهم جميعا وانطلق بهم .

وتخلفت عنهم اذ كنت فى الواقع أبغى ركوبة أفضل وفى الوقت عينه سمعت محرك سيارتنا يدور فى نفس اللحظة التى ركبوا فيها اللورى وقدرت أن السائق وضع يده على مكان العطب وأننا سنلحق بهم بعد قليل .

ولـكن خاب ظنى اذ كان المـوتور « يخبط » ثم توقف مرة أخرى .

وقال لى السائق وعلى وجهـه آثار المعركة التى خاضها مع المحرك : ـ لا فائدة فى الليـل .. والصبح له عينان ... وآسف جدا لهذا العطب الذى يحدث لكل آلة ..

ثم اسـتطرد وهو يرمى ببصره فى الظلمة .. محـاولا أن يستشف معالم الطريق .

ـ عندما يمر لورى ساحاول ايقافه لتركبه اذ أن السـيارات الخاصـة لا تقف قط .. وانتظرنا أكثر من ساعة ولم يرض سائق لورى أو عربة خاصـة أن يقف فى عتمة الليل .



وسالته وأنا أحس بالقلق :

ـ الا توجد قرية على مقربة منا .. ؟

ـ بركة السبع قريبة جدا .. وهناك مركز صغير لاصلاح الاطارات على مدى فرسخ واحد .. واذا سرت اليه قد تجد سيارة .. واذا لم تجد السيارة وجدت الشاى والطعام .. انه موقع احسن من هنا على كل حال .. !



ـ وأنت .. ؟

ـ سانام فى السيارة الى الصباح .. اعتدنا على هذا .. !! وفى الصباح يأتى الفرج ..

ـ سـاذهب وأرى .. واذا وجدت طعاما سأبعث لك بعشائك ..

ـ شكرا ..

ونقدته ما يرضيه من الأجر .

وقال وعلى وجهه الصبر والقناعة :

ـ مع السلامة .. ابعد عن سكة السيارات ..

وسرت وحدى فى الطريق فى ليلة تلمع فيها النجوم والسماء فوقى زرقاء صافية وكان القمر فى المحاق . والعتمة تبدو شديدة لأن الزراعة عاليـــة والأشجار الطويلة على الجانبين تضاعف من خط الظلمة .. ولكنى شعرت بالقوة والانطلاق وانا أسير فى قاب الطبيعة تحت السماء وبين الحقول . كنت أحس بالحرية التى يبغيها كل انسان واشعر أن لا سلطان لأحد على اطلاقا .. وانني ادفع الهواء بصدرى واتحرك بكل حريتى .. وكان الهواء الذى بدأ يترطب يمـــلأ رئتى وينعشنى وعيناى تسبحان فى الظلمة الشاحبة وترقبان السماء الصافية فى تأمل المستغرق بحواســـه فى جمـــال الكون .

• • •

وملت عن طريق السيارات خشية أن أصرع تحت عجلاتها ولا يحس بى انسان واحسست بأنفاس الزرع وأنا أقترب من الحقول المزهرة على الجانبين كانت الأذرة فوق مستوى كتفى .. والأرض لا تزال حارة .. ورائحة التراب تختلط مع أنفاس الحشائش .. ولمحت ضباب قرية عن بعد وبصيصا من النور يتصاعد من كوات المنازل .. فخمنت أنها بركة السبع التى حدثنى عنها السائق .

وكان مجرد احساسى بأنى اقترب من البيوت ومن أنفاس الحياة حافزا لى على الاسراع فى الخطو .. ولم أشعر بالخوف وأنا أسير وحدى فى الليـــل فى ظلمة مطبقة وسكون موحش .. فقد اعتدت على هذا وألفته .. وفى خلال عشر دقائق من السـير الجاد .. ولم أقابل شخصـــا فى الطريق ولا فلاحا فى الحقل .

وكنت مخففا من كل حمل فلم تكن معى حقيبـة ومن عادتى أن أذهب الى الاسكندرية هـــكذا لأركب القطار أو السيارة فى الساعة التى اجد فيها أيهما فى متناول يدى ..

وأكسبنى الليل والسير فيه وما فيه من غموض ورهبة شعورا عارما بالقوة . وكنت وأنا أتخطى الحقول وأجتاز مزارع الأذرة والخضر .. أحس بيد الفـــلاح القوية فى الأرض .. وأدركت وأنا أتنفس مع أنفاس الزرع لماذا يحس الفـــلاح بحريته كاملة كلما خرج الى الحقل وعرف أن سماء الله هى التى تظله وأرضه هى التى يقف عليهـــــا .. ويعيش من خيراتها ..

وفى تيـــه من التأمل الذى استغرق حواسى بصرت عن يمينى كثيفا من الشجر وبركة ماء بين الأشجار .. وكان ماؤها يبدو فى ظل العتمة راكدا بلا حياة ولمحت نورا ضـــئيلا ينبعث من كـــوخ وراء البركة .

وسرت فى « مدق » بين المزارع ... ولما وقفت على حافة الحقل .. لمحت البيت بين كثيف من أشجار النخيل . وظللت فى مكانى وانا أؤمـــل أن أبصر دلائل الحياة .

كان الهواء رخيا ... وكومـــة من التبن هناك فى حقل محصود .. ثم رأيت

خرافا ونعجـــات . وبقرة مربوطة فى وتـــد .

ولما اقتربت أكثر من البيت رأيت فى العتمة شبح كلب يزمجر .. فانحنيت لأتناول طوبة أرميه بها .. فركبه السعار ودار حول نفسه فى وحشية أرعبتنى . وأحسست بانى أمام شىء رهيب لا قوة لى عليه .. فوقفت فى مكانى وقد شلت كل حـــركة فى جسمى .. وفى خطف البرق أحسست بأنياب الحيوان تنهش كتفى ووقعت على الأرض .. وفى نفس اللحظـــة دوت طلقة نار .. واغمضت عينى ..

* * *

ولما فتحتهما وجدت رجلا يقف على عكاز فوق راسى .. وكان لا يزال بيده البندقية القصيرة التى أطلق منها النار ..

وقال باسما :

ـ لا تخف فقد انتهى ..

وتأملت الحيوان صريعـــا على مدى أمتار .. وكان الرجل الذى صرعه قد استدار ومشى على عكازه بضع خطوات وهتف بشخص فجاء هـــذا سريعا .. وتحاملت عليه .. حتى أدخلنى فى رواق البيت .. وغســـل الجرح وحشاه « بالبن » وكان الـــدم لا يزال ينزف وشعرت بضعف شـــديد .. ولابد من الطبيب فى هذه الساعة .. فأرسل نفس الشخص سريعـــا ليأتى بطبيب الوحدة المجمعة .

* * *

ورحت أجيل بصرى فى القاعة .. كان الضيف قد أراحنى على دكة تحتها حرام ووضع فوقى بطانيـــة وتحت راسى وســـادة محشوة بالقطن .. ولـكنى أحسست بالبـــرودة فى جسمى رغم البطانية ورغم أننا فى الصيف .. من فرط الدم الذى نزف منى .. وبعتمة فى مشاعرى .. وبآلام لا حد لوصفها .. وراحت أفـكارى تحوم .. ورحت من فرط التعب فيما يشـبه النعاس .. حتى صحوت على صـوت الطبيب .. وهو يضمد الجرح ..

وقلت للطبيب :

ـ أخشى أن يكون الكلب مسعورا .. وفى هـذه الحالة لابد من الذهاب الى مستشفى الكلب .. والعلاج طويل .. !!

فقال بهدوء وهو يبتسم :

ـ اطمئن انه ليس بكلب ..

ـ ماذا .. ليس بكلب .. ؟!

ـ نعم انه وحش ..

وفتحت فمى مدهوشا .. وسمعت صوت الرجال فى الخارج .. ثم رأيتهم من فرجة البـــاب يسحبون شيئا على الأرض ..

وسألت الطبيب :

ـ هل هو الوحش .. ؟

ـ انهـــا البقرة .. صرعت من نفس الرصاصة ...

ـ من نفس الرصاصة .. ؟!



ـ أجل . كان لابد من هـــــذا لتعيش .. !

ـ ولكن الرجل لم يحدثنى بشىء من هذا .. وجعلنى أتصور أنه كلب ..

ـ هذا هو الفلاح ..

واخذت أفكر فى البقرة وثمنها انها تساوى ١٥٠ جنيها وربما كانت « عشارا » وتساوى أكثر من هذا وصرعها الرجل بيده .. وربما ليس عنده سواها .. من أجل غريب لا يعرفه .. وما رآه من قبل قط فى حياته .. وعجبت ولكن عجبى زال بعد لحظات من التأمل لأننى أفكر بعقلية رجل المدينة ولا أعرف الفلاح .. انه اعتاد على هذه الأشياء .. وعندما تنزل به المصيبة يفكر فى العوض ولا يقنط من رحمة الله .

انه يتلقى النوازل بقلب صلد .. فهو يزرع الأرض ويأكل زرعه الدود .. ويزرع الأرض ويصيبه « المن » .. ويزرع ويصيبه « الهلوك » .. ويزرع ويصيب زرعه العطش .. ويزرع ويغرق زرعه أو يجرفه السيل أو تحرق أجرانه ولكنه مع كل ذلك يزرع ويظل يزرع لأنه يعرف بفطرته سر الحياة .. والحياة حركة ومن يتوقف يموت .. ولهذا بقى الفلاح المصرى وعاش فى الأرض .. وكان حتى فى أشد عصور الظلام يشعر بقوته .. فى أعمق أعماق نفسه .

ولهذا عندما انقشع الضباب وازيح التراب انتفض كما هو الآن .

واستفقت من سوانحى على صوت الطبيب وهو يغلق حقيبتـــه الصغيرة ويقول :

ـ سآتى مرة أخرى فى الضحى .. لأغير على الجرح وأعطيك حقنة ..

ـ وأستطيع أن أتحرك بعد ذلك ..

ـ سنرى .. بعد الكشف ..

وتركنى .. وأحسست بالنعاس .. وبأن الألم بدأ يخف ..

ولما فتحت عينى فى اشراقة الفجر .. كان الرجل الذى لا أعرف حتى اسمه يقف على باب القاعة معتمدا على عكازه يقف حارسا وما أحسبه استراح ولا غفى ساعة واحدة فى هذه الليلة ..

# أهل زمان

بقلم : جاذبية صدقي



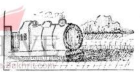


تأخر القطار . فاشتريت سميدة وقطعة جبن بآخر قرشين معى — قطعة جبن لا فرق بينها وبين ما يعمرون به مصايد الفئران . قديمة ورائحتها نفاذة وتغطيها طبقة عنكبوتية خضراء . اخذتهما وجلست بهما على مقعد خشبى متهالك فوق أفريز المحطة . فجاءنى يتشمم ... ويتسكع .. ويحك جنبه برجلى .. ويلسع قدمى بارنبة أنفه المبللة كلب أجرب يجر وراءه ساقا لا خير فيها . فقلت فى سرى :

— « يا فتاح يا عليم ! » .

ودسست السميدة تحت ابطى اخفيها بطرف سترتى . اما الجبن فخبأتها فى جيبى . ما لى انا ؟ انا جوعان .

فرفع الىّ عينين ذليلتين تطرفان بكل بؤس الدنيا وشقائها . وهز ذيله . او حاول ان يهزه . فلما وجد ان ذلك مجهود فوق ما يحويه بدنه الهزيل من طاقة اطرق بانكسار . فملأنى شفقة على ذلك المخلوق الذى انتهى او كاد . لكننى انا الآخر انتهيت او كدت . اربعون سنة وانا اشقى .. واتعب .. واجرى هنا والهث هناك وراء لقمة عيش اسد بها افواها سبعة وأمهم ... ثمانية





افواه غير فمى انا الذى كانت زوجة ابى تشبهه بالبالوعة التى لا مثيل لها . فهى لا تنسد ابدا ... تشفط كل ما يأتى فى دائرة عملها — وأبعد من ذلك بكثير . وكبر الأولاد : خمسة صبيان وبنتان . وحرصت على تعليم الصبيان حرفة والبنات شغل الابرة . وزوجتهم كلهم وجهزتهم : البنات بجهاز وصيغة ... والصبيان بمهر . ولما اطمأننت عليهم كلهم فى بيوتهم تنفست الصعداء وفركت كفى والفرحة ترعشنى أنتقى بيتا من بيوت اولادى السبعة اعيش فيه بقية عمرى بعد ان ماتت أم الأولاد . فهل رحب بى احدهم ؟

هانذا على طوار المحطة .. فى هلاهلى .. وسميدة وقطعة جبن عفنة تحت ابطى اقضم منها وآكل .. فى انتظار قطار الصعيد الذى سيرحلنى الى القاهرة . ماذا سأفعل هناك ؟ لا أدرى . ومن خلقك . أبدأ من جديد .. على ما أعتقد . عمل جنونى — لا شك . من جانبى . عمل غير مضمون العاقبة ... وأنا أبو السبعين سنة أحملها على كتفين هما وعصا عفريت « المقاتة » سوداء . ولكن ... ماذا كان فى وسعى ان افعل ؟ لم اعد مرغوبا فى . استنفدت قواى ومالى — شيئان يحببان الخلق فيك . يجعلانك ذا فائدة ما . أما انا ... النهاية . نبذنى اولادى . ربما طقطقت لسانك ورميتهم بالعقوق .. بل ربما لعنتهم . لا .. لا . لا تتسرع . دعهم . ربنا يفتح عليهم . هم يجارون زمانهم . زمن لو أقرأت فيه جارك السلام لرماك بنظرة مستريبة .. متشككة . ربما تضمر طلب شىء منه .. فيجيبك متغصبا متحفظا .. لا يعطيك الريق الحلو حتى لا تطمع فيه . وقد تعلمت ذلك انا ايضا — ولو متأخرا . فاخفيت عشائى عن ذلك المخلوق الأجرب الذى جاء يحتك بى لعلى اعطيه قطعة من عشائى .. الذى ربما كان افطارى ايضا . فمن يدرى متى أتحصل على قرش آخر ؟

طفقت ادس يدى تحت ابطى واقتطع من السميدة نتفة ألقيها فى فمى فى خلسة والحقها بنتفة اخرى من الجبن — والعينان الذليلتان الجائعتان تتابعان كل حركة من يدى ... كل مضغة من شدقى .. فشعرت بضيق . كنت جائعا لا اريد أن

يشاركنى أحـــد طعامى ولو بنظرة . فطردته بقدمى . فانطرد . مشى خطوتين مرتعشتين ثم جلس .. بل انه ارتمى يلهث وقـــد تدلى لسانه كانه آت من مشوار بعيـــد ورأسه على ذراعيه .. وعيناه متشبثتان بيدى وهى تسترق نتفة من السميذة وتلقيها فى فمى .. ثم تبحث فى جيبى الشـــمال برهة وتخرج بنتفة من الجبن تلحقها بالسميذة .

وأكلت نصف السميذة عندما طرق سمعى حديث بين كهلين لمحتهما بطرف عينى يمشيان متساندين الى أريكة خلفى ثم يجلسان متربعين فوقها .

كان أحدهم يقول :

ـ « كانت الدنيـــا دنيا بحق ... زمان ! » .

فتنهد زميله :

ـ « هيه ... أيام ! » .

ـ « اتذكر الحاج « رفاعى » تاجـر الحرير ؟ » .

ـ « أذكره ؟ ألف رحمة تنزل عليه ! كان مولاى وولى نعمتى » .

كان كبير تجار زمانه ولا ينافســـه الا الشيخ « سويلم » ! .

فطقطق الآخر يهش تلك السيرة كأنها ذبابة :

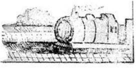
ـ « دعنـــا من سيرته .. كان ناكر جميل .. لقد كان على ثرائه الواســـع بذىء اللســـان لا يفهم أن المنافســـة لا تستدعى الحط من كرامة منافسه ! »

فوافقه زميله [illegible] ... يخرج الـــكلام من جوفه ويمضـــغه كالبقرة العجوز :

ـ « معك الحق . ولـكن ماذا تقول فى النفوس ؟ شـــد ما قاسى « الحاج رفاعى » من لسان « الشيخ سويلم » : أتعرف حكايتهما ؟ » .

ـ « أعرفها ولكن قل ... نتسلى : »

ـ « كان « الحاج رفاعى » يقيم فى حى الدرب الأحمر .. حى كبار القوم وأثريائهم . وقد بنى جامعـــا فرشه بالبسط وأناره بالشمعدانات وأجـرى عليه مالا . وكان يصلى فيه كلما وجد لديه الوقت . لكنه كان يحرص على صلاة الجمعة حرصه على عينيه . فاذا نودى للصـــلاة وجدته على رأس المصـــلين وما تنتهى الفريضـــة حتى ييمم وجهه شطر بيته وقد اصطحب معه امام الجامع ... ومقرئه .. ومن صلى عن يمينـــه .. ومن صـــلى عن شماله فى يومه . ويجلسون .. خمستهم .. فى صحن الدار أمام صينية عامرة بما لذ وطاب ! » .



فقاطعـــه الكهل الآخر يتلمظ عن فم اهتم مطبق :

ـ « عارف يا سيدى .. عارف ! لكم أكلت معه . كنا نتقاتل على الصلاة على أحد جانبيه .. ثم صرنا نتفق فيما بيننا على من يقع عليه الدور ... بل وصل بنا الأمر الى أننا كنا نبيع دورنا بمبلغ لا يستهان به لطامع فى التقرب الى كبير تجار الحرير ! » .

ومنظر عجائزيتحدثون طريف للغاية . فانت لا تكاد تجد فرقا يذكر فيه بين رجال ونسـاء . فالظاهر ان مع أرذل العمر تختفى فوارق الجنس فتتشابه السحن ... وتعجف الأبدان .. ويتهدل الشعر أبيض على الجبين والصدغين . والعجوز تجده يفضل أن يتكوم متربعا يطوى ساقيه ويجلس فوقهما وهو يلملم ذيل جلبابه حوله بحرص دون وعى .. كانما يتم على ما سيخرج به من دنياه : كومة عظام ناشـفة تغطيهـا خرقة من نسيج . كذلك فعل عجوزانا تربعا فوق الأريكة ... تلك الليـلة من شـتاء « أسيوط » .. على طوار المحطة الضئيل النور . وكان كل منهما يغطى دماغه بكوفية لم يلفها كالعمامة بل أسدلها على جانبى رأسه كالخمار . فلم يكن يميزهما عن امرأتين عجوزتين سـوى شارب منتوف وصوت أجش — وان شاركت بعض العجوزات الرجال هاتين الصفتين ايضا .

وأنا أحب الحكايات . لم أكن كذلك فى شبابى . كنت أضيق بكثرة الكلام . لم يكن لدى الوقت ... ولا البـال . لـكننى الآن صرت أحبهـا ... أعنى الحكايات . ارتددت طفلا لى بال طويل وشغف بـسـماع تفاصيل مطولة .. معقدة .. تلف بى .. وتدور .. قبل أن توصلنى الى نهاية القصة . فتربعت على أريكتى الخشبية ذات الضـلوع الصلدة . وشـعرت بفرح خفى لأنى ساستمع لحكاية . ففرقعت باصبعين أنادى الكلب الأجرب . فجاءنى مهرولا يجر ساقه التالفة . وربض عند قدمى مستأنسا بعد أن رمانى بنظرة ممتنة . لكننى لم أعطه لقمة الى هنا ... ولا ! فالقى براسـه على ذراعيه .. لا بيأس قاطع .. بل بشىء من الأمـل وقـد خطا تلك الخطوة : سمحت له بالجلوس قربى ... فى دائرة تفوح فيهـا رائحة السميذة .

أشرعت أذنى . فسمعت الكهل الأول يقول :

ـ « واستمرت المنافسة على أشدها بين التاجرين حتى كان يوما دخل فيه « الحاج رفاعى » مسجده فهاله أن لمح « الشيخ سويلم » بين المصلين . فلم ينبس بشفة بل احترم بيت الله . لكنه لم يطاه بقدم منذ ذلك اليوم . فلما سئل فى ذلك أجاب :

ـ « لقد دنسه كلب ! » .

وبلغت العداوة أشدها بين الرجلين الى أن سافر « الحاج رفاعى » الى « الحجاز » ليؤدى الفريضة للمرة السابعة . وقد جهزته نساء بيته بالزاد والزواد ورحل مع قافلة من قوافل الحجاج على ظهور الجمال وغاب ما يقرب من ستة أشهر »

فقاطعه زميله العجوز وهو يحك قفاه متلذذا :

ـ « هيه .. ؟ وبعد ؟ » .

فاستطرد الآخر وهو يدلك قدميه فى بحبوحة وبلا أدنى عجلة كأنما يمتد الوقت أمامهما فسيحا ... بلا نهـــاية .. ساعات ... أياما .. بل عمرا بحاله :

ـ « سألتنى يا ســـيد . استراح « الحاج رفاعى » يوما فى داره ثم قام يلف على آهل البيت فى أضرحتهم يتلو الفاتحة ويوزع الصدقات . وركب عربتـه ـ التى يجرها زوج من الخيـل « المسكوفى » الأصيل سار يتبختر بخطوات مرنمـة نشوانة فى الشوارع والحوارى . حتى اذا وصل الى ضريح « السيدة » لمح الحاج عبدا وقورا وقد انتبذ زاوية ووضع أمامه منضدة صغيرة عليها صحون مترعة بالمهلبية .



فاضطرب قلب « الحاج رفاعى » ولم يصدق عينيه . فهبط من عربته مهرولا ووقف فى صف المشترين حتى اذا واجه العبد وتحقق منه صاح :

ـ « مرجان أغا ؟ » .

فارتعشت الشفة السوداء وصاحبها ينكس راسه ويغمغم فى صوت كسير :

ـ « نعم يا سيدى ... أنا ! » .

فتأتأ الرجل .. وقلبه يزاحم لسانه :

ـ « وماذا ... ماذا تفعـــل هنا ؟ كيف .. آه كيف تقف تلك الوقفة ؟ » .

فرفع الزنجى عينين بائستين الى وجه « الحاج رفاعى » :

ـ « أبيع مهلبيـــة تطهوها سيدتى لنتعيش من ثمنها ! » وهز رأسه يجيب الأسى الحائر الذى غشى وجه الحاج .. وقال فى صوت متهدج :

ـ « نعم مات .. مات ســـيدى « الشـــيخ سويلم » وبلعت الـديون امواله ! » .

فانقض « الحاج رفاعى » على جيوبه ينتزع منها بأيد تنتفض ما دسه فيها من أكياس جنيهات ذهبية وألقاها على صينية « الأغا » .. ثم سحبه من ذراعه ودفع به داخل عربته .

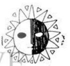
والهب الحوذى ظهور الجياد .

فالتفت الزنجى الى « الحاج رفاعى » الجالس جنبه يحملق أمامه ويكاد يختنق بمشاعره . وهمس :

ـ « سيدى ... ان دموعك تتساقط من ذقنك ! » .

لم اسمع أنا أكثر من ذلك . فقد انتهت الحكايه ... على ما أعتقد .

فتسمرت مكانى اتامل الكلب الأجرب ... وأفكر فى أولادى وأفعالهم فغشيتنى نشوة .. اى والله .. نشوة تزحف على بدنى .. وعقلى .. وقلبى كاننى أنا ذلك التاجر . نشوة عجيبة منعشة كأنها سحابة خيرة جيدة مثقلة



بالماء تزحف حثيثا وتكنس أمامها ركام الأتربة التى تملأ الجو .. وتعبق القلوب ... وتطبق على الصدور !

فسحبت بقية السميدة من تحت أبطى والقيتها بشهامة الى صديقى الأجرب . فهوى عليها يحتضنها بكلتا ذراعيه ويعمل فيها أسنانه نهشا وقضما وبدنه يرتعش من لهفة .

وجاء القطار . جاء يصفر ويعفر .

فهرولت أزاحم الخلق بعصاى ومرفقى . والقيت بلفة ثيابى من النافذة وتسلقت خلفها .

ووقف القطار يلهث ويلتقط انفاسه وقلبه يدوى بعنف . وأسقوه ماء كثيرا حتى ابترد . فزعق بصوت مبحوح يعلن استعداده لمواصلة الرحلة .

فزاحمت أنا مرة أخرى ... داخل العربة ... الجالسين والواقفين .. ادفع هذا .. وأجذب ذلك ـ لا لأجد لى مكانا بل لأصل الى الشباك اطل منه على صديقى ... الكلب .

وتراجعت عن الشباك .. ومشى القطار .. وانا أبتسم بهناء ... والأمل يملؤنى .. والدنيا حولى تتراقص فيها الفرص . ساجد عملا وسقفا فوق راسى ... وساملأ بطنى طعاما بل اننى .. نعم نعم .. سأرسل نقودا الى « البلد » كلما احتاج أحد أولادى وطلب منى . فستتحسن الأمور .. لابد .. امور كل الناس .. كلهم كلهم !

فدسست يدى فى جيب سروالى المرتق .. ودفعت بطربوشى الكالح فوق جبهتى وأنا أصفر بفمى صفيرا مرحا ..

فقد رأيت الكلب يهز ذيله !

# ٢ ـ أولدس هكسلى

بحث : د. طه محمود طه

يبدأ هكسلى فى الفترة الثانية من حياته ( ١٩٢٧ ـ ١٩٣٤ ) فى الهبوط بمستوى مثله العليا حتى تصبح فى متناوله فى محاولة لانهـــاء الإحباط والتشاؤم والعزلة . فالانسان الذى ليس له مثل عليا ، كما يقول ، سيكون تحت رحمة القوى التى تؤثر عليه من الخارج ومن الداخل . والانسان الذى لديه مثل أعلى ممكن ولكنه صعب المنـــال يستطيع أن يتقدم تقدما كبيرا . اما الانسان الذى يختار لنفسه مثلا أعلى لا يمكن تحقيقـه يملأ قلبـه الحزن لأنه لا يستعين بما حوله من قوى ولكنه يناضلها وبالتالى يصيبه الاحباط .

هكذا تبدأ الفترة الحرجة فى حياة هكسلى ، فقد انزل ببساطة مثله الأعلى من على مماس الدائرة ووضعه على محيطها ويبرر تصرفه فى احد قصائده بقوله « انى أجاهد فى الصعود ولكنى مازلت أمسك بالأقرب » ويقابل هكسلى د . هـ . لورنس اول مرة فى عام ١٩١٥ ولم يتأثر بافكاره كثيرا لان هكسلى فى ذلك الوقت كان ، كما يقول ، « رجلا حريصا » ، وكان حديث لورنس دائما يدور حول الأشياء البعيدة والذاتية البحتة . وتقابلا بعـــد ذلك بعد [illegible] العالمية الأولى ثم فى عام ١٩٢٦ فى إيطاليا ، ومنذ ذلك الوقت وهكسلى يلازم لورنس حتى وفاة الأخـــير فى عام ١٩٣١ . وبدأت افكار لورنس تؤثر فى حياة هكسلى وكتاباته ، وكتب هكسلى فى عام ١٩٢٧ فى يومياته :

« ان فى هذا الرجل ( يقصد د . هـ . لورنس ) شيئا مختلفا وعظيما فى النوع وليس فى الــكم » ، ثم كتب فى عام ١٩٢٩ يقول « ان ميثولوجيـــة مستر د . هـ . لورنس الطبيعية الجديدة ـ جـديدة فى شكلها ولـكنها قديمة فى موضوعها ـ تبـدو لى كمذهب مثمر فى امكانياته . » وبدأ هكسلى يفكر جديا فى تطبيق فلسفة لورنس الجنسية الحيوية ، واستمرت فلسفة لورنس « الصوفية المادية » تفتن هكسلى حتى ادرك فى النهاية انها لا يمكنها باى حال من الأحوال أن تحل محل « الصوفية الروحية » التى كان يصبو اليهـــا . فقد كان لورنس وهكسلى مثل النـــار والماء قد يتجاوران ولكن من الصعب مزجهما . ولكن صداقتهما كانت صداقة متينة وكادت هذه الرابطة القوية بينهما أن تجعل من هكسلى لورنس آخر أو « عاشقا للحيـــاة » . وقد حاول هكسلى جاهدا فى هذه الفترة من حياته أن يجمع بين عالم الجنس وعالم الدين ، عالم الروح وعالم الجسد ، وحاول أن يعيش الحياة طولا وعرضا ، على المحور الرأسى وعلى المحـور الأفقى ، أن يحصـل على ما يريد كما ونوعا . ولـكن تكوينه العقلى والجسمانى كان سببا فى منعه من المضى فى ممارسة هذه الحياة الصعبة . ويقول « ومن على هـــذا

المستوى البشرى المتنوع يستطيع اى فرد أن يتحرك الى مالانهــاية ، الى أعلى أو الى أسفل ، ناحية الوحدة مع الأصل الالهى الذى هو أساس وجود الفرد ووجود كل الكائنات أو الى أسفل اطراف جحيم الانفصــال والاثرة وحب النفس . أما فيما يختص بالحركة الأفقيــة ، فحرية الاختيــار مقيدة هنا ومن الصعب على الانسان أن يغير تركيبــه الجسمانى الى نوع آخر . » فالناس تختلف فى أمزجتها وطبيعة تكوينها الجسدى على المستوى الأفقى ، وتختلف فى القدرات على المحور الراسى . ولا يستطيع الانبساطى النزعة ان يغير مكانه على المستوى الأفقى ويصبح انطوائيا ، والعكس صحيح . ولكن كل منهما يستطيع أن ينمى قدراته على المستوى الراسى . وبالرغم من التفــاوت الكبير بين الاثنين فقد حاول هكسلى أن يجعل من نفسه شــبيها بلورنس فقد كانت فلســفة لورنس تعتمد على القوة الحيوية التى تزحف تحت جلده ، واعتنق هكسلى هــذه الفلسفة وأضافها الى فلسفاته الأخرى وأخــذت ميثولوجية لورنس الطبيعية التى تمجد « الدم والبروتوبلازم والحياة التلقائية » تحول انتباه هكسلى الى حياة الانسان الفطرى النبيل ، حياة العيش الفرزى . وفى عام ١٩٣٤ أو ما قبل ذلك أدرك هكسلى أن طريق لورنس طريق شائك لا يناسبه ونفرا له فى « فيما وراء خليج المكسيك » وبعد وفاة د . هـ . لورنس « لا يمكننا أن نقبل دعوة لورنس ، فقد تصفح لورنس كتاب التصوف وقرر أن ما وجده هناك هو تفوق الدم واحقيته » .

صورة د . هـ . لورنس فى « تقابل الألحان » ١٩٢٨

واول صورة تظهر للورنس فى أعمال هكسلى هى صــورة كينجهام فى عام ١٩٢٦ والصورة الكاملة تظهر فى « تقــابل الألحان » فى شخصية رامبيون . ويبــدو أثر فلسفة لورنس الطبيعية فيما يشبه المونولوج الداخلى فى مذكرة فيليب كوارلز الذى يمثل هكسلى :

« وبعد بضع سـاعات فى صحبة رامبيون ، كان يؤمن فعلا بالبدائية الفطرية النبيلة ، كان يشعر باقتناع بان العقل الواعى لابد له من أن يتواضع قليلا ويتقبل مطالب الجسد والقلب ــ نعم ، والامعاء والعظام والجلد والعضلات لابد ان يكون لها نصيبها من الحياة . يا ليتنى أستطيع أن أحصل على شىء من سره ! سأذهب لرؤيته عند وصولى الى انجلترا » . ولقد صور هكسلى لورنس فى هــذه القصة تصويرا رائعا واعطى له صورة رجل يفيض بالحيوية والنشاط ويعيش عيشة غرزية طلقة . ولكن هذه الصورة سرعان ما تكشفت لهكسلى فى عام ١٩٣٤ حين أدرك عودة الطريق :

**« ان التطور من الحالة البدائية الى الحالة الحضارية ، من مجرد العيش فى الدم الى العقل والروح ، تقدم له ثمنه المحدد . وليس هناك تخفيض فى الثمن حتى لهؤلاء المشترين من أصحاب المواهب الفذة . ولقد كنت اظن أنه يمكننى تجنب دفع الثمن ، أو على الأقل تخفيضه تخفيضا كبيرا ، وانه من الممكن أن يستفيد الانسان من العــالمين . ولكن هذا ، كما أعتقد ، ما هو الا وهم ؛ فالثمن الذى يجب أن ندفعه فى سبيل العقل والروح لا يمكن بأى حال من الأحوال تخفيضه » .**

وفى « تقابل الألحان » حاول هكسلى أن يصل الى تركيب فلسفى جديد وكانت مشكلته هى التوفيق بين مطالب الجسد ومطالب العقل والروح أو الجمع بين الاستمتاع الكامل بالحيــاة من حوله مع

الاحتفاظ بالمسافة بينه وبين مجتمعه . ولكنه لم يوفق . ونقرأ في يوميات فيليب كوارلز : « كان دائما يعرف في قرارة نفســه انه لم يكن كاثوليكيا ، او رجلا يحب العيش الرغيد ، او متصوفا او انسانا فطريا ولو انه كان يأمل أحيانا في أن يكون واحدا منهم او كلهم مجتمعين . الا انه كان سعيدا لعــدم كونه واحــدا منهم وفي استطاعته ان يتمتع بحريته حتى ولو كانت حريته هذه ، بطريقة متناقضة ، عقبة في سبيل نمو روحه . »

ومن ناحية الصنعة الفنية في هذه القصة نرى ان طريقة كتابتها توحي الينا بان لورنس لم ينجح تماما في التأثير على أفكار هكسلي . فالعقل الذي ركب اجزاء القصة المعقدة وحوادثها ورسم شخوصها الكثيرة العـدد عقل واع وليس بعقل يتصرف تلقائيا . ففي القصة مجهود فني كبير وآراء متشعبة تتنافى مع التلقائية التي ينادي بها هكسلي في القصة . ولا تحقق جميع الشخوص شيئا يذكر في القصة وتتحرك آليا وكأنها أشباح لا شخوص من دم ولحم . ولا نرى رامبيون اطلاقا وهو يمارس الحياة الفرزية الفطرية النبيلة ، فهو يتكلم منهــا طول الوقت ولا يفعل شيئا . وتركيب القصة الموسيقي وعنوانها لا يوحي بالتوافق في الالحان فهي محشوة بخليط من الأنغام المتنافرة المتناقضة قصد بها هكسلي ان يعرض لنا الشيء الواحد من وجهات نظر مختلفة ( انظر « موسقة القصة » في العدد السادس من مجلة القصة ) ويظل فيليب كوارلز الشخصية المحورية في القصة ونقرأ اخيرا في يومياته :

« حياة كاملة مؤلفة النغم ــ هل حقا ستكون ممكنة ؟ اني اتخيلها :

ولكن ، في الحقيقــة ، في الحقيقــة ... ؟ وعلى كل حال ربما يكون من المثير رسم شخصية على هذا النمط . »

وقد كان من المثير ومن السهل رسم شــخصية لورنس في قصــة ، ولــكنه كان من المســتحيل على هكسلي تقمصها في الحيــاة نفسها وظل هكسلي في عالم الحس والشعور واللذة والجنس كما كان دائما : المتسائل الحائر . ولم يكن لورنس بعــد كل هــذا آخر ورقة رابحة في يد هكسلي ، فقد كان الورقة التي قبل الأخيرة . فهل يا ترى ستكون الورقة الأخيرة خاسرة هي الأخرى ؟ .

ميثولوجية د . هـ . لورنس الطبيعية من الناحية النظرية :

تقابلنا فلسفة د . هـ . لورنس مرة أخرى في كتاب هكسلي « افعل ما يحلو لك » ١٩٢٩ وهو مجموعة من المقالات حاول فيها هكسلي ان يبلور فلســفته اللورنسية الجديدة . واخذ يصب جام غضبه على « باسكال » ويدرس العــلاقة بين التركيب الجسماني والمزاج الشخصي وأثرهما في الانتاج الفلسفي . والمقالات دراسات في نوع الكون الذي يسكنه ويؤمن به افراد من احجام وخصائص جسمانية متباينة ، وفي نوع العبادة التي يفضلها كل منهم . وهاجم « باسكال » لانه كان يؤمن وينادي بالمطلق :

**« والمطلق ما هو الا تجريد من الحياة نفسها ، هروب من التعــدد الى كائن بلا كينونة . فالعالم الروحي بديل هزيل للعالم الواقعي » .**

لقد كان باسكال يريد المطلق لأنه كان في مسيس الحاجة الى نوع من الاستقرار والنظام . واخيرا يرفض هكسلي المطلق لانه لا يقبل ان يفرض عليه باسكال فلسفته التي كيفها ترضه وجسده ومزاجه

الشخصي . فليس للرجل المريض ان يصدر احكاما على تصرفات الاصحاء . واصبحت فلسفة باسكال ، أو « ميتافيزيقا النورالجيا » كما يسميها هكسلي ، ضد حيوية ما ينادي به هكسلي .

وهكذا يترك هكسلي باسكال وفلسفته لانه يذكره بالموت وبالزمان وبالمرض وبالمطلق وبالروح وبالتسامي ويحب لورنس لانه جعله يفتح عينيه على ملذات الحياة وما يكشف عنه العيش الفرزي والدم والحياة وما يحس به المساق من متعه بالعالم . وفي الجزء الأخير من الكتاب بلور هكسلي فلسفة لورنس الجديدة في الحياة الفطرية ، فالحياة على هذا الكوكب قيمة في حد ذاتها دون الاشارة الى عالم علوي سماوي أو مالانهايات أو حياتنا في المستقبل . وحيث ان الغرض من الحياة هو ان نعيش فلابد اذن من أن يكون هناك تباين وتعدد . ولهذا يرى في قصيدة الشاعر بليك « زواج الجنة والجحيم » أعظم تعبير عن « ميتافيزيقا حب الحياة » وملخصها هو ان يحاول الفرد ان :

**« يعادل الافراط في المعرفة الواعية بافراط مماثل في الحدس وفي العيش الغرزي ، يحاول ان يعادل الآثار السيئة المترتبة على الافراط في التامل بافراط مماثل في العمل والحركة ، والافراط في العزلة بالافراط في الاختلاط ، والافراط في المتعة بالافراط في التقشف » .**

ويقول لنا « س . م . جود » في كتابه « عودة الى الفلسفة » ص ٦١ في نقده لمذهب هكسلي الحيوي هـذا :

**اذا حكمنا على مذهب هكسلي في الحيوية .. فان هكسلي شخص تافه . فهو لا يستغل قواه الجسمانية استغلالا تاما . وهو لا يعيش حياة الرغبات أو الحواس، وأفعاله لا تتسم بطابع الخشونة أو القوة . وهو بعيد عن الطبيعة ولا يختلط بالعالم من حوله . وأخشى أنه لا يعرف حتى كيف يستمتع باكلة طيبة . لا ، ان هكسلي لا يتمتع بحيوية دافقة » .**

وبالاضافة الى هـذا فلفلسفة حب الحياة والافراط تفشل في المدى الطويل حسب قانون تناقص الغلة أو قانون الجهد العكسي .

التطبيق العملي لميثولوجية لورنس الطبيعية :

تعتبر قصة هكسلي القصيرة الطويلة « ما بعد الصواريخ » في عام ١٩٣٠ نقطة تحول خطير في اتجاهه الأدبي فنرى فيها تطبيقا لمذهب لورنس الحيوي وميثولوجيتـه الطبيعية . فقد كان لفلسفة الانسان الفطري النبيل أو الحياة الجنسية بريقها الخاطف وسحرها لفترة قصيرة كالالعاب النارية أو الصواريخ ، وسرعان ما اطبق الظلام على هكسلي من كل جانب . ونرى في شخصية بطلها « مايلز فانتج » ظلالا من شخصية « رامبيون » الذي قابلناه في « تقابل الالحان » ولكنه أخذ يتقدم في السن تقدما سريعا ، نراه رجلا بدون حيوية دفاقة ، رجلا مريضا متعبا ضعيفا يستشفى في ايطاليا . وكان من عادة هكسلي ان يزيد من سن أبطاله في قصصه تدريجيا ، ولكننا نرى « مايلز فانتج » وقد بلغ فجأة من العمر خمسين عاما ، وكان هكسلي يريدنا ان نرى آثار حياة الاسراف والجنس باسرع مما كنا نتوقع .

« فمايلز [illegible] من ممارسة حياة [illegible] بالصفراء ، [illegible]
بشرته . وربما كان هكسلى فى ذلك الوقت يفكر فى صورة لورنس قبل وفاته فى عام ١٩٣٠ واثناء مرضه ، فقد بدأت الحيوية التى كانت تتــدفق من لورنس تتخلى عنــه ورأى هكســلى مثله الأعلى يحتضر أمام عينيــه.

ولقد فشل « مايلز فانتج » فى أن يعادل الافراط فى المتعة بافراط مماثل فى التقشف واضطر أخيرا الى أن يعيش فى عالم الرجل المريض ، عالم باســكال الذى كان هكسلى يحاول جاهدا أن يهرب منه . فلو لم يسمح « مايلز فانتج » لنفسه بالانغماس فى ملذات الحياة وممارســة العيش الغرزى « لما ذهب الى أقبية مونت كافو ، ولو لم يخلع ملابسه لما أصابه هذا البرد فى كبده ولما أصيب بالصفراء . »
ويعترف هكسلى فيما بعد فى مقدمته لرسائل د . هـ . لورنس :

**ان لكل عمر من أعمار الانسان فلسفته المناسبة فى الحياة . ولا بد أن أعترف أن فلسفة لورنس لم تكن فلسفة مناسبة مع التقدم فى السن أو العجز فى القوى . وبالاضافة الى هذا فهناك حالات معينة يصبح فيها العيش التلقائى من الأمور التى تشتت الفكر » .**

وعندما كتب هكسلى هــذه الأسطر كان يقترب من سن الاربعين وشعر بما يخبئه له المستقبل اذا ما اقتفى أثر لورنس ، وأدرك أن فلســفة لورنس وعبقريتــه كانت تصر دائما على العيش الغرزى التلقائى وتتجاهل المثل العليـا والمبادىء الثابتة والعقل والعلم . فلم تكن فلسفة لورنس لتملأ الفراغ الذى كان هكسلى يحس به فى قرارة نفسه وأصبح التصوف الجنسى المادى بديلا هزيلا . فالادمان فى هذه الحالة أو الافراط قد يخفف من وطأة الاحباط ولـكنه فى الوقت نفســه يزيد من آلام الاحباط التى يجب تسكينها ومن الغرائز التى يجب اشباعها من آن لآخر .

وهكذا فشلت فلسفة « التعادليــة » هذه فى حل مشكلات هكسلى النفسية والروحية وفى القضاء على الاحباط فى حيــاته . وكان لابد له من البحث عن ذاته الأصلية ، كان لابد له من العودة الى نقطة البداية ، الى المكان الذى فقدها عنده . ولم تحل فلسفة لورنس مشكلة الازدواج ، فالازدواج يسبب الأحباط تماما كبعثرة النفس فى كل اتجاه ، ولم تستطع فلسفة لورنس كذلك أن تملأ الفراغ الذى خلفه ضياع الايمان أو تحل مشكلة الكون والحياة . لقد كان لفلسفة لورنس الديموقراطية التى تنادى بتعدد الآلهــة نتيجتين ، كما يقول هكسلى ، الاولى أونتولوجية والثانيــة خلقية . « والأولى هى ما يمكن ان اطلق عليه فلسفة أن لا هدف للكون . فليس هناك هدف أو فائدة ... عش ودع الآخرين يعيشون وسر فى الطريق الطبيعى الذى يمتــد بدون هدف . وهــذا المذهب له مثيله من الناحية الخلقية فى مذهب اللامبالاه . » ويبدأ هكسلى فى مراجعة فلسفة باسكال ويدرك أن الطريق الطبيعى الذى يمتد بدون هدف يعنى خفض مستوى المثل العليـا ، واللامبالاة تذكى نار فلسفة العدم ولهذا نجده بعد عام ١٩٣٢ ينحو نحو المطلق ثانيــة ويفضله بالرغم مما فى الوصول اليه من مشقة على العيش الغرزى فالتلقائية ، كما يقول ، « ليست سر الســعادة الوحيد المعصوم من الخطأ ، وليس من الضرورى أن تكون حياة الروح كارثة . » لقد كان خط سير لورنس أفقيا فى جميع الجهات على المستوى الانسانى

تنفجر قواه من ذاته فى جميع الاتجاهات وعاش حيـــاته عرضا دون هدف . ومغزى الحياة وقيمتها لا ياتيان الا عن طريق تجميع القوى وتركيزها تجـــاه هدف واحد محـــدد . ويمكننا فى هذه المرحلة من تلخيص فلسفة هكسلى علىالنحو التالى : لقد اهتم هكسلى فى بدء حياته الأدبية عندما كان يلعب دور « المتسائل الحائر » بالأجزاء ، وفى الفترة الثانية اعتنق فلسفة لورنس الحيوية التى تهتم بكل شىء دون انتقاء أو نظام ، والأخيرة تنظم الأجزاء فى وحدة هادفة وتكشف لنا عن التعدد الذى ترتبط اجزاؤه بعضها ببعض . ونرى هكسلى فى كتابه « فيما وراء خليج المكسيك » ١٩٢٤ يستعد لحيـــاة التصوف بقوله : « ان محاولة العودة الى الحيـــاة البدائية غير عملية ، واعتقد أنها خطأ . » فالمسئولية الفردية هى جوهر كلالنظم الخلقيـــة الموجودة . وفى كتابه « موسيقى فى الليل » ١٩٣١ يقول : « حقيقـــة أن معظم الآراء ما هى الا تبرير ذهنى للاحســـاس ولكن هـــذا لا يعنى ان الشعور او الاحساس اهم من الأفكار فى عالم الحركة . »

وقد كانت فلسفة هكسلى الحيوية فى الفترة الثانيـــة تركيبا ، ولكن التركيب لا يعنى موضوعا مضافا اليه نقيضه . فتركيب الفترة الثانيـــة تركيب واسع فضفاض لا يتفق مع طبيعة تفكير هكسلى وتكوينه العقلى والجسمانى ، فالتركيب شىء مختلف عن الموضوع ونقيضه ، انه تكامل وتداخل الاثنين ، شىء آخر يسمو فوق الاثنين .



## المشـــكلة :

من الأمور المثيرة وجـــود ما يشير اليه هكسلى فى « تقابل الالحان » وما بعدها بكلمة « استفهام » او « سؤال » فى شكل « مشكلة » يحاول أن يجـــد لها حلا كلما ظهرت . وقد تعرضنا لهذه المشكلة فى الجزء الأول من البحث حين كتب هكسلى يقول : « سبع كلمات تلخص لنا كل ترجمة ذاتية : انى ارى الأفضل واستصوبه ولـكنى أتبع الأردأ . » ولا يقبل فيليب كوارلز فى « تقـابل الالحان » هـــذا التلخيص الجائر لكل ترجمة ذاتية ونراه يكتب فى مذكراته :

« ان المشكلة بالنسبة لى هى تحويل الشك الذهنى المنعزل الى طريقة متكاملة للعيش المتناسق . » وكانت كلمة « تحويل » تعنى تغيير الشكل أو القـــالب الذهنى فقط وليس تغيير المحتوى ، تغييـــرا من الخارج لا تغييرا جـــذريا كليا للمادة ذاتها . ونقـــابل فى « موسيقى فى الليل » مشكلة أخرى : « المشكلة هى ان اوفق بين الحيوان وبين المفكر ، ان اجعلهما يتعاونان فى بناء رجولة كاملة . » وكانت هذه العبارة تلخيصا لفلسفة لورنس الحيوية . وفى عام ١٩٣٢ فى مقدمته لرسائل لورنس نلاحظ تغيرا فى وجهة النظر وفى المشـــكلة ذاتها وأصبح هكسلى لا يؤمن بنظرية لورنس التى تقول ان الانسان لابد وان يعيش على المستوى الآدمى وينمى امكانياته أفقيا على المستوى الانسانى فقط دون أن يحاول أن يعلو بمستواه عن ميراثه الجسمى والعقلى والعاطفى والنفسى . وأصبح التكامل بهذه الطريقة تكاملا أفقيـــا لا يسمو بالانسان . وفى عام ١٩٣٤ تأكد هكسلى من المنطق المضلل فى فلســـفة لورنس التى تمجد الدم والغرائز : « انى أفضل الحرية التى ينـــادى بهـــا سبينوزا عن طريق المعرفة والفهم على العبودية للعواطف مهما كانت حصيلتها من المعرفة الغرزية . » وأصبحت فلســـفة لورنس التى تنادى بالمزج بين الحيوان والانسان فلسفة خطرة . وفى « ضرير فى غزة » ١٩٣٦ تقابلنا مشاكل اخرى يتحدث عنها

بطل القصة انتونى فى مذكراته ، وهذه المشاكل تختص بناحية التطبيق العملى الذى يؤدى الى معرفة النفس لأن هكسلى كان قـد وصل الى مستوى اعلى من مستوى لورنس الفرزى . « فالعلم بالشىء » كما يقول هكسلى ، « من الأمور السهلة ، ولكن تطويع الارادة والعمل المتواصل من الأمور الصـــعبة دائما . » والمشكلة فى « ضرير فى غزة » هى كيف نحب ؟ وبعدها مشكلة أخرى « كيف نجمع بين الايمان بان العالم الى حد ما وهم وتخيل وبين الاعتقاد بانه ضرورى لتحسين التخيل والوهم . كيف يمكنك ألا تكون عاطفيـــا ولا تقاسى من اللامبـالاة فى وقت واحـد ، وأن تكون رزينا كرجل مسن ونشيطا كالشاب . » وكانت المشكلة هى الجمع بين الحيوية والرزانة ، بين العمل والتامل ، ومحاولة للتخلص من نتائج الافراط . وفى قصته « ومر صيف بعد صيف » ١٩٣٩ يعطى لنا هكسلى صورة لثلاثة مستويات : المستوى الروحى ، والمستوى الانسانى ، والمستوى الفرزى الحيوانى ويطالبنا بالتسامى الى المستوى الروحى . ولكن آراء « پروبتر » ، وهو المتكلم بلسان هكسلى ، كانت متطرفة الى حد ما ويظهر هـذا من حكمه القاسى على عدم أهميـــة العيش على المستوى الانسانى ولكنه قال كلمته الأخيرة فى القضاء على فلسفة لورنس الحيوية وصور لنا عابد الملذات كشخص سجين يعيش كما يقول فى

**قفص زمكانى تجوب فيه غرائزه وعواطفه . واذا كان للسرمدية أو جوهر النفس أن تعيش فى هذا القفص الزمكانى لأى فرد ، فلا بد لهـــذا الحشد الذى نسميه بالنفس من أن تنبذ عن طيب خاطر جنون حركتها ، لابد لها من أن تفسح الطريق لوعى اللازمنى ، لابد لهـــا ان تصمت لتجعل من الممـــكن هبوط السكون العميق . فالله موجود فى غياب ما نسميه بآدميتنا فقط » .**



وكانت المشـــكلة حينئـذ هى التخلص من حشـد الشخصيات المتنافرة ومن الفوضى النفسية حتى يصل الى أماتة الذات وفنائها . وفى آدونيس والابجدية » ١٩٥٦ ، وكان هكسلى قد تصوف ، تراه يكتب عن مشكلة اخرى :

« المشكلة ، كالعادة ، هى كيفية التخلص من النور الشخصى . وينحصر عملنا فى تخليص أنفسنا من العـــادات السيئة التى تحجب عنـــا الضوء لا على المستوى الأخـلاقى فحسب بل على المستوى الذهنى والعاطفى . » ويصبح الاكتمال لا عن طريق حياة عريضـة بل عن طريق تلاشى الشخصية وفناء الذات والوصول الى اللا ـ أنا أو الهى التى تسمو فوق النفوس الأخرى والآنة . وهـــذه اللا ـ أنا أقرب ما تكون الينا ، كما يقول هكسلى ، أقرب الينا من أيدينا ومن أرجلنا وهى أسمى ما يصبوا اليه انسان ، وهى أقصى غاية لوجود الفرد .

وكان من الضرورى أن يتخلص هكسلى من رذائله قبل أن يبدأ رحلته الروحية وأهم ما كان يشغل باله كما يقول لنا فى كتابه « أدونيس والأبجـدية » هو « معرفة من الذى يقوم بالتمثيل فى كل أدواره المختلفة » . واصبح الاستبطان عنـــده وسيلة لغاية لا غاية فى حـــد ذاته ، فالاستبطان وتأمل الذات والانشغال بهـــا قد يكونان سببا فى عرقلة المتصوف . « فالذين يولدون ولهم ميل الى تأمل ما حولهم لابد لهم أن يتعلموا كيفية تأمل ذواتهم اذا ارادوا ان يعلموا شيئا عن الروح الانسانية » هـــــذا هو ما يقترحه هكسلى لمن هم انبساطيو النزعة أما الانطوائى بطبعـــه « فيجب عليه أن يروض نفسه

على اماتة ميوله الفطرية ناحية الاستبطان لذاته ، أو الفكر والتخيل وتحليل النفس كفايات فى حد ذاتها بدلا من اعتبارها وسائل تقوده الى السمو فوق الخيال والتفكير الذهنى حتى يصل الى المستوى اللازمنى للفكر الخالص البديهى . » فمعرفة النفس لا تكفى وحدها بل يجب أن تكون معرفة النفس طريقا يقودنا الى معرفة الهى أو اللا ـ أنا . فمعرفة النفس الحقيقية هى بسط الذات دون جهد لتقبل الاستنارة وهى فى الوقت ذاته ادراك مباشر لفناء الذات التى تقوم بهذا البسط التلقائى . « واذا ظل معظمنا جاهلا بذاته » كما يقول هكسلى ، « فذلك لأن معرفة النفس من الأمور الشاقة المؤلمة ، ونحن نفضل ملذات الوهم . » فالجهل بالذات يؤدى الى تصرفات غير حميدة ، وبدون معرفة الذات لن يكون هناك تواضع حقيقى وتبعا لذلك لن يكون هناك فناء فعال للذات ولا معرفة وطيدة بالذات العليا التى هى أصل الذات وكثيرا ما تحجبها الأنا . ومعرفة الذات عند هكسلى ليست ادراكا واعيا للأنا ولكنها معرفة الهى أو اللا ـ أنا والتى يطلق عليها هكسلى الروح القدس أو اتمان ـ براهمان أو النور الساطع أو « الهكذا » وهى نوع من الوعى الجمعى وانتباه عقلى كامل .

**وعن ماذا يكشف هذا الوعى الكامل لمن يمارسونه ؟ ويجيب هكسلى فى نفس الكتاب : « يكشف أول ما يكشف عن قصور ذلك الشىء الذى نطلق عليه جميعا كلمة « أنا » ، وعبث ما تدعيه .. فالوعى الكامل يبدأ ، باختصار ، بادراكى لجهلى وعجزى »**

وهكذا تبدأ المشكلة بحالة الانسان المذب وضعفه فهو يرى الافضل ويستصوبه ولكنه يتبع الأردأ . ويحاول هكسلى أن يصل الى حل لهذه المشكلة عن طريق الافراط بحكمة ، وتفشل فلسفة لورنس ثم تتحول المشكلة الى مشكلة معرفة الذات عن طريق الانطواء والاستبطان ويقوده هذا اخيرا الى انكار الذات ومحاولة الوصول الى الهى ومن هذا المستوى الى النور الساطع أو السكون المعبر . وقد تحقق هذا التكامل الذاتى عن طريق ارادة سامية أو ما يطلق عليه هكسلى « الارادة المنظمة الآمرة » وهى نوع من القدرة على الفهم والادراك المباشر ولا تمت للمعرفة العقلية بصلة ؛ والارادة المنظمة الآمرة لها القدرة على اسكات الأنا الواعية وعلى تكييف الانعكاسات المكيفة أو اعادة تكييفها .

## التحول العظيم عن طريق الرمز .

تعتبر تجربة الهداية أو مرحلة التنور ، شأنها فى ذلك شأن أى تجربة نفسية أو عاطفية يمر بها الانسان ، من أصعب الأمور عندما نحاول أن نصفها فى كلمات ، فالكلمات قاصرة دائما عن التعبير عن اى تجربة صوفية كانت أم نفسية . فالتجربة الصوفية فى أساسها نوع من الكشف اللحظى الفجائى وعملية تفاعل سريعة ـ بصيرة وادراك لا يمكن ايصالهما الى الغير ـ وليس من السهل التعبير عنها فى صور لفظية دقيقة ومن العسير نقل مضمونها للآخرين لأنها حالات من الشعور وليست بحالات ذهنية . ولهذه الحالات أو الومضات أو الالهامات دلالات قيمة وسلطان ضخم على أصحابها . وهذه الحالات سريعة الزوال ، ولكن بالرغم من هذا فاثرها ثابت فى ذاكرة أصحابها . وهذه التجارب النفسية لا يمكن المشاركة فيها ويجب على كل فرد أن يمارسها بنفسه . ويلجأ المتصوف الى الاشارة

أحيانا والى الرمز أحيـــانا أخرى ولهـذا كان الأدب الصوفى أدبا مغلقا الى حد ما ، أدبا غير مفهوم الدلالات وكما يقول هكسلى :

« هناك أنواع عديدة من التجارب الذاتية العميقة التى لا يمكن تحليلها . احساس عميق ، مثلا ، ولنقل انه شعور طاغ مفاجىء يعقبه استنارة داخلية أو ايمان .

والمشكلة اذن هى : كيف نعبر عن مثل هذه التجارب ؟

وهناك طريقتان : الأولى ، طريقـــة السرد المباشر والوصف ، والثانية ، طريقة الايحاء الرمزى ، وهنا لا نصف التجربة أو نذكرها بل نشير اليها ضمنيا . وهكذا يلجأ الأديب الى سلسلة من الأقوال التى تتمركز معانيها حول نقطة خارج الموضوع ذاته وتصبح هذه النقطة هى التجربة المراد وصفها . »

ولا يعتبر هكسلى من الكتاب الرمزيين الذين يسرفون فى استعمال رموزهم ، والرموز القليلة العدد التى يلجأ اليها لا تثير فينـــا احساسات أو عواطف معينة ولكنها تعنى بتوصيل فكرة مجردة أو تضفى على تجاربه المتعددة المتشعبة اطارا ينظمها ويجمع أشتاتها . وقد تحددت رموزه بضعف بصره كما بينا فى الجزء الأول من البحث منذ البداية . وغالبا ما يطرح هكسلى جانبا الطريقة المباشرة فى وصف تجاربه المباشرة فى وصف تجـــاربه الذاتية واحساساته العميقة ويلجـــأ الى التقابل أو القياس أو الايحاء الرمزى . ونجد رموز الأزل واللانهائى والخلاص والاستنارة والبحث فى نسيج أعماله بشكل مستتر منذ البداية . ورموزه اما رموز هندسية أو من الحيوانات والطيور أو من الظواهر الطبيعية . والرموز الهندسية هى الدائرة ومماسها والعجلة واللولب والمخروط ومن الحيوانات الفأرة العمياء ومن الحشرات زيزان الحصاد ومن الرموز الطبيعيـــة الجبال والصحراء والنهر والبحر . واعتقد أن العبارة التالية من « تأملات » برونو المتصوف فى قصته « لابد للزمن من وقفة » ١٩٤٤ تشرح لنا رمزيا التحول فى حياة هكسلى فى قصيدته « زيزان الحصاد » أو الفراشة وكتبها عام ١٩٣١ : « وبالطبع ، أخذ ( برونو ) يفكر، ان البعث اختيارى .

**فنحن نجد أنفسنا مضطرين لأن نعيش ـ نعيش كما نحن ، ونسير من أسوأ الى أسوأ ، الى ما لا نهاية حتى نرغب فى الصعود مرة ثانية كشىء يختلف عما كنا عليه ؛ سيحدث هذا حتما ، الا اذا لم نسمح لأنفسنا بأن ترتقى » .**

وتعتبر قصيدته « زيزان الحصـــاد » بدء تحوله نحو التصوف وفيها محاولة للتعبير عما يطلق عليه وليم جيمس فى كتابه « صنوف التجربة الدينيـــة » الميلاد الثانى وأتبعها هكسلى بكتابه « عالم جديد شجاع » ١٩٣٢ ثم مقدمته لرسائل لورنس ثم ماكتبه عن التصوف فى « فيما وراء خليج المكسيك » ١٩٣٤ « وضرير فى غزة » ١٩٣٦ . وبعد عام ١٩٣٦ انسلخ المتصوف من الساخر وظهر هكسلى الحقيقى وطغت شخصية المتصوف على كل الشخوص الأخرى وألقى هكسلى بأقنعته وظهر وجهه الحقيقى . فلقد قرر هكسلى أن يترك « عالم الظلام » الذى كان لورنس ينادى به ويعيش فى « عالم النور » .

( و « عالم النور » عنوان مسرحية لهكسلى كتبهـــا فى عام ١٩٣١ ) . واستطاع هكسلى أن يخرج

نفسه من قوقعتها ونجح فى الافلات من يرقته التى ظل حبيسا فيها لمدة طويلة . ونقرأ فى مذكرة أنتونى فى « ضرير فى غزة » وهو يشير الى هذا الخلاص : « لقد أصبح الآن ولفترة خارج جحره ـ لقد طرد منه كما لو كانت « العرس » تطارده . »

ومن تاريخ حياة زيزان الحصاد ودورتها نعلم أنها تضع بيضها على فروع الأشجار وتخرج الديدان الصغيرة بعد الفقس وتسقط على الأرض وتدفن نفسها فى التربة وتتغذى من جذور الأشجار والنباتات ثم تتحول الى « عذراء » فى يرقتها .

وتبقى « العذراء » هكذا فى سبات عميق أثناء فترة الاستكنان الشتوى لمدة ١٧ عاما تخرج بعدها من اليرقة كفراشة كاملة . وترمز الفراشة بأطوارها المختلفة الى التحول فى حياة هكسلى من مرحلة البويضة الى مرحلة الفقس ، وترمز أيضا الى وجه التشابه بين موتها الظاهر وعيشها فى عالم مظلم تحت سطح الأرض وعزلتها وضعف بصر هكسلى وانطوائيته ، واخيرا الى الشبه بين خروجها من وادى الموت الى النور والحياة بعد بعثها أو « ميلادها الثانى » وادراك هكسلى لأهمية التسامى والعيش فوق المستوى الفرزى . ومن الغريب أن هكسلى بدأ حياته الأدبية فى عام ١٩١٦ واستمر يلعب دور المتسائل الحائر حتى عام ١٩٣١ عندما كتب « زيزان الحصاد » وهى الفترة التى تبقى فيهـا زيزان الحصاد فى حالة موت ظاهرى . وتبدأ القصيدة :



انى أتنفس وألمس فى الظلام

وتتعرف على هكسلى من أول سطر فيها ، فالعذراء تتنفس وتؤكد الحياة الكامنة فيها .

وهناك صمت تحت الأشجار

صمت الأصوات المستمرة الحى

انى أسمعها تغنى ، وأنا الذى كنت فى ليل مظلم

مملوء بالسحب والأغصان أظن أننى مررت

خلال يأس الروح المظلم

محروما من البصر الداخلى والخارجى

وتنتهى القصيدة بنوع من الاستنارة العقلية أمام معجزة الوجود هذه ويدرك أن من ظل بعيدا عن النور لابد أنه سيرقى اليه وحين يصعد الانسان الى النور فانه يكتسب قدرة ذاتية جديدة وحينئذ يتحقق العجب الحقيقى أمام معجزة الوجود وتتبدد الأوهام وتصفو العقيدة .

نمضى دون هدف : ولكنى سمعت صوتك ،

اللا عقل الالهى ! تعزف على القيثار بين الأغصان ،

وما عدت أحزن ، لأن الحكمة لا تحزن ،

وقد علمتنى الحكمة ؛ أنى مبتهج .

وفى عام ١٩٣٦ استغل هكسلى فى « ضرير فى غزة » الرمزية فى الفراشة مرة أخرى فهاجم لورنس لأنه كان يفضل استغلال هذه الحيوية التى تزحف وتنساب تحت جلده فى العيش على المستوى الانسانى فقط ولم يسمح لها بان تنقله الى مستوى أعلى . وبدأ هكسلى كذلك يدرك أن العقل وحده غير كاف ولهذا يكتب بطل القصة فى يومياته :

« الفكر والسعى وراء المعرفة ــ لقد كانت هــذه هى الأهداف التى استغل من أجلها المعلومات التى شاهدها تزحف تحت المجهر ، والتى كانت تصبح بتحد فى الظلام . الفكر كفاية ، والمعرفة كفاية . والآن وفجأة ، أصبح من الجلى أنها وسائل فقط ، مادة خام بكل تأكيد كالحياة نفسها . »

ثم نقرأ فى جزء آخر من اليوميات :

« لقد ذهبت مع « ميلر » لمشاهدة فيلم علمى ... كان الفيلم عن الذبابة . البويضات . والديدان على قطعة من اللحم العفن . بيضــاء كالثلج ، كقطيع من الأغنام فى مرعى . تبعد عن الضوء . وبعد خمسة أيام من النمو تنزل الى الأرض ، تحفر ، وتصنع شرنقة . وبعد اثنى عشر يوما آخرى ، تظهر الذبابة . عملية بعث غريبة الشكل وتنتفخ اليرقة حتى ينشق جدارها وتنسلخ الذبابة خارجه . تطير الى أعلى ، نحو النور . »

ويشير هكسلى رمزيا الى أن طريق الخلاص هو البعث أو الصعود الى أعلى نحو النور وليست الرمزية هنا بجديدة ، فقد تحدث عنها « أميرسون » فى احدى مقالاته : « ان التقدم الروحى لا يحدث تدريجيا فى خط مستقيم ولكن عن طريق الصعود من مرتبة الى أخرى ، ويمكن تمثيله بعملية تحول ــ من البويضة الى الدودة ومن الدودة الى الفراشة . » ( مقالات الجزء ٢ ص ٢٢٥ ) .

ولا يسمح المجال لدراســة كل رموزه فى هذا البحث ويكفى ان نقول أن السمكة تظهر فى قصائده وقصصه بشكل واضح لأنها ، فى عالمها ، تشبه هكسلى الى حدما ، ونظهر كذلك كلمة « برمائى » فى كتبه لما توحى به من قــدرة الانســان على العيش فى عالم الروح وعالم الجســد . ويرمز أبو رياح Weather-cock الى فلســفة لورنس وترمز البوصــلة لفلســفة التصوف . فعنــدما حاول هكسلى اعتناق فلسفة لورنس وجد انه كان يبعثر قواه فى كل اتجــاه كأبى رياح دون هدف محدد وأصبح تحت رحمــة كل هبــة ريح تعصف به كيف تشــاء ولهذا يشبه نفسه فى الفترة الأخيرة بالبوصــلة .

ويعود هكسلى فى الفترة الأخيرة من حيــاته الى « باسكال » ويدرس فلسفته مرة أخرى فى ضوء تجاربه الجديدة وأصبح مستعدا ، وكان قد بلغ الأربعين من عمره ، أن يكون مرشدا ومتصوفا وأصبحت نماذجه فى كتابه « الفلسفة الدائمة » المسيح عليه السلام والقديس جون ووليام لاو وبوذا ومجموعة من المتصوفين المسلمين والمسيحيين .

ويعرف وليم جيمس فى كتابه « صنوف التجربة الدينية » هذا التحول بوجه عام فى العبارة التالية : « التحول ، أوالتجــدد ، أو المولد الجــديد ، أو أن تحظى بفضــل الله ، أو أن تمارس الدين ، أو ان تكتسب الثقة : ما هى الا عبارات كثيرة تعنى وتشير الى العملية ــ المفاجئة أو التدريجية ــ

التى بواسطتها تصبح النفس التى كانت منقسمة وعلى علم بخطئها وتعيسة تحس بالنقص ، موحدة وعلى علم بصوابها وفى منزلة سامية وسعيدة ، ويصبح لديها سيطرة على الحقائق الدينية . » ولم يكن هكسلى من هذا الصنف من الناس الذى يمكنه أن يمر بمرحلة تغير فجائى لأن التحول عند الانطوائى يتم تدريجيا ويسميه وليم جيمس Lysis ، بينما يتم التحول عند الانبساطى فجاة ويسميه وليم جيمس Crisis . ومن أهم ملامح التحول أولا ، توحد الشخصية وثانيا حدوث رد فعل ياخذ شكل استسلام النفس لمثل أعلى ويتبعه تحسن وتطور خلقى وثالثا ، ظهور نوع من التقبل التلقائى لما حوله واعجاب بالكون وما فيه وهذا ما يعبر عنه هكسلى بقوله « احساس بجمال الدنيا بالرغم من الموت والعذاب . »وما يهمنا فى هذا المجال هو ذلك الاحساس بأن كل شىء فى العالم جديد لما له من أثر فى نظرة الاديب لما حوله . ويؤكد لنا وليم جيمس أن التحول من الممكن أن يحدث حتى ولو بقيت الظروف الخارجية المحيطة بالشخص كما هى . وكما يقول هكسلى ان التحول او الاستنارة عملية فردية لا تشترك فيها الجماعات ، والتوبة عملية ضرورية وجزء هام من التغيير الجذرى فى الشخصية وبدونها لا يمكن للانسان أن يصل الى أول الطريق الى الخلاص . وما يطلق عليه وليم جيمس الاستسلام ، ويعتبره اول خطوة حيوية فى سبيل تحقيق تكامل الشخصية وسعادتها ، نجده فى اعمال هكسلى فى الفترة الأخيرة . وهذا النوع من الاستسلام يختلف اختلافا تاما عن استسلام المتسائل الحائر لعقله وتفكيره وسعة اطلاعه أو استسلام عابد الملذات لنزوات جسده وسيطرة الغريزة عليه واستسلامه لذواته المختلفة . ففى الاستسلام الجديد نوع من التخلى عن التفكير والعقل فى سبيل الحكمة ، نوع من الالقاء بالذات التى تفكر فى البحر ، فى المحيط الذى يرمز الى الله . ونقرأ له فى « الفلسفة الدائمة » : « لا يمكن للسرمدية أن تدخل الا اذا قام الفرد عن طيب خاطر بعملية انكار لذاته وهكذا يخلف فراغا يمكن للسرمدية أن تسرى فيه . » وهكذا وبعد الفوضى المتناهية فى فلسفة الأضداد وفشله فى التوفيق بين ذواته المتنافرة استطاع أن يهتدى الى أول الطريق وينمى ويقوى ارادته . ولكن تنظيم الارادة وتدريبها ، كما يقول هكسلى ، لابد أن يصاحبه تنظيم وتدريب للوعى ذاته . ولتدريب الوعى هذا كان لزاما عليه أن يفرق بين الأنا والهى ، بين الذات العليا والذات ، بين الارادة السطحية والارادة العليا . ولكى يحصل على « عذرية العقل » Virginity of Mind ، او براءة الطفولة يعترف هكسلى انه « كان لابد من تحول ، مفاجىء أو تدريجى ، لا فى القلب فقط ، ولكن فى الحواس والعقل المدرك وهذا التحول هو ما اطلق عليه الاغريق كلمة Metanoia ، ذلك التغير الكلى الجوهرى للعقل . »

## « التحول فى قصصه »

من الصعب فى اى عمل أدبى وصف عملية التحول ذاتها ، ولهذا لا نجد فى قصصه بعد « ضرير فى غزة » وصفا مباشرا للتجربة ذاتها ولكننا نجد رد فعلها فى تصرفات الشخوص التى مرت بهذا التحول الذى ادى الى خلاص نفوسها . والطريقة المناسبة فى هذه الدراسة هى مقارنة المتصوف او المستنير وتميز شخصيته بالصفاء واليقظة والهدوء ووحدة الشخصية والهدف والمحبة والتواضع بالشخص المزدوج الشخصية الحائر الذى يقاسى من الاحباط والقلق والحيرة والانقسام والتعالى . وليس من المصادفة ان قصيته « ضرير فى غزة » ١٩٣٦ ، « لابد للزمن من وقفة » ١٩٤٤ من القصص التى فيها استرجاع لتجارب الماضى وتاملها فى ضوء التجارب الحالية . ويقدم الينا هكسلى فى هذه

القصص (« ضرير فى غزة » « ولابد للزمن من وقفة » و « ومر صيف بعد صيف ») شخصية جديدة ـ شخصية الحكيم ، فنرى ميلر فى « ضرير فى غزة » وبروبتر فى « ومر صيف بعد صيف » واخيرا برونو فى « لابد للزمن من وقفة » وهذه الشخوص تلعب أدوارا هامة فى هذه القصص الثلاث ولو أن كلا منها يلعب دورا غير رئيسى ، والسبب ، كما يقول هكسلى ، هو ان « تاريخ حياة القديسين يعتبر عند المثقفين وذوى العقول النشطة نوعا لا يستحب من الأدب . » اما الراوى فى قصته السينمائية « الفوريلا والجوهر » فهو مجرد صوت يسمع ولا يرى ويمثل صوت هكسلى أو الحكيم كما فى قصصه الأخرى . ونلاحظ أيضا أن المريدين أو طالبى الخلاص امثال انتونى فى « ضرير فى غزة » وسباستيان فى « لابد للزمن من وقفة » يدونون ما يعن لهم من أفكار فى مذكرات تعتبر مادتها تأملات فى تجاربهم الماضية فى ضوء ما حصلوه فى حاضرهم . ولا تهتم قصص هكسلى بسرد تفاصيل التحول ولكنها تعنى برصد نتائجه فى شخصية البطل او فى علاقاته بالعالم من حوله وبالآخرين أو فى التغير فى ادراكه ووعيه أو فى انفعالاته وردود أفعاله .

ففى « ضرير فى غزة » يعطينا هكسلى تسجيلا لتصرفات أنتونى قبل وبعد تصوفه فقد مر البطل بتجربة صوفية غيرت مجرى حياته كلية . فهناك فرق واضح بين ادراكه لوحدة الكون وهو فى سن العشرين وادراكه لهذه الوحدة وهو فى سن الثالثة والأربعين . والأجزاء التى نجدها من يومياته فى القصة لا تصف هذه التجربة بالتفصيل ولكنها تعتبر نهاية فترة الاحباط التى كان أبطالها « دينيس » و « جمبريل » و « كالامى » و « فيليب كوارلز » . ويبلغ هكسلى فى شخصية « أنتونى » نهاية الشوط بعد مرحلة طويلة من التكييف وازالة التكييف ثم اعادة التكييف .



وفى « لابد للزمن من وقفة » تعنى الخاتمة التى تتضمن تأملات سباستيان بنتائج التحول والخلاص ولا تصف التجربة ذاتها ، وأسلوبها يختلف اختلافا كليا عن أسلوب صاحبها سباستيان وهو فى سن العشرين . وعندما ترك هكسلى هذه التاملات الى نهاية القصة أعطانا الاحساس بأن بطل قصته قد طلق الماضى بما فيه من احباط وفشل وهزيمة وقلق وضجر بالحياة ونلاحظ ان تأملات « أنتونى » فى « ضرير فى غزة » تتخلل القصة من أول فصل الى آخر فصل فيها وهذا يدلنا على أن « أنتونى » كان فى دور التحول وفى طريقه الى الاستنارة . وتأملات سباستيان فى مجموعها اقل من تأملات انتونى فى « ضرير فى غزة » أو مما دونه فيليب فى مذكراته فى « تقابل الألحان » لأن هكسلى كان يريد من بطله الجديد ان يقارن بين ماضيه البعيد وحالته الراهنة وكان قد ادرك عبث الندم والتمادى فيه . وهكذا يصف لنا هكسلى طريق سعيه سواء فى كتب رحلاته أو فى قصصه وطوافه أولا « بدون بوصلة » كالمتسائل الحائر الى بعثرة قواه فى كل اتجاه فى الفترة الثانية الى طوافه « ببوصلة » ـ ومن الازدواج الى التعدد الى الوحدة ـ ومن الاهتمام بالكلمات والأفكار كغاية الى الاهتمام بالحياة الى مرحلة الصمت وطهر القلب ـ من عالم بدون طريق الى مئات الطرق المضللة الى عالم بطريق واحد ـ واخيرا من « أنا أفكر فأنا موجود » الى « أنا أعيش فأنا موجود » الى مرحة الاعتراف بأن الله يفكر فيه فهو موجود .

واذا حاولنا ان نبحث فى أعمال هكسلى فى الفترة الأخيرة عن دلائل تشير بوجه قاطع الى هذا التحول فى حياته فلن نجد الا النتائج الايجابية لهذه الاستنارة لأنه كان يعلم أن عملية « اجترار التجارب

الماضية » والتحسر عليها أو حتى تذكرها عملية خطرة . « فوخز الضمير كما يقول معظم المهتمين بعلم الأخلاق يعتبر من العواطف السيئة . فاذا كنت قد أخطات ، فتب ، وحاول ان تصلح ما افسدت ، ثم وجه نفسك الى طريق التصرف بطريقة أحسن فى المرة القـــادمة ؛ ولا تتحسر أو تفكر فيما فعلته من أخطاء فى الماضى . فالتمرغ فى الوحل ليس أحسن وسيلة للنظافة . » وليس هناك ما يمنع من تذكر ما فات ولكن اذا كان اجترار هـــذه التجارب سيشغل المتصوف عن الحاضر فهذا معناه ، كما يقول هكسلى ، الفردوس المفقود . وتـــذكر أيام خلت قد يكون أدبا عظيما ولكنه من الناحية الدينية لا طائل تحته ، ففى محاولة استعادة الزمن الضائع فقدان للفردوس ، وفى فقدان الزمن استرداد للفردوس . ويتضح لنا الآن الفرض من عنوان قصـــته « لابد للزمن من وقفة » وتحمل الترجمة الفرنسية لهذه القصة عنوانا مشابها وهو « استرداد الأبدية » .

## الفلسفة الدائمة The Perennial Philosophy

يبدأ هكسلى ، بعد مرحلة الاستنارة ، فى الارتفاع بمستوى مثله العليا وكان قد ادرك أن هناك طريقة واحدة فعـالة للتغيير الجـذرى المستمر فى الشخصية : « هناك طريقة واحدة فعالة لتغيير الشخصية تغييرا جذريا دائما ــ وهى طريقة المتصوفين . » وقد ضمن هذه الفلسفة فى كتابه « الفلسفة الدائمة » ١٩٤٤ بعد أن اعتكف عامين فى معبد تابع لجمعية الفيرا فى كاليفورنيا . و « الفلسفة الدائمة » تركيب فلسفى يؤدى الى غايات ايجابية لمن يمارسونه وتعالج هـذه الفلسفة التجارب الانسانية ما كان منها نفسيا أو روحيا او خلقيا ، وفكرتها المحورية فكرة صوفية روحية . وتتضمن الفلسفة نظاما ميتافيزيقيا يعترف بوجود حقيقة الهية ضرورية لوجود العالم المتعدد الذى يتكون من اشياء وارواح وعقول ــ وهذا هو الهدف الرئيسى فيها . والفلسفة الدائمة ، الى جانب ذلك كله ، فلسفة تعترف بأن فى روح الانسان سمة من سمات الحقيقة الالهية ، أو كما يقول جيرالد هيرد ، أحد أصدقاء هكسلى وعضو عامل فى جمعية الفيرا ، « نوع من الحدس ببنوة الانسان للحياة التى تسند العالم كله وبالاخاء مع كل عيال الله . » والفلسفة اخلاقية لأنها تضع غاية الانسان فى معرفة قانون الوجود الشامل فى الحلول والتسامى ويلخصها لنا جيرالد هيرد فى هذه الكلمات : « ولاء لاحد له تجاه هـذه الحقيقة السامية العظيمة وانكار شديد لاى شىء قد يقف فى طريق بلوغ هـــذا الولاء . وثانيـــا ، العزم على اعتبار كل المخلوقات وكأنهـا عيال الله . »

ويعتبر هكسلى فلسفته هذه القاسم المشترك الأعظم فى كل العبادات . وقد أشار اليها فى كتابه « وسائل وغايات » ١٩٣٧ ويعتبرها فلسفة عملية يجب على من يريد ممارستها أن يكون صافى القلب محبا للناس . وتعاليم الفلسفة يمكن حصرها فى هذا الشعار « أنت هذا » ويمكن ادراك هذا الشعور والوصول الى هذه التجربة الروحية بطرق ثلاث : بالعمل داخل نفوسنا ، أو بالعمـــل من الخارج او بالعمل من الداخل والخارج فى وقت واحد . والطريقـة الاولى هى نوع من « الجوانية » وسائلها الاستبطان وانكار الذات والرهبنة والطريقة الثانية هى فلسفة الحلول أو نوع من « البرانية » والطريقة الثالثة تجمع بين الاثنين وتؤمن بتسامى وحلول الروح الأزلية . ويفضل هكسلى الطريقة الثالثة لأنه يعتقد أن فلسفة الحلول فلسفة غير متكاملة والطريقة الأولى قد تؤدى الى عزل المتصوف عن مجتمعـه

وتقوده الى السعي وراء خلاص نفسه وحدها دون ارشاد الآخرين . والايمان في تركيب هكسلي ايمان تجريبي لأن الغاية هنا ليست المطلق الذي تعنى به الميتافيزيقا ولكنها « شيء كامل يحبه الانسان ويعبده ويجله أكثر من الاله الانسانى أو أى تجسيد له . » وتجمع الطريقة كذلك بين العمل والتأمل في آن واحد وقانون الوجود الشامل لا يمكن الوصول اليه عن طريق العقل ولكن عن طريق الممارسة والتجربة بالاستعانة بتمارين روحية خاصة . ويقول هكسلي ان قانون الوجود الشامل هو سر وجود الحقائق وادراكه يعتبر قفزة من جانب العقل الواعي بعيدا عن الكائنات المحدودة ومنفعتها الى ادراك مباشر لكينونة الأشياء . فالعالم في تغير مستمر وفي تتابع لا نهائي ولكن اساسه ، تبعا لهذه الفلسفة ، هو الآنية اللازمانية للروح القدس . ويصعب ترجمة هذه التجربة المباشرة الى الفاظ يتقبلها المنطق والعقل . ويقول هكسلي : « فلابد اذن ان يغض التصوف النظر عن مشاكل اللغة والفلسفة ، أو على الأقل ينحيها الى مرتبة ثانوية ، ويركز اهتمامه على الطرق العملية التي تقوده من المعرفة الى الفهم . » .

وعندما يستعمل المتصوف كلمة « الفهم » ، كما يقول هكسلي ، « فهو لا يعنى انه يعرف الله ، اذا كانت كلمة « يعرف » تعنى « تركيب تجربة جديدة فوق نظام فكري مستمد من تجاربنا الماضية » ، ولكن الفهم عنده يعنى الحدس ، الادراك المباشر ، الاستنارة داخلية ، تتلاشى فيها العلاقة بين الموضوع والذات التى تتأمله . فجوهر التجربة الصوفية هو الوحدة مع تيار الحياة المتغير ووحدة مع الكل الذى يجمع كل كائنات الدنيا . والفهم عند هكسلي يمكن تشبيهه بحاسة سادسة او ادراك حسى فائق وقدرة على تقبل المعطيات المباشرة للشعور أو ملكة روحية تفوق العقل والمعرفة وتهتم بالمعطيات على كل مستويات التجربة . والفهم ادراك مفاجيء أولى للمادة الخام وهو بعيد عن الكلمات ، ولهذا فليس الفهم ادراكا وبالتالى لا يمكن توصيله .

وليس هنـاك داع لتعليم وتثقيف وتمرين هـذا الفهم ولكن من الضرورى تكييف الملكات الأخرى التى تعطل الفهم . والفهم هو الملكة التى تمكننا من ادراك المطلق من خلال المحدود والنظام الكونى من خلال النظام الطبيعى والأزل من خلال الزمن والنيرفانا من خلال السامسارا أو المتغير . واذا لاح الفهم فستبدو الحياة جميلة وسيرى الانسان الأزل يتوهج من خلال الزمن . « ومع الفهم يحدث زواج سعيد بين الغايات والوسائل » كما يقول هكسلي ، « وتظهر الحكمة التى هى تحقيق اللازمنى عن طريق المتغير ، وتظهر المحبة التى هى تطبيق عملى للحكمة . » ويؤمن هكسلي باهمية النظرة الصوفية وفلسفتها ويقول : « سوف تفنى البشرية اذا لم يكن هنـاك رؤى ... فالمتصوفون قنوات يجرى من خلالها القليل من المعرفة الصحيحة بالحقيقة الى عالمنا الذى يزخر بالجهل والوهم . فالعالم الذى يخلو من التصوف عالم ضرير مجنون . »

وكان اهتمام هكسلي في بدء حياته الادبية بالتصوف اهتماما أكاديميا عقليا ، وكانت الحياة والحقيقة والكون اشياء غريبة للمتسائل الحائر ، وبعـد « ضرير فى غزة » وحتى نهاية حياته الأدبية تبدأ كتبه فى معالجة التصوف بطريقة أخرى ، وقد أعطاه التصوف القدرة على الاجابة عن أسئلة كثيرة وأدرك بعد تصوفه ان العالم المتعـدد عالم واحد وان كل جزء من أجزاء العالم يرتبط بعلاقات مباشرة أو غير

مباشرة بالأجزاء الأخرى مهما كانت بعيـــدة فى الزمان والمكان . فالوجود كثرة لا متناهية ولكل جزء وجوده ووظيفته .

أبواب الحس الادراكى : The Doors of Perception ١٩٥٤

لقد كان هكسلى يحس من آن لآخر بوجود باب يستطيع منـــه ان يلج الى عالم روحى غريب ، وقد دفعه هذا الاحساس مرارا الى القيام بمغامرات عديدة للاستطلاع والاستكشاف . وفتح ابوابا عديدة ونفذ منها الى داخل ما أفضت اليه ليجد نفسه فى مكان قفر :

« فى بيت أبى منازل كثيرة . ولقد اعطت الطبيعة للانسان مفاتيح لعـــدد كبير من هذه المنازل الميتافيزيقية . ويقترح علينا عابد الملذات أن يستعمل الانسان كل المفاتيح بدلا من ان يلقى بهـــا كلها ويستبقى منها واحدا فقط . »

وامضى هكسلى وقتا طويلا فى البحث عن هذا المفتاح ، وعندما عثر عليه وجد ان المنزل الذى يجب عليه ان يدخله هو ، كما يقول ، « صومعة معرفة النفس » .

ومنذ ذهابه الى كاليفورنيـــا فى عام ١٩٣٧ واستعادته لقوة الابصار بشكل ملحوظ وانضمامه الى جمعية الفيدا الصوفية وهو يكتب عن التصوف بعد أن درس فلسفة الفيدا مع احد المتصوفين الهنود . ولم يمنعه من التصوف فى الفترة الأولى سوى الاعتداد بذكائه وكان عليه لكى يدخل الى قصر الايمان ان يلقى باشياء كثيرة عنـد مدخله وعلى الأخص عقله الواعى ومنطقه وطريقة تفكيره و « شطارته » . ويعلق على تجربته بعد تعاطى عقار المسكالين فى كتابه « ابواب الحس الادراكى » بقوله : « وبالنسبة لأى انسان يهتم بالانسانية وبقدراتنا الكامنة العظيمة ، فان اى تجربة ، حتى ولو كانت ساذجة ، لها فائدتها اذا كانت ستشير الى ما يجب علينا الا نفعله . » ويسجل فى هذا الكتاب الخطوات اللازمة للدخول فى حالة من الوعى الصوفى المفتعل عن طريق عقار المسكالين ثم حالة التصوف ومالها من مغزى ثم انتهاء التجربة وعودته الى المتعدد . ففى « أبواب الحس الادراكى « فتح هكسلى الباب على مصراعيه عنوة ودخل وتعلم وخرج شخصا مختلفا تماما .

« فالانسان الذى يعود من خلال هذا الباب فى الجدار سيكون انسانا مختلفا عن الانسان الذى دخل منه . سيكون حكيما ولكن ثقته العمياء بنفسه ستقل ، سيكون أسعد مما كان ولكنه سيكون أقل رضى عن نفسه ، سيكون متواضـــعا وسيعترف بجهله ولكنه سيكون مستعدا لفهم العلاقة بين الكلمات والأشياء ، وبين الفكر المنظم وبين هذا السر الذى لا قرار له والذى سيحاول دائما ، وعبثا ، أن يفهمـــه » .

وفى التجربة الصوفية يفهم الفرد ما هو المقصود بوحدة الكون والشخصية ويجلب له هذا الاحساس سعادة لا مثيل لهـــا ويبدأ فى التخلص من العراك الداخلى فى شـخصيته . ويقول هكسلى ان التامل

أو التجربة الصوفية تمكننا من « معرفة الثلاثين أو الأربعين جلدا التى ترقد ذاتنا تحتها ونكتشف انها الهى .

فهناك انســـان حقيقى ، ان لم يكن قديسا ، فى المادة الخام التى تبدأ بها حياتنا » ولكننا نعمل على الابقاءعلى هـــذه الأقنعة الخيالية ونهمل ما هو حقيقى ، ولكن هذه التجربة تساعد على التخلص من الازدواج والتعدد .

ولا يقول هكسلى ان تجربة « المسكالين » تعادل التجربة الصوفية الأصيلة أو الاستنارة الفعلية ولكنها ، فى حد ذاتها ، تجربة مفيدة وعلى الأخص بالنسبة للعقلانيين لأنها أكدت له قيما روحية طالما تاقت نفسه اليها وساعدته على التخلص أثنائها ، كما يقول ، من الأنا المجنونة التى كانت تصر دائما على توجيه أموره .

## « الدين والتصوف عند هكسلى »

يعتبر الدين والتصوف عند هكسلى لفظين مترادفين وينطوى هـــذا التصوف على تجارب شخصية صوفية كما أن الحياة الدينية الصحيحة فى نظره هى حياة المتصوف وللمتصوف أوصاف منها التقشف الجسدى والذهنى والزهد والصفاء والطاعة والتواضع . ويعرف هكسلى التصوف من خلال عرضه لخصائص حيـــاة المتصوف ومظاهرها ونتائجهـا على صاحبها وعلى الناس . ويبين لنا فى « الفلسفة الدائمة » وفى « ابواب الحس الادراكى » وفى « الجنة والجحيم » ان الوصول الى الحقائق الصوفية العميقة لا يأتى عن طريق البرهان العقلى ولكن عن طريق الفهم الذى يدفعنا دائما الى السعى الدائب للوصول اليها .

والطريق الى الواحد أو النيرفانا عند هكسلى يبدأ من السامسارا أو التعدد أو هذا العالم الجميل الذى نجده ممثلا فى كتبه فى الفترة الأخيرة فى شكل فقرات يصف فيها مواطن الجمال فيه بعين لا تغيب منها الدهشة . ويســـال أنتونى فى « ضرير فى غزة » أمن الضرورى أن يصـل الانسان الى النيرفانا من طريق السامسارا ؟ .

« ولماذا اذن هذا التعدد ؟ ... لماذا يستمر شر هذا الانفصال ؟ انفصال القديس عن القديس ، وانفصال الأشكال الطبيعية بعضها عن بعض ؟ » ويجيب .

« لا يستطيع انســـان ان ياكل من اجل انسان آخر ، ولابد لأنقاهم من ان يفكر ويتمتع ويقاسى ويلمس ويشم ويسمع ويذوق فى عزلة عن الآخرين . والرجل الطيب يعيش فى عالم اقل انعزالا عن عالم الرجل الشرير ، ولكنه عالم مقفل ، تماما كالذرة المقفلة . وبالطبع اذا كان لابد من أن يكون هنـــاك وجود ـ وجود كما نعرفه ـ فلابد للكائنات من أن تنتظم فى عوالم مغلقة . وعقول كعقولنا « لابد لهـــا أن تدرك الوحـدة دون فوارق تصبح وكأنهـا لا شىء . تناقض لا مفر منـه لأننـا نريد أن تكون س = ١ ولكننا نجد ، فى الحقيقة ، أن ١ = صفر .

والوصول الى الحقائق الصوفية العميقة لا يأتى عن طريق البرهان لأنهـا حالة سريعة الزوال يشعر المتصوف عندما يعانيها كمالو كانت ارادته الشخصية معطلة . وقد وصل هكسلى من خـلال دراســاته فى علم النفس وأدب المتصوفين الى حقيقـة هامة وهى أن شعورنا اليقظ الراهن ليس الا نمطا واحـدا من أنماط الشعور الانسـانى . فلكل شخص ، كما يقول لنا فى مقاله « تعليم الانسان البرمائى » ( أدونيس والابجـدية ) نفس واعية تحتها خمس أو ست نفوس أخرى مميزة . فهناك أولا النفس « المحلية » التى كونتها العـادات والأفعال المكيفة ، تلك النفس التى تحتفظ بذكريات الماضى وتعذبها العواطف المكبوتة ويهتم علماء النفس بهذه المنطقة . وبعدها تأتى النفس النمائية أو الانتيليخى وهى التى تعتنى بالجسد والتى تقوم فعلا بالمشى عندما نريد أن نمشى والتى تتحكم فى ضربات القلب وافرازات غددنا وتسير عمليـة الهضم وتساعد على التئام الجروح وتعيد الينا الصحة بعد المرض . ثم تأتى النفس التى تسكن ذلك العـالم القريب الذى نستمد منه الهامنا وهى النفس التى ناجاها سقراط والتى حلمت بنص « قوبلاى خان » للشاعر كوليردج والتى أملت « الملك لير » و « كتاب الأموات » وهى المسئولة عن كل ما نكتسبه من حكمة وما نحصل عليه من استزادة فى القوة الحيوية أو الذهنية . وبعد هذا العالم يوجد العالم الذى يطلق عليه يونج « عالم النماذج الأولية » برموزه المتعـددة التى نشارك فيها جميعا . ثم بعـد ذلك يأتى عالم الرؤى ، حيث تعيش اللا ـ أنا ، ذلك العالم الذى يزخر بالحقائق التى لا تمت لعـالم الانسان المرئى بصلة ولا بعالم الرموز أو النماذج الأولية وهو العالم الذى استمد منـه اللاهوتيون أفكارهم عن الجنة والجحيم . وأخيرا يأتى العالم الذى تسكنه الروح القدس أو الضوء الساطع أو الآخرية .



ولا يمكن للانسان من أن يرتقى الى هـذا المستوى ويتمتع بالرؤية الحقة دون الغوص فى الواقع المحسوس ، فالمولد الثانى أو البعث أو الحركة الصاعدة لا تبدأ فى العدم أو فى الفراغ أو فى النيرفانا



بل يرتكز على الأرض التى نعيش عليهـا وهى نقطة الانطلاق الى الواحد المطلق . والانطلاق أو الصعود عنـد هكسلى هو عودة الى الأصل وكما يقول ت . س . اليوت ( من ترجمة للدكتور مهـدى علام ) .

باب خفى غير منسى لنـــــا      منـه ولجنـا نحن بيـداء الظنون
فاذا الذى كنـا نظن مفـازة      لم تمش فيهـا أرجل للعـالمين

هى نقطة البدء التى منها ابتدأنا السير يوم خروجنا مستكشفين .

« انتهى البحث »

# يا عم يحيى



بقلم
د. عبد الغفار مكاوى

كانت زوجتى قد أوت الى الفراش منذ لحظات وتركت باب حجرة النوم مواربا . وكنت أسمع أنفاسها تتردد وأنا جالس فى الصالة أتصفح جريدة وأنتظر حتى تسقط من يدى كما هى عادتى كل ليلة فأعرف ان موعد نومى قد جاء وانهض لأغلق النافذة واندس فى الفراش . ولم اكن مستغرقا فى الجريدة التى كنت أبحث فيها عبثا عن شىء يسلينى حين سمعت الصوت . انشق فجأة فى سكون الليل كالسكين اللامعة فانتفضت وطار النوم من عينى :

يا عم يحيى ! يا عم يحيى !

نفس الصوت الذى أسمعه منذ ليلتين . مبحوح ومرتعش ومفاجىء وملسوع ، يتلوى ويستنجد ويبكى ويستغيث . كأنه جرح غائر مشقوق فى مكان مظلم عميق ، جرح أصبح له لسان ينزف بالعويل والصراخ كما لو كانت آلاف السياط تنهش جسد صاحبه ، آلاف الأيدى والأقدام تضربه وتلكمه وتركله وآلاف الطيور والوحوش تمزق لحمه وتلغ فى دمه وتحاول أن تبتلع صراخه فيفلت منها ليسترحم الخليقة كلها .

— يا عم يحيى ! يا عم يحيى !

لم يكن صوتا . فالصوت الانسانى مهما ارتفعت درجته نحس نحوه بنوع من الألفة . انه لا يفاجئنا ، ولا يروعنا ولا يذهلنا كما فعل . كان حشرجة مخلوق تنهار السماء فوقه ، يرتج الزلزال تحت قدميه ، يحز السيف على رقبته ، يمر جسده على كل آلات التعذيب التى عرفتها العصور المظلمة ،

يسحق تحت طاحونة ثقيلة جبارة .

سقطت الجريدة من يدى ولكن النوم طار من عينى الى الأبد . وقفت فى الصالة ودقات قلبى ترتفع وترتفع ، يخيل الى أن أفضل وسيلة للهروب من هذا الصوت أن أخلع ملابسى واخرج عاريا من البيت وأجرى فى الشوارع وأنا اضع يدى على اذنى . كان ياتى فى البدايةمنخفضا ممدودا ، مميز الحروف ممطوطا فى نهاية كل كلمة . ان الياء فى يحيى تمتد كاليد المستعطفة الذليلة الباكية ، تعاقب وتشكو وتنتظر . انه صوت طيب ، مستغيث ولكنه لا يزال يرجو ، ينادى ولكنه يتوقع أن يسمع من يرد عليه ، يتوسل ويبكى ولكنه ينتظر ولم ييأس بعد . ثم يزداد حدة ، وتسرع مقاطعه فتصطدمببعضها كعربات القطار ، وترتفع درجته وتزداد تحولا وتوترا وسخطا وعصبية فتأكل الحروف بعضها ، وتقفز واحدة وراء كل دلالة بشرية لتصبح صيحة حادة جارحة مبتورة كسيف يغمد فى الصدر ثم يستل فجاة . ومع كل صيحة تزداد الضربات على باب العمارة التى أسكن فيها . وتصبح الضربات هى نفسها صيحات ملهوفة ملسوعة مستغيثة ، والصيحات ضربات ثقيلة وخائفة ومدوية ترج الأبواب والشبابيك .

منذ ليلتين وأنا أسمع هذا الصوت يحشرج وسط الظلام والسكون ، والضربات تهز باب العمارة وكأن صاحبها يدق على باب مقبرة ليوقظ أصحابها . كان فى الليلتين السابقتين ينطلق فجاة ليستمر لحظات ثم يختفى فجأة كما جاء لا تكاد نفيق من الذهول حتى يذهب . لا بد أن السكان قد ظنوا مثلى أنه أحد أقارب البواب ، جاء متأخرا فى عز الليل فأراد أن يوقظه من نومه الثقيل ، أو كان صاحبه يعانى من مغص هائل أو يطلب نجدة عاجلة فأفاقوا لحظة من نومهم ثم نسوا الحكاية . أو لابد أنهم — حين تكرر هذا الصوت فى الليلة التالية — قد عزوه الى كابوس ثقيل كتم أنفاسهم بعد أكلة دسمة ، كابوس ضخم أسود كثيف الشعر اشتركوا فيه جميعا وحين صحوا منه كان الصوت قد راح لحاله . ولكنه حين تكرر هذه الليلة على هذه الصورة الذبيحة كحشرجة مقتول ، الملهوفة كأجراس عربات الحريق أو الاسعاف الصارخة كبكاء شحاذ تنهشه وحوش الجوع المستنجدة ، كصياح مجرم توشك أيدى العساكر أن تقبض عليه — لعله حين تكرر هذه الليلة على هذه الصورة بدأ ينبهنا الى أنه لابد برغم وحشيته وغربته عن عالم الأرض ان يكون مع ذلك صوتا انسانيا — صوت بشر مثلنا لابد على كل حال أن نرى ماذا يريد صاحبه ولماذا يعكر نومنا .

كنت لا ازال أقف فى الصالة حين سمعت جارى الأستاذ عادل همام يفتح باب شرفته فى غضب هائل وهو يسب ويلعن ويبرطم . وأسرعت أغلق باب غرفة النوم على زوجتى حتى لا تفزع من نومها وفتحت أنا أيضا شباك حجرة الصالون المطلة على الشارع العمومى . كان الصوت لا يزال يرن فى الآذان وعلى الأسفلت كأنه أوانى نحاسية ترتطم وتظل

الموجات المنبعثة عنها تتسع وتتسع صاخبة مدوية خرســاء . وسمعت جارى الأستاذ عادل همام ـ الذى كان يبدو فى روبه الأحمر وشعره المنفوش وجسده المكور كأنه بصلة افرنجية ـ يشخط قائلا فى صوت كالرعد : يا جدع انت ! يا جدع انت ! دوشتنا الله يدوشك !

ولم يكف الصوت عن رنينه الجارح المعتم الرتيب ، بل ارتفع وعلت درجته وزاد الحاحه وكان سياطا نارية جديدة تلهبه وتغذيه بعذاب جديد : ياعم يحيى ! يا عم يحيى ! يا عم يحيى ! والياء الأخيرة طويلة طويلة تنتهى مقطوعة كأنها تقف فى ثم تبدأ « يا عم يحيى » من جديد أقرب الى النشيج اليائس اليتيم المهجور . وزعق جارى ـ بعد أن سمع صوت نوافذ اخرى تفتح فى العمارة ، وأنوارا توقد ، وهمسات تعلو وتتساءل وتتشابك :

عم يحيى من ؟ عم يحيى من يا جدع انت !

ويظهر أن صاحب الصوت سمع جارى أو تنبه الى أنه يقصده بالسؤال . فاوقف ضرباته الهائلة على البوابة وان لم يوقف نداءه المتكرر المستغيث : عم يحيى يا بواب ! يا عم يحيى يا بواب !

فزار جارى ـ ويظهر أنه تلفت حولى ورفع رأسه فلمح الجيران ينظرون من الشبابيك وشعر أنه موكل عنهم فى اخماد هذا الصوت :

ـ البواب اسمه سالم . ليس هنا أحد اسمه يحيى . ثم ان البواب مسافر عند أهله فى الصعيد .

ورفع رأسه من جديد الى الأدوار العليا وكأنه يتأكد بنفسه أنه ليس هناك بالفعل أحد من سكان العمارة بهذا الاسم . وسمع الصوت من جديد يتأوه ويئن فى استسلام وضراعة وتأن صاحبه ـ الذى بدا الآن واضحا أمام الباب بجلبابه الأبيض الطويل وقامته النحيلة ورأسه الصغيرة ـ يسترحم اليد التى تطعنه الطعنة الأخيرة : اصحى يا عم يحيى يا بواب ! أنا سايق عليك النبى تصحى يا عم يحيى . وصاح الأستاذ عادل بعد أن لاحظ وجودى فى النافذة فى صوت أقل حدة وأقرب الى الاقناع منه الى الغضب : يا أخى قلت لك البواب اسمه عم سالم . الله ! كل ليلة تطير النوم من دماغنا ؟ كل ليلة هوسة وزعيق وخبط على الأبواب ؟

فاقترب الرجل ناحيته ، ورفع رأسه التى كانت الآن تحت شرفته تماما وقال فى صوت كأنه دموع تسقط من الحنجرة : والنبى تنادى لى على عم يحيى يا سعادة البيه . الله يخليك نادى لى على عم يحيى !

فسأل الأستاذ عادل وهو يستند بكلتا يديه على سور الشرفة ويمد رأسه ليتحقق من صاحب الصوت الذى يخاطبه : عم يحيى من يا جدع انت ؟

فأجاب صاحب الصوت : عم يحيى يا سعادة البيه . عم يحيى الرجل الطيب . سعادتك لا تعرفه ؟

فصرخ الأستاذ عادل نافذ الصبر : لا اعرفه ولا عمرى شفته !

فعاد الصوت كأنه يجفف دموعه ويقول





متعجبا : عم يحيى يا ناس ! من لا يعرفه يا عالم ؟ .

فصاح الأستاذ عادل وقد رأى ان المناقشة طالت أكثر مما ينبغى : قلت لك لا أعرفه ولا عمرى شفته . يا الله روح نام وخلى الناس فى حالها .

فقال الرجل فى هدوء لا يخلو من العتاب : أروح يا سعادة البيه ؟ الله يسامحك ! أروح من غير عم يحيى ! يعنى يرضيك والنبى ؟ بذمتك يرضيك ؟

احسست أننى لابد أن أساهم بشىء فى الموضوع . فسعلت أولا ثم قلت لجارى : يظهر انه مجنون يا عادل بك . فقال الأستاذ عادل وكأنه يحيينى : معك حق يا استاذ سامى الظاهر أنه مجنون . ومن بختنا ان جنانه لا يظهر الا نصف الليل . ( ثم موجها الكلام الى الرجل ) اسمع يا جدع . اذا لم تمش ناديت على العسكرى !

فقال الرجل وهو يدارى وجهه بذراعه فى حركة أقرب الى السخرية منها الى الخوف : العسكرى ؟ ! ويرضيك البهدلة يا بيه ؟ طيب والله وحياة سعادتك انه رجل طيب . رجل طيب ابن ناس طيبين . رجل لا يستحق الا كل خير . العسكرى مرة واحدة ؟ طيب والله أنا حفيت لأجل الاقيه . خبطت على الأبواب . ناديت فى عز الليل . جعت وعطشت وشفت المر . تركت أهلى وطلقت امراتى لأجل خاطره . مستعد أبيع هدومى بس الاقيه .

فقال الأستاذ عادل وقد لاحظ أن المناقشة قد طالت وأن معظم الشبابيك قد اغلقها أصحابها ومعظم الأنوار قد انطفأت . قال وقد بدا فى صوته انه بدأ يهتم بمعرفة الجواب : طيب لماذا تريده ؟ عم يحيى بتاعك ؟ فقال الرجل : لماذا أريده ؟ طيب اسأل الدنيا عليه . عم يحيى يابيه رجل طيب . رجل صحيح وربنا ساترها معه .

قال الأستاذ عادل وقد بدأ يلاحظ ان الرجل يهذى وأن من المخجل له أن يستمر فى الاستماع اليه : طيب يعنى ضاقت الدنيا فى وجهك . يعنى لا تبحث عنه الا فى شارعنا ؟ وعلى باب عمارتنا ؟ قال الرجل فى استسلام : وحياتك عندى يا بيه أنا دخت عليه . من الشرق للغرب ومن الغرب للشرق قلبت الدنيا عليه . خبطت على الأبواب طردونى . ناديت ما أحد رد على . قلت لهم عم يحيى قالوا لى مات من زمان . قلت لهم ياناس عم يحيى هو عم يحيى ــ طول عمره رجل طيب ويحب المعروف ولازم ألاقيه . صرخت ضربونى . جريت جروا ورائى سقت عليهم النبى ما حد حن على . بست رجليهم قلعونى هدومى وألبسونى القميص . هربت منهم وقلت مصيرى الاقيه . عم يحيى موجود وربنا موجود . قلت يا ولد ان مالاقيته فى السكك والحوارى يمكن تلاقيه عند العمارات والشوارع النظيفة . ربنا كريم ولازم ..

التفت الأستاذ عادل الى وقال : الرجل يخرف . احسن طريقة ندخل ننام . تصبح على خير يا أستاذ سامى . قلت تصبح على خير وأغلقت ورائى شباك النافذة وتهيأت للنوم . ولم تمض لحظة حتى عاد الصوت من جديد . متوسلا فى هذه المرة ومبحوحا ، باكيا أكثر منه مستغيثا ، يائسا أكثر منه ملحا او عنيدا . وتوالت الضربات الثقيلة ترج البيت كأنها تهز شجرة قديمة من جذورها : يا عم يحيى ! حرام عليك يا عم يحيى ! أنا فى عرضك يأ عم يحيى !

وفتح شباك الشرفة المجاورة فجأة فارتطم بالجدران فى غضب وجنون . وسمعت صوت الأستاذ عادل الجهورى يزعق ويسب ويلعن الدنيا ومن فيها : يا شاويش ! يا شاويش !

وفتحت أنا أيضا نافذتى ووقفت أنتظر ما يحدث . وما هى الا لحظات

حتى لمحنا الشرطى يتدحرج على أرض الشارع ، تلمع أزرار سترته على ضوء المصابيح الخافتة على الجانبين ، ويختلط كعب حـذائه بزعيق الأستاذ عادل بالصرخات الممدودة التائهة بالضربات التى تنهال على البوابة الحديدية بوحشة الليل وعتمـة الظلام وأصوات الزجاج والنوافذ التى تفتح واحدة بعد الأخرى بنداءات الغضب والاستفسار والسخرية التى تنبعث منها فى نفس واحدة . وأقبل الشرطى فأمسك بالرجل من رقبته . ولم يكن فى حاجة الى أن يسأل فالجريمة واضـحة وازعاج الناس فى عز الليل لا يحتاج الى دليل . قال الأستاذ عادل : يا شـاويش ! أنا عادل همام القاضى . وزميلى الأستاذ سامى عبد المولى مدرس ثانوى . هذه ثالث ليلة يزعجنا فيها . ناقص يوقع العمارة على رءوسـنا . الأولاد فزعت من النوم . سمعنا الخبط قلنا القيامة قامت . ارجوك يا شاويش تعمل اللازم .

قال الشاويش وهو يحيينا فى تكاسل : حاضر يا سعادة البيه أنت وهـو . على القسم قدامى يا بوز القرد . أى خدمة يا بهوات والله . يا بيه من ليلتين سحبته بنفسى على القسم . الشاويش النوبتجى قعد يسأله طول الليل . خطرف ولخبط باس تراب الأرض وقـال بس كلـه ولا الحبس يا سعادة الشاويش . كله ولا سراية المجاذيب . صعب علينا رميناه فى الشارع وقلنا رزقه على الله . هو حر مع عم يحيى بتـاعه . رجعت للنكد يا بوز القرد ؟!

قال الأستاذ عادل فى لهجة قاطعة : المهم تعمل اللازم يا شاويش . ثم وهو ما يزال يوجه كلامه الى الشـاويش : تصبح على خير يا أستاذ سامى !

صـفع باب الشرفة وراءه . وبقيت أنظر الى الشـاويش الذى أمسكت يده برقبة الرجل وراح يدفعه أمامه ويتثاءب بصوت عال . واضـطر أن يوسع من خطواته ليلحق بالرجل الذى كان يهيج امامه كالجمل المسرع فى طريقـه الى السلخانة . ولم تمض لحظـات حتى اختفى شبحهما فى الظلام .

حين اوى الحاج رضوان الى فراشه فى تلك الليلة . لم يكن ما يريده هو النوم كان فقط يود ان ينفرد بنفسه ، ان يفكر وحده بهدوء فى كل ما حدث لقد ظل طوال النهار وجزءا من الليل يستقبل الناس الذين توافدوا على داره من قريته ومن القرى المجاورة ، ولأول مرة وجد نفسه فى موقف من يستمع الى هؤلاء الناس دون ان يكون فى مقدوره أن يقول لهم كلمته لتكون كالعادة الكلمة الأخيرة والحاسمة ، لأول مرة وجدهم يرفضون رأيه رفضا باتا ، ولأول مرة يجد نفسه ضعيفا امام رفضهم ، وفى النهاية موافقا عليه وسعيدا به !

# الناس والحقيقة

بقلم : محمد أبو المعاطى أبو النجا



ورغم ذلك ، لم يكد يغلق خلفه باب حجرته ، ويغير ملابسه ، ويطفىء المصباح المعلق على الحائط بجوار سريره ، ويسحب اطراف الغطاء على جسده ، حتى وجد جميع هؤلاء الذين غادروا داره منذ حين يملؤون حجرة نومه ، فلا تضيق بهم الحجرة ولا يضيق هو بهم ، وراح يستمع الى كلماتهم الى بعض هذه الكلمات .. التى كانت تتردد منذ حين ..

« من كان يظن ان يوما كهذا سيأتى ؟

ـ لقد جاء من اجل ان يأخذ الحاج رضوان المكان الذى يستحقه ..

ـ فى الحقيقة هو يستحقه من سنين طويلة !

ـ منذ سنين كانت الدنيا غير الدنيا .

ـ لا يزال الحاج فى احسن صحة وأمامه عمر طويل باذن الله .

ـ يا رجال .. لقد كبرت .. البركة فى شباب هذه الايام ( استمع الحاج الى صوت نفسه وكأنه شخص آخر تماما ) .

رد شاب من قرية مجاورة : شباب هذه الأيام يريدون ان تعرف انهم لم ينسوا خدماتك للناس .

( حاول الحاج رضوان ان يتذكر اسم الشاب فلم يفلح ، دمعت عيناه تأثرا ، تقلب فى فراشه ، فكر ان هذا اليوم جاء متأخرا حقا ) .

ــ يا رجال انا مقدر لعواطفكم .. ولكن الحقيقة ان صحتى لم تعد تحتمل المعارك الانتخابيـــــة ..

ــ بالنسبة لك لن تكون معركة ــ ربما تكون كذلك لمن يفكر فى منافستك .

ــ من يجرؤ على التفكير فى ذلك ؟ قالها احد الحاضرين فى عصبية .

ــ يا رجال لا تقولوا هذا الكلام ، فهذا من حق اى شخص .

ــ فى الماضى كان نجاح المرشح الذى تؤيده شيئا مؤكدا ! .

ــ اين نحن من هذا الماضى ؟ اننى منذ سنوات اعانى من السكر واخيرا القلب لم تعد صحتى تحتمل زيارات البلاد ! ثم التفت الى الشيخ عطية الذى يجلس بجواره طوال النهار .

ــ قل لهم يا رجل انت ادرى الناس بحقيقة حالتى !

هز الشيخ عطية راسه موافقا وقال : فى الحقيقة الحاج رضوان ..

فقاطعه اكثر من صوت :

ــ « يا حاج لست فى حاجة الى زيارة البلاد ، انت منذ ثلاثين عاما وانت تزور قرى الدائرة ، وانت تقوم بعمل دعاية انتخابية لنفسك ــ دون أن تقصد ــ ويظهر انك الوحيد الذى كان يعرف انه سيأتى يوم يصبح فيه للفلاحين نصف المقـــاعد فى مجلس الأمة » .



ساعتها ضحك الرجال جميعا واختلج وجه الشيخ عطية اختلاجة خفيفة تحولت الى ابتسامة شاحبة حين اضاف احد الحاضرين .

« ــ كان يجب يا حاج رضوان ان تخبر الشيخ عطية وهو جارك بهذا السر ، اذن لما تردد فى منافستك من زمن بعيد ! تمتم الحاج رضوان : وهو يختلس نظرة خاطفة الى وجه الشيخ عطية فى محاولة يائسة لفهم معنى هذه الابتسامة الشاحبة !

ــ يا رجال الشيخ عطية جار قديم ، وهو معنا دائما فى السراء والضراء !

انهى الشيخ عطيه الحديث وهو يهم بالقيام وينقب بعصاه عن حذائه الذى تراجع تحته قليلا تحت المقعد .

ــ يا حاج رضوان ، لابد مما ليس منه بد ، والأمر لله من قبل ومن بعد لحظتها وقف الرجال جميعا وتمتم الحاج رضوان وهو يهز حبات مسبحته .

ــ يا رجال انا فى خدمتكم دائما ، ويفعل الله ما يريد .. ! » .

تململ الحاج رضوان فى فراشه ، احس رغم الاعياء الذى بدأ يحل بجسده بيقظة مفاجئة تلهب راسه ، فاعتدل قليلا فى فراشه .

« هل يمكن ان يزعم لنفسه انه قبل هذا الأمر مرغما ؟؟ او انه وافق على شيء يمكن ان يأسف عليه يوما ؟ مستحيل واذا كان هناك شيء يستحق الأسف فعلا فهو أن هذا اليوم قد جاء متأخرا حقا ، لو ان ذلك حدث منذ عشرين عاما ؟؟ وراح يتأمل فى حنان صورته منذ ذلك التاريخ ، بجلبابه الصوفى الغامق دائما ، وعمامته الناصعة ابدا ، وحذائه الذى يبيت كل ليلة لامعا رغم انه يدوس به طوال النهار فى الأرض المتربة ، والجسور المبتلة ، ولا يبالى ان يغوص به فى الوحل من أجل الوصول الى اى مكان ينتظره فيه ناس ، خلال عشرين عاما وهو يتحرك داخل هذه القرى .. لم يشعر ابدا انه ينتمى الى عائلته وحدها أو حتى قريته ، كان يوجد دائما حيث توجد مشكلة اعيا الناس حلها ، على حدود الأرض التى تقسم ، وعلى مدار السواقى حيث المياه الشحيحة تثير بين الناس اعنف صراع ، وفى الأجران حين تجمع المحاصيل ، وفى اعماق الدور حيث تروى أدق الأسرار فى همس رغم الأبواب المغلقة ، وتصل الأمور الى حد الطلاق .. !!

ورث عن ابيه عشرة افدنة جعلته دائما فى غير حاجة الى احد ، فى موقف الرجل القادر على ان يقول الحق دون اعتبار لأى شيء ، وكثيرا ما كانت كلمته تنجح وحدها فيما تفشل فيه الحكومة ، وبالأخص حين يحتدم الخلاف بين اسرتين او بلدتين وتصل الأمور الى حد استخدام السلاح ، يعرفه مأمور المركز كما يعرفه أقل اجير يعمل بالفأس ، الجميع لجأوا اليه يوما ، وطرقوا نافذة حجرته تلك فى ساعة من الليل ، الجميع شربوا قهوته ، واكلوا زاده ، وخلال هذه السنين لم تزد فدادينه العشرة قيراطا واحدا ، ولم يشعر هو يوما بحاجته الى ذلك ، حدث مرة بعد ان رزق بطفله الوحيد وهو على مشارف الأربعين ان قالت له زوجه :

ـ يا حاج يجب ان تفكر قليلا فى مستقبل ابنك .. يجب ان ..

وقاطعها الحاج الذى كان يعرف دائما فيم تفكر !

ـ يا حاجة .. الأرض ليست كل شيء ، سيتعلم ابننا وسيكون له شأن آخر !! البشوات أصحاب الأرض الواسعة يقصدون الحاج رضوان ، ويأخذون رأيه ، ويتمنون خدمته !!

وفى الحقيقة ، كان يشعر دائما انه رجل هذه المنطقة دون منازع كان يدرك قيمة الذكاء والحلم والشجاعة ، وأنه عن طريقها وحدها امكنه ان يصبح كل شىء فى حياة الناس ، فما من واحد من الناس الكبار فى المنطقة كلها عقد صفقة بيع أو شراء الا واخذ رأيه فى كل ما يتصل بها ، وما من واحد منهم كانت له مصلحة تحتاج الى بقائه فى القرية ، الا واسندها الى الحاج رضوان وسافر الى القاهرة ، ولم يحدث مرة واحدة ان قبل الحاج رضوان مليما واحدا من أجل هذه الخدمات ، كان يملؤه زهوا ان هؤلاء الناس الكبار يحترمون كلمته ، وانه الوحيد فى كل هذه القرى الذى يمكنه ان يطرق أبواب بيوتهم فى القاهرة فى اى وقت ويقابلهم فى اى موعد ، ولم يذهب

مرة واحدة الا ومعه مجموعة من المشاكل التى لا تتصل به ، مريض يريد توصية لطبيب كبير لتخفيض اجر العملية ، تلميذ شقى والده بتعليمه ويبحث عن عمل ، بناء مدرسة يحتاج لتوصية مسئول ليصرح به وتصرف اعانته ، ولسنين طويلة نجح الحاج رضوان بعبقريته الخاصة فى ان يحقق نوعا غريبا من العدالة والسعادة فى هذه المنطقة !!

وحين تغيرت الحياة فى وطنه ذلك التغير الذى انتهى به هو نفسه الى ان يصبح مرشحا لمجلس الأمة ، وحين اهتزت الارض تحت اقدام الذين كانوا كبارا ، ادرك هو كما ادرك كثيرون انه كان يمتلك شيئا حقيقيا جدا ، لأن ما يمتلكه لا يستطيع احد ان يمسه ، والغريب انه ظل محافظا على علاقاته مع الجميع ، على ان اغرب علاقة كان الحاج رضوان يحافظ عليها ، هى علاقته بالشيخ عطية ، جاره فى البيت وفى الحقل ، والرجل الذى يختلف عنه فى كل شيء ورغم ذلك فهو يتبعه كظله . ولا يراهما الناس الا معا . طوال ثلاثين عاما والشيخ عطية لا يفارق الحاج رضوان وفى نفس الوقت لا يكف عن لومه !

« يا حاج رضوان ، أنت رجل طيب ولكن الناس لا يستحقون تعبك من اجلهم !!

« يا رجل صحتك لم تعد تحتمل كل هذا العناء ، فكر قليلا فى نفسك .

« ابنك أحق بأموالك التى تضيع على من يستحق ومن لا يستحق . ورغم ذلك كان الشيخ عطيه من أول المنتفعين بما يعيبه على الحاج رضوان يأكل مع ضيوفه ، ويفيد من نفوذه لدى الآخرين ، ويحضر معه مجالس الصلح ليوافق على آرائه ، وليبدو كأنه معه !

اليوم فقط يعرف الشيخ عطيه معنى حب الناس ، لقد ظل يكدس الأموال طوال حياته حتى اصبح يمتلك ثلاثين فدانا ولكنه لا يستطيع ان يمتلك رغبة رجل واحد فى انتخابه ، لم يتصور لحياته كلها معنى بعيدا عن الناس ، بعيدا عن حياتهم ومشكلاتهم ومتاعبهم ، بل انه لا يتصور حياته يوما واحدا دون الشيخ عطيه نفسه ، انه لم يأسف مرة واحدة على شيء قدمه له أو لغيره ، كل ما فى الأمر أن هذا اليوم جاء متأخرا بعض الشيء ، ولكن ليحمد الله على أنه جاء ، جاء على الأقل ليكتشف الشيخ عطيه ان الحياة ليست اموالا فقط ، وارتسمت على شفتى الحاج رضـوان ابتسامة سعيدة مع بوادر النوم ، لأن الشيخ عطيه يمكن ان يغير رأيه فى الحياة ، أحس رغم الاعياء الذى حل به ان صحته لا تزال على ما يرام ، وأنه سيكون قادرا على زيارة جميع قرى الدائرة ، وان الوقت لم يمض بعد ، ولن يتخلف الشيخ عطيه عن مرافقته ، وانهما سيكونان معا دائما رغم كل شيء .

كانت الحركة قد هدأت فى دار الحاج رضوان ، واطفئت ( الكلوبات ) التى تضاء كل ليلة . ولم يبق معه سوى الشيخ عطية الذى اخرج من جيبه آخر منشور طبعه « حسين النجار » المرشح الذى جرؤ على ان ينافس الحاج رضوان .. !!

ـ انظر ما يقوله عنك ابن اللئيمة ... راح يستعمل سلاحا قذرا .

القى الحاج رضوان نظرة سريعة على المنشور وتذكر انه قراه عصر اليوم .. ومع ذلك استمر يقرؤه على مهل .. لا يدرى لم ؟

وفجاة توقف فى منتصف القراءة وقال فى عصبية :

ـ كلام حقير ... لن يصدق احد هذه الاكاذيب !

اعتدل الشيخ عطية فى جلسته ولمعت عيناه ببريق غريب .

ـ ولكن الناس يرددون هذه الاكاذيب فى البيوت وعلى المصاطب .

ـ البلهاء هم الذين يصدقون هذا الكلام ويرددونه !

ـ للبلهاء اصوات فى الانتخابات كالعقلاء تماما !

ـ ماذا تريدنى ان افعل يا شيخ عطيه ؟

ـ تطبع منشورات ترد بها على اكاذيب « حسين النجار » .

وتدفع عن نفسك هذه التهم !!

ـ هكذا اصبحت متهما يدافع عن نفسه ، لن ياتى اليوم الذى ارد فيه على شخص كهذا !! واذا كان الناس قد نسوا ..

قاطعه الشيخ عطية محتدا : ـ عيبك دائما انك رجل طيب ، تعتقد ان الناس مثلك ، الناس كالاطفال لا يذكرون الا ما هو امامهم ثم لماذا تاخذ على خاطرك من الناس كأنهم صديق أو أخ ؟ ؟

يا رجل انت فى معركة ولابد ان تستعمل اسلحة عدوك ، وبالأخص وهو يذكر اشياء ربما لم يفهمها على حقيقتها ابناء هذه الأيام !!

ظل الحاج رضوان مطرقا ، تنم ملامح وجهه عن ذلك الجهد الضخم الذى يبذله حتى يتجنب الجدل مع الشيخ عطيه ، كان متعبا ، يود ان يستريح .

قال وعيناه تعبران عن أسف وحيرة .

ـ لا تؤاخذنى يا شيخ عطيه ، سنتدبر الأمر فى الصباح .

* * *

فى تلك الليلة كان الحاج رضوان يحاول عبثا ان يطرد من راسه كلمات الشيخ عطية ، طوال عمره كان يسمع منه مثل هذه الكلمات دون ان تقلق خـاطره ، وربما لو سمعها قبل هذه الأسابيع الثلاثة التى مضت على ترشيحه لمجلس الأمة ، ما توقف

امامها لحظة واحدة اما الآن فما أكثر الأشياء التى تغير احساسه بها ، لا يدرى كيف حدث ذلك كله ؟ لقد راى خلال هذه الأسابيع ما عجز عن رؤيته فى سنوات حياته كلها ، فى البداية كان يعتقد انه سيزور البلاد التى يعرفها كما لا يعرفها أحد غيره ، وفى هذه المرة اصر على ان يدخل كل حارة وان يزور كل بيت .. وفى كل يوم كان يجد نفسه امام مئات الوجوه التى يلتقى بها لاول مرة وجوه نظيفة لتلاميذ صغار ، ووجوه مغبرة لشبان فى سن العمل ووجوه مغضنه لشيوخ فى مثل سنه ، كانت وحدها هى التى تحتفى به ، بعض هذه الوجوه كان ينظر اليه فى فضول وبعضها كان يرمقه فى لا مبالاة ، وبعضها كان يبدو ذاهلا كأن الأمر لا يعنيه فى شىء . !!



فى كل يوم كان يبصر هذه الوجوه التى لم تطلب يوما عونه ، ولم تطرق نافذة حجرته فى اى ساعة من الليل ، كان يبصرها وهى تتزايد وتكثر وتكاد تغرق فى ملامحها البليدة المحايدة وجوه من يعرف من الناس .. !

فى كل يوم كان يشعر بأنه يطفو على سطح هذه الوجوه كقشة ضئيلة لا تملك مصيرها رغم انها تبدو دائما على السطح !!

وكان احساسه بأن كل هذه الوجوه ، كلها دون استثناء سوف تصنع يوما طابورا طويلا يمتد فى كل قرية لتقرر نجاحه او فشله ، كان هذا الاحساس يصيبه بالدوار .. !

ماذا يعنى الفشل بالنسبة لشخص مثل « حسين النجار » ؟

لا شىء !! أما بالنسبة له ؟؟

لأول مرة يشعر بأن الأمر يخرج من يده ، لم يعد رجل هذه المنطقة ، هــذه الوجوه العديدة التى لا يستطيع مخلوق فى الدنيا كلها أن يعرف ما يدور فى رءوسها هى التى ستقرر مصيره ! ربما كان الشيخ عطيه مصيبا هذه المرة !! لماذا لا يكتب منشورات يوضح فيها حقيقة صلته بالبشوات السابقين ، ناس كثيرون يجهلون هذه الحقيقة الشبان الذين كبروا فجأة فى هذه الايام ، التلاميذ الذين كانوا أطفالا حينما كان يكد من أجل ان يبنى لهم مدرسة ! كل هؤلاء يجب ان يعرفوا الحقيقة .. ولكن عليه اولا ان يوضحها.لهم وفى هذه الليلة ابصر الحاج رضوان بعد ان غرق فى النوم ، وجوها عديدة ترجوه ان يرشح نفسه لمجلس الأمة ، ولكنه كان يرفض رفضا قاطعا مؤكدا ان صحته لا تحتمل ، وانه قد كبر ، وان البركة فى شباب هذه الايام !



فى ضوء « الكلوب » الذى يتدلى من سقف حجرة الضيوف بدت عيون الرجال وكلها تلتقى عند وجه الحاج رضوان الذى بدا ساهما مطرقا .

ــ ماذا قلت يا حاج ؟ لابد ان ننتهى الآن لرأى فأهل « كفر الأمير » ينتظرون منك كلمة هذه الليلة .. وقد طال الكلام دون ان نصل لرأى .. !

بهذه العبارة قطع الشيخ عطيه الصمت المخيم على الحجرة ، ومن جــديد عاد الصمت ثقيلا خانقا .. !

ولأول مرة وجد الحاج رضوان نفسه عاجزا عن ان يقول الكلمة التى ينتظرها منه الناس ، بل عاجزا عن ان يفهم حقيقة النوايا التى تختفى تحت عمامة الشيخ عطيه وخلف التجاعيد الصلبة التى تملأ دائما وجهه الخالى من اى انفعال .. !

« منذ اسابيع اخبره الشيخ عطيه بطريقة من يفضى بسر خطــير ان « حسين النجار » قد القى بآخر سلاح فى المعركة وانه سيوزع نقودا على اهــل بلده كفر الأمــير .. !

لحظتها خيل للحاج رضوان ان الشيخ عطيه يندد بطريقته فى الحياة .. وانه يتحدث بأسلوب خفى عن مغزى المال .. الذى يملكه ! ولكنه فوجىء بالشيخ عطيه

نفسه يتبع الخبر الغريب بأن اخُرج من جيبه مائتى جنيه لتكون تحت تصرف الحاج رضوان اذا احتاج لهذا السلاح .. لحظتها دارت الدنيا بالحاج رضوان ، احس ان المعركة لم تعد بينه وبين « حسين النجار » وانما بينه وبين الشيخ عطيه نفسه ، فالشيخ يثق تماما فى انه لا يلقى بنقوده فى البحر ، وانها سترد له مهما تكن النتائج فاذا نجح يكون هو الذى اشترى نجاحه ، واذا فشل يكون قد فشل رغم كل المحاولات ولم يكد الحاج رضوان يلتقط انفاسه من هذا الموقف حتى وجد الشيخ عطيه يدفع به دفعا الى حافة رهيبة فى موقف لا يدرى كيف يتصرف فيه .. !

لقد اخبره الليله امام اصدقائه جميعا ان اهالى كفر الأمير بلد « حسين النجار » يدعونه لزيارة بلادهم .. لأنه البلد الوحيد الذى تجنب زيارته حتى لا يعرض نفسه وانصاره للمشكلات .. !

« حاول بكل الوسائل ان يعتذر عن هذه الزيارة ولكن الشيخ عطيه انبرى له يفند جميع حججه بمنطق .. غريب !

ـ لا اريد ان أعرض الناس للمشاكل والفتن .. !

ـ ولكن عدم ذهابك سيعرض انصارك هناك للاحراج .. !

ـ انت اخبرتنى يا شيخ عطيه ان حسين النجار قد دفع فلوسا لأهل الكفر ..

ـ لقد اخذوا فلوسه وسيعطونك اصواتهم ..

ـ اصبحت تثق بالناس يا شيخ عطيه من يضمن لك هذا كله ؟

ـ وانت لماذا اصبحت لا تثق بهم .. ! انهم متحمسون لك اكثر من اى بلد آخر لانهم وحدهم الذين عانوا من « حسين النجار » واطماعه .. !

ـ انت تقول انهم مصممون على اقامة صوان وحفل وانا ازور الناس فى بيوتهم ولا اعرف كيف اخطب فى صوان ملىء بالناس .

ـ لن تحتاج لأن تلقى اى خطاب ، سيقوم بذلك الشيخ احمد الذى حصل على ثانوية الأزهر وظل بلا عمل الى ان وظفته بوزارة الأوقاف .. يريد أن يرد لك الجميل ويذكر الناس بخدماتك .

« كان ذكر الشيخ احمد هذا وحده كافيا لبعث المخاوف فى نفس الحاج رضوان فهذا الشاب فشل فى أن يتم دراسته واشتهر بخلق المشاكل والفتن .. ولم يبحث له الحاج رضوان عن عمل الا من أجل خاطر والده .. وليريح الناس من مشاكله ..! »

— ماذا قلت يا حاج ؟ الناس ينتظرون منك كلمة هذه الليلة ؟ وظـل الصمت سائدا :

« ما الذى يريده هذا الرجل ؟ كأنه يستعجل النهاية ؟ انه يعرف جيدا ماذا يمكن أن يحدث فى حالات كهذه .. خيمة ضخمة مليئة بآلاف الوجوه التى لا يعرف احد ماذا يدور فى رءوسها ، بالعقلاء والبلهاء بالصغار والكبار ، كأن هذا الرجل يريد ان يقدم دليلا قاطعا على انه كان اكثر دراية منى بالناس .. انه لا يريد سوى ان يستمتع بهذا الصمت .. هذا الصمت الذى يطول ويطول .. يكشف عن خوفى من الناس فاذا وافقته فى النهاية كانت المغامرة التى لا اعرف كيف تنتهى ؟

اى نوع من الناس هذا الشيخ عطيه .. ؟ كنت اعتقد انه سيكتشف معنى خواء حياته ، فاذا بى اتيح له اعظم فرصة ليكتشف أننى لست واثقا من شىء .. ! كان يجب ان احب فى هذه الدنيا شيئا محددا .. شيئا المسه واقبض عليه فلا تفلتـــه اصابعى .. شيئا استطيع ان احطمه حين يخذلنى .. اما هؤلاء الناس ، هذا الشىء الذى لا اعرف حدوده ووجوده .. !

وفجأة رفع الحاج رضوان رأسه كغريق يدفع بجسمه الى السطح قبل ان يبتلعه القـــاع ...

— يا رجال غدا سنذهب الى كفر الأمير .



الخيمة مليئة بالناس .. لا مكان فيها لقدم .. الصفوف الاولى يجلس فيها الحاج رضوان وأصدقاؤه .. الناس يهتفون باسم الحاج رضوان خادم الجميع .. الحاج ينقل بصره بين مئات الوجوه التى طالما ارعبته واسعدته الصمت يخيم حين يبدأ المقرىء فى تلاوة قول الله :

« ان ينصركم الله فلا غالب لكم » .. الحاج رضوان يحدق فى الشيخ عطيه ..

لا مكان لمخاوفه .. كاد يظلم الرجل .. كيف يمكن أن تختلط الأمور الى هـــذا الحد .. ملامح الشيخ عطيه البارزة الباردة لا تعبر عن شيء .. !

الشيخ احمد يقترب من « الميكروفون » ويبدأ الخطبة ...

« اخواني اهالي كفر الأمير .. بسم الله الرحمن الرحيم .

وباسمكم ارحب برجل كلنا نحبه وكلنا نقدر خدماته لهذه البلاد ارحب به في بلده وبين أهله .. ولا اعتقد انكم في حاجة الى احدثكم عن هذه الخـدمات .. فكلكم تعرفونها ، والشخص الذى يتحدث اليكم الآن مدين للحاج بالكثير وقد آن الأوان لكى نرد للرجل ديونه العديدة .. !

وقد سألت نفسى هذا السؤال كيف نرد للرجل جميله العظيم كيف نشكره على كفاحه الطويل في هذه البلاد بعد ان أفنى شبابه وصحته من اجلنا ؟ حتى قارب الستين من عمره المديد واصبح في حاجة الى ان يعرف ان جهاده لم يضع عبثا اننى باسمكم اقول له .. أيها الرجل .. لقد كافحت وقاسيت وتعبت .. وآن لك بعد هذا كله ان تستريح .. ليس من العدل ان نطالبك بعد هذه السن بمواصـــلة الكفاح .. واننى باسم اهالى قرية كفر الأمير اطلب منك ان تتنازل عن ترشيح نفسك لشاب يقدر خدماتك ، ويعد بأن يسير في نفس طريقك .. ذلك هو ابن بلدنا الشيخ حسين النجار !!



بعد ان وصل الشيخ احمد في خطابه الى هذا الحد ... امتـــدت ايد كثيرة تجتذبه من امام « الميكرفون » ... وفي جوانب الخيمة ارتفعت اصوات غاضبة ثم ارتفعت المقاعد ثم علا الصراخ في كل مكان ...

* * *

فى ذلك اليوم لم يكن للناس فى الدائرة من حديث سوى نتيجة الانتخابات ومع انه من المستحيل ان يسجل شخص مثل هذا الحديث بدقة كاملة الا انه من المؤكد ان هذا الحوار قد جرى فى مكان ما من هذه القرى وفى وقت ما بين الرجال . .

ــ لم ينجح أحد فى تاريخ البلاد بمثل هذا العدد من الأصوات .

ــ الشيخ رضوان على كل حال جدير بهذا النجاح .

ــ الحادث الأخير كان له تأثير على عواطف الناس .

يقال ان الشيخ عطيه كان مشاركا فى هذه المؤامرة الحقيرة .

ــ لم تكن هناك مؤامرة ، « حسين النجار » هو الذى استغل الموقف واستخدم فيه الشيخ احمد .

ــ الشيخ عطيه نفسه اصيب فى المعركة .

هذا لا يدل على شىء . فالحاج رضوان اصيب هو الآخر .

ــ لقد كسب الحاج رضوان الانتخابات ولكن من المؤكد انه خسر الشيخ عطيه . .!

ــ لو ان هذا حدث فسيكون ربما أكثر من الانتخابات .

ــ اطمئنوا . . لن يفترق الرجلان ابدا . . فقد كانا معا فى المستشفى على سريرين متجاورين . . وحين امتلأت ساحة المستشفى بالمهنئين راى الناس فى شرفة المستشفى الرجلين معا . . كانا يلوحان معا للناس ، كل واحد بالذراع السليمة التى بقيت له . .!

# قصص لي تشون

بقلم: تشن تان تشن
ترجمة: رمزي يسى

في شهر نوفمبر من عام ١٩٥٣ نشرت صحيفة هونان اليومية بملحقها الأدبي قصة « ليس ذلك الطريق » للكاتب الشاب « لي تشون » . وقد أعيد نشر هذه القصة خلال شهور قلائل في عدة دوريات معروضة أحسن عرض . وفي السنوات التالية للتحرير الوطني مباشرة نفذ قانون الاصلاح الزراعي في الريف فتحسنت أحوال الفلاحين ، وفي نفس الوقت ظهر ميل قوي الى الراسمالية لدى بعض العناصر ، فكيف كان يمكن اغراء الفلاحين بالسير في طريق الاشتراكية للوصول الى التقدم الجماعي ؟ لقد نجحت قصة « لي تشون » التي عالجت هذه المشكلة الحرجة في الحياة الواقعية وحظيت بكثير من الاهتمام ، وفي السنوات العشر التي انقضت منذ ذلك الحين استطاع هذا المؤلف نشر نحو خمسين قصة قصيرة ، وأصبح الآن أقوى الكتاب أثرا في الصين الحديثة .

وولد « لي تشون » سنة ١٩٢٧ بقرية من أعمال لوبانج باقليم هونان ، وبعد أن قضى عاما باحدى المدارس المتوسطة اشتغل صبيا في متجر لبيع الملح ثم في متجر والده واستطاع تثقيف نفسه في أوقات الفراغ ، فقرأ كثيرا من كتب الأدب الصيني والآداب الكلاسيكية الأجنبية ، وأخيرا اشتغل مدرسا للغة الصينية باحدى المدارس المحلية بعد تحرير لوبانج سنة ١٩٤٨ ، ثم بدأ يكتب في أوقات فراغه ، وكان لقضائه أيام طفولته بالريف ومعرفته الدقيقة بحياة الفلاحين وعاداتهم وأفكارهم ومشاعرهم أعمق الأثر في أعماله ككاتب قصاص .



وسرعان ما انتقل « لي تشون » مع عائلته بعد أن نشر قصة « ليس ذلك الطريق » مباشرة ليستقر بقرية « سسامتسون » في منطقة «هسنجيانج» حيث عاش مع الفلاحين . ويلاحظ أن هذا العقد الأخير قد شهد سلسلة من التغيرات الكبرى في الريف الصيني ، فاتسعت نظرة الفلاحين نتيجة للاصلاح الزراعي وقيام الحركة التعاونية واستقرار الحكم الشعبي ، وتحول تبعا لذلك نمط حياتهم وعلاقة الأفراد بعضهم ببعض ، فاتخذ « لي تشون » من الأغنياء القدامى ومن هذه التغيرات السريعة في حياة الفلاحين ، ومن نضالهم في الريف معينا

غزيرا لقصصه فأنتج آثارا رائعة تقدم لنا صورة صادقة للأحوال الجديدة فى القرى فى عهدها الاشتراكى . وأهم ما نلاحظه فى كتاباته ، قدرته على ادراك أدق مظاهر الحياة المعاصرة وابراز ما فيها من متناقضات حادة ، ومعالجته لأخطر المشكلات الاجتماعية مما يضفى على قصصه احساسا قويا بالعصر الذى تمثله ، هذا بالاضافة الى أنه يكتب بحماسة وتقدير بالغين عن الفلاحين الجدد الذين يناصرون قضية الاشتراكية ويعتنقون الأخلاقيات الجديدة .

ومن أهم آثار « لى تشون » :

القصص الست الأولى من مجموعة « ليس ذلك الطريق » التى نشرت سنة ١٩٥٣ و سنة ١٩٥٤ ، تعالج فى جملتها حياة الفلاحين بعد الاصلاح الزراعى ، اذ كان الفلاحون يحلمون منذ أجيال طويلة بملكية الأرض ، ولكن الآن وقد تحقق حلمهم عزف بعضهم عن السير فى نفس الطريق ولم يظهروا اهتماما بالأحوال الجديدة . فالفلاح العجوز « سونج لاو - تنج » فى هذه القصة يبدأ فى نسيان الماضى بعد أن تحسنت أحواله بعد الاصلاح الزراعى ويأمل فى أن يصبح غنيا عندما يشترى قطعة أرض من فلاح آخر وقع فى ضائقة مالية مؤقتة ، ولكن ابنه «تونج - شان» وهو عضو فى الحزب الشيوعى يعارضه فى هذه الرغبة ويحاول اقناعه بالحجة ويذكره بانه هو نفسه فقد ارضه قبل التحرير نتيجة لاستغلال صاحب الأرض ، ويقتنع الأب أخيرا ويعدل عن رأيه ويعطف على الفلاح الذى كان سيضطر الى بيع أرضه التى يعيش عليها تحت وطأة الفقر واليأس ويرده ضميره عن طمعه فى أن يصبح غنيا على حساب تعاسة الآخرين .

ونلاحظ هنا أن تونج - شان طراز جديد من الناس يريد لأفراد طبقته التقدم والنجاح بالتعاون فى الطريق الاشتراكى . وكان الطريق الذى يجب أن يسلكه الناس هو مشكلة المشاكل فى القرى ، فعمد « لى تشون » الى توضيح هذا الصراع حول المشكلة .

اما « العجوز منج كوانج - تاى » فهى قصة منج العجوز وابنه ، وهما حوذيان قديمان يعملان فى جمعية تعاونية ، وقد غضب الأب غضبة جامحة حين علم ان ابنه تين - هسيانج - بتأثير نصيحة أمه - قد حمل الى البيت ما تبقى من علف الماشية ، ففضح ابنه علانية وعنفه أشد تعنيف ورفض أن يمنحه صوته فى الانتخاب ، وعندئذ أدرك الابن خطأه وانه لم يكن يجدر به أن يتصرف فى الجمعية التعاونية كما كان يتصرف مع سيد الأرض فى العهد السابق ، وندم هو وأمه على ما اقترفاه . وينج العجوز ليس الا صورة رفيعة للفلاح الأمين المنكر لذاته ، الذى قد يفوق حبه لمزرعته الجماعية حبه لأسرته ، وأهم ما يلاحظ فى هذه القصة هو أنها أثارت مشكلة اخرى أشد خطرا وهى حاجة الفلاحين الى التفكير الجماعى لكى تنجح المزارع الجماعية ، ولكن ذلك كان أمرا صعبا بالنسبة للفلاحين الذين اعتادوا قرونا عدة على العمل

فرادى كل لصـــالحه الخاص فى قطعة الأرض الصغيرة التى يملكها .

وتوضح قصة «عندما يذوب الجليد» الصراع بين وجهتى نظر هامتين عنـد الفلاحين ، فنجد فى هذه القصة القصيرة « تشنج ته ـ منج » رئيس مزرعـة « العلم الأحمر » التعاونية يخلص كل الاخلاص للقضية الاشتراكية ، وينزعج اشد الانزعاج لأن صديقه القديم « وى هو ـ تو » الذى حارب معــه بقوة وتصميم فى سبيل الاصلاح الزراعى ، يعمل لصالحه الخاص بعـد أن صـار رئيســا لجمعيـة « الضوء الأحمر » التعاونيـة . ويشـتد النقـاش بين الصديقين وبعنف ، وأخيرا يدرك «وى» الخطر الذى يتهـدده لانصياعه لأفكار الرجعيين وسوء اسـتغلاله لجماعته ومحاولة كسب منافع شخصية .

ولعل النزاع الذى تعرضه هـذه القصص يكشف لنا عن نمط جديد من الحياة التى يتجه اليها الفلاح الصينى فالرجال من أمثال : سونج تونج ـ شان ، ومونج العجوز ، وتشـنج ته ـ منج ، يبذلون قصارى جهـدهم لاجتـذاب الفلاحين الى الأخذ بالمبادىء الاشتراكية والسير فى طريق التعاون . فهم يحبون العمل التعاونى أكثر من حبهم لحياتهم ، ويدركون أن التعـاون هو الوسـيلة الوحيدة للتغلب على الفقر فى القرى .. انهم رجال من طراز جديد لم نعهدهم قط فى الآداب الصينية ، وهم يختلفون اختلافا جوهريا عن الفلاحين القدامى المغلوبين على أمرهم ، كما يختلفون عن ابطال الفلاحين الذين كانوا فى القـديم يغـامرون بحياتهم فى محاربة التوسع الاستعمارى ضد شيانج كاى ـ شك وسادة الأرض الذين فتكوا بهم ، لأن أولئك الرجال يقومون بثورة جـديدة لاقتلاع الأنانية وفكرة الملكية الخاصة . انه كفاح فى وقت السلم ، ولـكنه مع ذلك كفاح أشد قوة وأكثر تعقيدا .. ان « لى ـ تشن » لم يتجاهل هـذه المشكلة بل بذل جهـده فى عرض هذه المتناقضات فى الحياة ، وهذا هو السر الأساسى فى نجاح أعماله الأدبية الأولى



أما كتاباته فى المرحلة التالية فخير ما يمثلها مجموعة قصصـه المسماة « عندما يزهر البردى » ، وهى مكونة من أربعة عشر قصة قصيرة كتبها بين عام ١٩٥٥ والنصف الأول من عام ١٩٥٧ وكلها تقريبا تعالج الحياة فى القرى وان كانت موضـوعاتها أكثر تنوعا بحيث تغطى مظاهر من الحيـاة أوسع مدى وتكشف عن تقـدم هائل فى تصوير الخصائص والمميزات . وقلما نجـد قصة منها تقع فى أكثر من ست أو سبع آلاف كلمة ، تصور كل منها قطاعا أو شريحة من الحياة ، أو تحلل شخصية من الشخصيات ، فنجد فيها الشبان والفتيات والأطفـال والمسنين يعملون جميعا فى بناء وطنهم ، وتدهش لوطنيتهم وتفانيهم فى خدمة الشعب ، ولتفاؤلهم ،

وحماستهم للارتياد وروح الكشف . وبالرغم من أن معظم هذه القصص بالغ القصر الا أنها غنية عميقة يغلب عليها اللون المحلى القوى ، ويترك ما تحتويه من فكاهة وخصب أثرا قويا على ذهن القارىء .

وتعد قصة « الزوجة » من اروع قصص هذه المجموعة ، فبطلتها قد انخرط زوجها في سلك المتطوعين الصينيين في الحرب الكورية ضد الأمريكيين ، وتوفرت هي على خدمة أمه ( حماتها ) . وعندما تلقت خبر مقتله في ميدان الحرب أخفت حزنها عن حماتها العجوز اذ كانت شديدة التعلق بولدها ، بل أخذت تصطنع خطابات تدعى أن ابنها أرسلها من ميدان القتال في كوريا . وأخيرا عرفت الأم من السلطات باستشهاد ابنها ، وان الخطابات التى وصلتها انما كانت من تدبير زوجته .. وهنا تحاول الأم تخفيف حزن الزوجة .. انها نزعة انسانية سامية التى دفعت كلا من المرأتين الى ذلك المسلك تجاه الأخرى وهى تكشف بوضوح عن العلاقات الجديدة بين الأفراد وعن الايمان بمستقبل أفضل .

ولقد شهد عام ١٩٥٨ القفزة الاشتراكية الكبرى لبناء الصين الجديدة حين عمل الشعب دون كلل على تحقيق التحول الزراعى والقضاء على الفقر والجهل ، فنشر «لى تشون» مجموعتين من القصص في النصف الثانى من سنة ١٩٥٧ وسنة ١٩٦٠ على التوالى تكشف كل منها عن حماسة الأهلين لبناء القرى في ذلك الوقت . وبلغت كتابات لى تشون نج غاية النضج ـ وان كانت تبدو غاية في البساطة ـ ونجحت في حفز الناس واستثارة شعورهم نحو « التعمير والانتاج » والتنافس السليم بين الأفراد . وتعد قصة « الجوادين الهزيلين » من أجود القصص ، وهى تحكى قصة مرب للجياد اشترى جوادين هزيلين بثمن بخس وتعهدهما بالتطبيب والتغذية حتى أصبحا قادرين على العمل كبقية القطيع .

أما « نسيم الربيع » فتعالج قصة جندى سرح من الجيش فكرس بقية حياته على بناء مسكن للعجزة والمسنين الذين ظلمهم ملاك الأرض قبل التحرير ولم يعبأ بتهكم جيرانه وسخرية زوجته وملأ هذا المسكن بالمرح وبعث الحماسة بين سكانه حتى يجد هؤلاء الذين لم يعرفوا طوال حياتهم غير الفقر ملجأ آمنا لهم في نهاية أيام حياتهم . ثم قصة « المفاتيح » التى تعالج حياة أسرة كثيرة العدد في ظل الحكم الشعبى . وكان معظم أفرادها العشرين يعملون ، ولكن رب الأسرة الذى كان يحيا حياة بليدة ويستولى على أجور أفراد الأسرة الآخرين وما يكسبه أبناؤه وحفيداته مما أثارهم وحفزهم الى القضاء على هذا الاقطاعى والنظام الأبوى البغيض ، لبدء حياة مستقلة جديدة .

وتدور جميع هذه القصص في ظاهرها حول حوادث قليلة الأهمية ، ولكنها في الحقيقة ذات دلالات عميقة ، فهى تحكى قصة النمو في مجتمع جديد ، والعلاقات الجديدة بين الأفراد والأنماط المستحدثة في العمل ،

والاتجاهات الجديدة فى الحياة . ولما كانت هذه القصص تكشف عن انحلال القوى القديمة وتقدم القيم الاجتماعية الانسانية فانها تتضمن روحا ثورية تعكس طابع العهد الجديد وتوحى الى القراء بالسير قدما .

وتتضح هذه المميزات فى « قصة لى شوانج ـ شوانج » وهى عن نساء قرويات ، كن أبان القفزة الكبرى بطلات لكثير من القصص ، وقد قال عنهن « لى تشون » انهن النساء اللائى كن يخجلن من سنوات قلائل من التحدث الى الغرباء ، فأصبحن بطلات عاملات يعلن الحرب على الطبيعة ، وأصبحن محاربات يعملن دون توقف من أجل الثورة ومن أجل المجموع . وهذا عتق حقيقى للانسان من ربقة العبودية وتحرير لقوته وعقله ... ولقد قابلت أثناء اقامتى فى الريف نساء كثيرات من هذا الطراز من النساء اللائى يميزن بالمثل العليا والروح النبيلة .

ولقد تأثر ببعضهن تأثرا بالغا حرمه النوم فى تلك الليلة ، فعكف على كتابة هذه القصص الطريفة . وبطلة « قصة لى شوانج ـ شوانج » امرأة قروية شابة أوحت اليها القفزة الكبرى بالعمل الدائب خارج بيتها لصالح المجموع ، وأوقفت جهدها على تحقيق مصالح الشعب بالرغم من اعتراضات زوجها « هسى ـ وانج » الذى كان عاملا ماهرا طيب القلب ، ولكنه كان يحمل أفكارا ( أبوية ) من حب السيطرة تدفعه أحيانا الى الاستبداد بزوجته ، وهو فى نفس الوقت لا يعمل على نفع طبقته من العمال وبعد مصادمات كثيرة بينه وبين زوجته اعترف بخطئه ، وأدرك سداد رأيها وكفايتها وهما الصفتان اللتان لم يفطن اليهما من قبل .

وليست لى شوانج ـ شوانج الا امرأة قروية عادية تقوم بالأعمال اليومية العادية التى تقوم بها سائر القرويات ، ولكن روحها المتوثبة ورفضها الخضوع للمصير الذى فرضته عليها التقاليد الوراثية ، وشجاعتها فى التمرد على زوجها ، وأسلوب حياته ، كل ذلك طبع أخلاقها بالسمو والنبل ، وجعلها ذكاؤها ونشاطها وصراحتها وحماستها المرأة الشابة الجذابة التى تلائم عصر البناء الاشتراكى فى الصين .

وقصة « بذر الحبوب فى السحاب » تدور حول فتاة تدعى هسياو شو ـ يانج » ، تذهب الى المدينة لدراسة الظواهر الجوية ، وعند عودتها الى قريتها تقيم محطة تسجيل لهذه الظواهر لينتفع بها الشعب . ولما كان اعدادها بسيطا ومعلوماتها محدودة وبحاجة الى

التدريب فقد سخر منها بعض المحافظين ولكن شو ـ يانج ثبتت على رأيها واستطاعت بتشجيع القيادة الشعبية ومعاونة أصدقائها أن تنجح فى اقامة المحطة الصغيرة التىأفادت فى الزراعة . فهذه الفتاة مثال للفتاةالصينية الحديثة المولعة بالدراسة العلمية .

واتسعت دائرة لى تشون بتقدم الصين الجديدة فى مضمار الرقى ، ونستطيع أن نرى من كتاباته التى نشرت فى السنوات الأخيرة ، أنه عكف على معالجةالموضوعات الجديدة ودراسة الظواهر الجديدة ، ومن ثمة فان قصة « عصيدة حبة الشعير » تعد تصويرا موجزا لطيفا يصف كيف يتعاون عمال المدن مع الفلاحين باقامة أعمدة التلغراف فى القرى ، وتكشف عن الروابط الوثيقة القائمة بينهم . أما قصة « مطر فى غير موعده » فتدور حول تجربة طالب صغير يذهب للعمل فى الريف ؛ فهذه الموضوعات التى يطرقها لى ـ تشون تبشر بمستقبل أدبى زاهر .

وقد صرح « لى تشون » مرة قائلا :

« عندما يتحد الكاتب بأفكاره وشعوره مع الجماهير يستطيع أن يستكشف الحزم والتصميم والصفات النبيلة التى تتسم بها الطبقة العاملة » وهو نفسه يعيش بين الفلاحين مصداقا لفكرته . وبفضل قوة ملاحظته ودقتها ، وتحمسه لبناء الصين الاشتراكية الجديدة ، والتحول الاشتراكى فى الريف ، نراه يضع أصبعه دائما على نبضات هذا العهد ، ويستطيع دائما انتاج أعمال أدبية جيدة تعكس معالم روح هذا العصر الحديث ،كما أن أسلوبه واضح موجز وحى . واقتران كل هذه الصفات مع المامه التام بلغة الحديث الدارجة ، وروحه المرحة يضفى على كتاباته اشراقا وصفاء ويوسع دائرة قرائه .

في وقت ما من عام ٥٠٠٠ كان احد الشبان في سن الحادية والعشرين يحاول الدخول الى معمل مهيء بكافة الأدوات والأجهزة . وكان يسرع خطاه نحو كهل في الخامسة والخمسين يقف أمام مجموعة من الحجارة وأصناف من الرمال .

وأذوق طعم الوجد من رضابك .
فألق بي عند أعتاب خطوك .
أو في هاوية خراب .
أنا صنيع هواك .

ــ وبأي لغة كانت هذه القصيدة ؟ .

ــ انها من عصر يبعد عنا بمائتي الف

# العالم في سنة

بقلم : عبد الفتاح الديدي



الشاب ــ لقد وجدتها يا سيدي .

الرجل ــ ما هذا الذى تقوله ؟ لعلك لا تريدني ان أصدق .

هذا الزعم . قصيدة غزل من رجل في امراة اتريدني أن أصدق ذلك .

ــ بل أريد أن تسمع هذه الأنشودة .

ــ اسمعني .

ــ أواه من حب لا يفتأ يستنهض قواي .

نحو المجد ونحو أي شيء ترغبين فيه يا حبيبتي .
لقد عشت أيامي .. أيامي كلها .
أتملى النور من عينيك .
والظلام من شعرك الفاحم .

سنة في تقديري وهي مكتوبة بلغة كانوا يستخدمونها للافاضة بحالات الشعور الوجداني المفعم اسمها الايطالية .

ــ وأين وجدت خطوط هذه اللغة ؟

ــ في بئر عند حافة نهر الفركور .

ــ أهو ذلك النهر الممتد في قلب قارة شيشتر ؟ .

ــ نعم يا أستاذي .. الا أستحق الآن شهادة الدكتوراه . ان نظريتي صائبة مائة في المائة . لقد كان الناس في عصر ما قبل ظهور الآدمي الحالي يستخدمون لغات متعددة ويتغنون بمحاسن أنثى لا تمشي على أربع وتفهم احيانا ما يقولون . وكان الرجل هو الذى يطارد المراة ويحاول اقتناصها . انها

شيء آخر سوى أنثى هذه الأيام التى تطارد الرجال وتقتنص أجود الذكور وتتغنى بمحاسنهم .

ـ تقول ان الناس كانوا يستخدمون لغات متعددة ؟ .

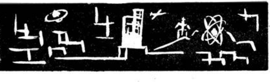
ـ أجل يا سيدى . . كان عندهم وقت كاف لدراسة هذه اللغات سنوات طويلة من عمرهم حتى يتكلموا بهـا فى بقاع متباعدة . لم يكونوا يحسون بان الوقت شيء هام . آه . . يا أستاذى . . كم أحلم بعالم مثـل عالمهم . كم أتمنى أن تكون لى حبيبة احاول نشدان هواها ورضاها . ان ليمبة التى عندنا فى البيت تستولى علينا بمجرد الدخول عند الظهر واحـدا واحـدا . . أنا وأبى وأخى وصديقى . . ولا يفلت من براثنها سوى عامل البيت . وحينما سألتها يوما لماذا لا تحاول مداعبته قالت : انه يستطيع بازراره الذرية أن يجعل شقتنا فى أعلى طابق ويسقط مكانها شقة من الطابق الأربعـين أو الخمسين . وهى تشعر عادة بالدوار بعد الدور العشرين .

ـ ولا تريدنى أن أحسدك على هذا النعيم . لقد تركت باب بيتى مفتوحا منذ سنتين بعد وفاة زوجتى شمناس ولم تطرق بابى مع ذلك مخلوقة واحدة من الأنثيات . يقولون ان الحكومة جادة فى استحضار نساء من ساحل المرمر . لقد بدأت الحكومة تعلن عزمها الجاد على حل أزمة النسـاء وسوف تغرى نساء ساحل المرمر بمزايا عديدة فى أقليمنا ورجالنا .

ـ بل تكمن المشـكلة يا سيدى فى حقيقة الاصـلاح الذى ننشده . ان الوسائل التى نتبعهـا غير جديرة بان توصلنا الى شيء . سوف أعالج هذه المشكلة أمام تلاميذى بعـد التخرج . لابد من اجراء تعديل آساسى فى هـذه اللغة التى نتكلمها . انها ليست لغـة شاعرية بالمرة . يريد أن ننشـد وأن نتغنى بها . لا يكفى أن نقول كل ما نريده بالحسـاب الجبرى ورمـوز التعبير المعماى . ألست معى فى ان ايطاليا كانت بلادا رائعة ؟ ألا تعتقد أن الحياة كانت شيئا عظيما فى تلك الأيام ؟ .

ـ كن جادا يا بنى . فليس لدينـا وقت لمثل هذا العبث الصبيانى . انك لا تتماشى مع التقاليد العلميـة التى وضعها فنطاؤوس . لقد قال فنطاؤوس فى آخر سبع كلمات من كراسته الزرقاء :





عيشـوا بغـير أن تنظروا الى الوراء البشع .

ــ ولكنه لم يكن بشعا يا أستاذى .

ــ نعم كان بشـــعا .. ألم يكونوا يتشاجرون من أجل الغذاء . انهم تحت مستوى الآدمية . كانت الشعوب تتقاتل من أجل طعـام اسمه الخبز . وتاريخ هذا الطعام موجود فى المتحف الهانسيكى أمام احدى عيناته .

ــ ولكننا نحن الآن أيضا تحكمنا خلائق غريبة عن جنسنا الآدمى العالى . ولو كنا نســتخدم الشعر لاستطعنا ان ننعى حيوانا آخر أكثر الفة من هذا الجنس المسيطر على كل تصرفاتنا . ان الآدمية تتطور بالغنـاء . وهكذا قامت حضارة الأقدمين المندثرة .

ــ وماذا أفادت هذه الحضارة التى تزعمهـــا ولا دليل لك عليهـــا الا من قصاصات تسميها شعرا . كيف توقفت فجاة ؟ .

ــ هنـاك سر خطير لا أجرؤ على أن أنطق به أمامك الآن .

ــ وهل تخشى أن تبوح لى باعتقادك ؟

ــ بل أخشى أن أصـدمك بفروضى الوهمية .

ــ قلها اذن . ولنر ..

ــ انى أحس بان وراء كلمات هؤلاء النـاس تصورات ادق مما نعرفه نحن الآن .

ــ كيف ؟ ماذا تعنى أدق ؟ .

ــ لا أعنى ادق من حيث الصــحة والخطأ وانما أعنى أدق من حيث سريانها فى الضمير . انهم لم يفتك بعضهم ببعض من أجــل الخبز . لقد تحركت الكرة الأرضية حركة بعيدة حتى التقطها مدار كوكب الفيلوسى الـذى تدور حــوله الآن .

ــ انك تقول كلاما خطيرا يابنى .

ــ ان عندى دليلا على أن نهارهم كان أقصر من نهارنا وان ليلهم لم يكن يتعدى بضعة سويعات .

ــ أوجدت هذا التقويم فى حفائرك ؟

ــ بل وجـدته فى جملة لفائف كانت مخزونة فى بيت قديم اسمه المصلى .

ــ وما المصلى يا بنى ؟.

ــ انه بيت لجمعية سرية كانت تؤمن بوجود كائن يتصرف فى معاشهم من غير



أهل الأرض . وكانت بينها وبين ذاك الكائن مراسلات . وعثرت على رموز تشير الى وقت التقاء أعضاء هذه الجمعيات بعضهم ببعض من أجل مراسلة ذلك الكائن . ولم تكن الساعات تتعدى اطلاقا الساعة الرابعة والعشرين .

ـ الساعة الرابعة والعشرين . هذا مستحيل . ان ذورة الكرة الأرضية تتم الآن فى ستة وخمسين ساعة . أخشى أن تكون مخطئا يا بنى فى استنتاجاتك .

ـ لقد حدث شىء مذهل حقا يا أستاذى . هل تريد أن تسمع بقية كلامى .

ـ اننى أحرص ما أكون على سماعه . ولكن قل لى أولا عن السبب الذى يدفعك الى الشك فى أن تكون الأرض قد تحركت عن مدارها الأصلى .

ـ لقد حدث شىء مذهل . ان هذه اللفائف تشير الى أن المراسلات بين الناس وبين ذلك الكائن قد احتوت مطالب عديدة منها شىء اسمه ...

ـ ما اسمه يابنى .

ـ اسمه الحياة الثانية .

ـ أهذا صحيح ؟ .

ـ بل اكيد .. طلبوا اليه أن يجعلهم يعيشوا من جديد بعد موتهم .

ـ وتظن أن هذا الكائن هو الذى ختم حياتهم على هذا النحو .

ـ بل أظن أنهم أنفسهم لم يطيقوا صبرا من أجل الخبز فاتوا بفعلة نكراء هشمت كل معالم حضارتهم وهزت الأرض هزة عنيفة قذفت بها الى مدار فيلوس الذرى . وانتقالها الى مدار فيلوس الذرى معناه اختلاف جوهرى فى طبيعة الحياة ذاتها . والعجيب أن الأطفال عندنا الآن يلعبون باللعب الذرية التى لا أثر لها البتة فى معالم الحضارة القديمة . ومعنى ذلك أن الانسان فى الحضارة القديمة لم يعرف الذرة . اننى اريد هنا أن أقطع برأى فى المشكلة .

ـ أشهد أن كلامك سيجعلنى موضع سخرية زملائى الحكام فى امتحانك النهائى للدكتوراه .

ـ بل ستفخر بى عندما أعلن أمامهم وأمامك أننى بفضل تشجيعك حصلت على دليل قاطع بان الأرض لم تكن تدور بتأثير جاذبية ذرية كما هو الأمر الآن .

ـ وبأى جاذبية كانت تدور يا بنى ؟ لا احسبك تصدق ما تقول ؟ .

ـ لا أدرى يا أستاذى .. ولو عرفت لقلت لك ذلك على التو . لا أدرى وهذا هو ما يعتصر ذهنى الآن . ان الحضارة القديمة لم تكن تعرف الذرة . وان ما يشغلنى الآن هو معرفة تلك القوة التى جعلت الأرض مسحوبة نحو كوكب آخر أكبر منها . فهل حدث ذلك بتأثير ذلك الكائن الذى كانوا يراسلونه ؟ لا ادرى . ولكنى أعود فأشك من حين الى حين فى ذلك . وألا فماذا يدفعه الى تخريب تلك الحضارة وتدميرها قبل انتقالها الى المدار الجديد . انهم هم

انفسهم المسئولون عن التدمير الذى حدث بدافع الخوف على الغذاء . لقد كانوا بؤسـاء فى حرمانهم الفظيع من الأطعمة الذرية .

– الآن أستطيع أن أفكر معك قليلا . ان استخدامنا للذرة وقواها وطاقاتها قديم . ولكنه يبدأ فجأة فى فترة محددة هى بداية حضارتنا الجديدة . ولا يمكن أن يبزغ فى سماء العلم استخدام مفاجىء للذرة . نحن نستفيد من الذرة فى كل شىء الآن . نأكل غـذاء ذريا ونعيش حضارة ذرية كاملة . ولكن كيف تنبهنا الى ذلك .

– لقد تنبهنا الى الذرة منذ فجر حضارتنا بتأثيرها على الضوء واشعاعها فى كل مكان واحتمائنا منهـا كما كان الأقدمون يحتمون من ماء يهبط عليهم من السماء اسمه المطر .

– ولكن أعتقد يا بنى أن النقلة الذرية من عالم غير ذرى الى عالم ذرى قد سبقته تمهيدات ذرية . هل تعتقد أنهم عرفوا الذرة ؟ .

– هل تريد أن تقول انهم عرفوها وان هذه المعرفة قد اذهلتهم بسرها الكبير ؟

– بل أريد أن اقول لعلهم حاولـوا اللعب بها فى عالمهم الذى لم تحـكمه قوى الذرة فانفجرت عنـدهم حتى أتت على كل شىء .

– فعلا . . فعلا . . يا سيدى . . الآن وضح لى الأمر . . لقد عرفوا الذرة فى عالم تحكمه قوى جذب مغاير لمنسوب القوى الـذرية . وتحطمت جبـالهم وبحارهم ووديانهم بتأثير انفجارها لعدم خبرتهم بها .

– بل لعـدم توافقها مع عالمهم الذى عاشوا فيه . انى أهنىء نفسى واهنئك يا بنى باكتشافك . لا تقل لأحد هـذه الخطوات قبل أن تذيعهـا فى رسـالة الدكتوراه . سـتكون رسالتك فتحا فى تاريخ الأرض . ستقول شيئا من شأنه أن يغير مفهوم الحضـارة عندنا الآن . لقد كان الانسان القديم فى بداية اكتشافه للذرة عنـدما انفجرت فى يديه . ان الحضارة القـديمة حضـارة تليـدة مذهلة .

:

– انها لم تكن كذلك الا بفضل الشعر والحب والغناء . ولا بد أن سحر الحب الذى لا نعرفه الآن كان من بين نطـاق الجاذبيـة الذى عاشت فيـه الأرض حينذاك . ان وهج ذاك الحب لم يكن وليد الطـاقة الذرية . انه كان وليد الجاذبية المجهولة عندنا الآن والتى جعلت للأنثى القديمة مكانتها عند أهل الأرض فى تلك الأيام .

– ولكن كيف كان شكل الأنثى فى ذلك الوقت يا ترى ؟ .

– كانت كالـرجل تمـاما لأنه كان يحادثها فى الليل وهـو رافع رأسـه ويتهامس معها بنغمات العاشق الولهان

من أجل استرضائها . ولم تكن تهجم عليه وتقضم لحمه لاستخراج حبيبات لقاحه كما تفعل الآن . وكانت تتفرس بعيونهـا في عيون الرجل ساعات طويلة من الحلم والعطف والمودة .

ـ ولكن كيف كانوا يجدون الوقت لذلك كله خلال اربعة وعشرين ساعة ؟ .

ـ ان هذا يحيرنى حقا . ولكنهم كانوا محدودى العيش ومحدودى المجال فلم يفكروا فى غير ما كانوا يجدونه بين أيديهم . أننا نقضى شهورا فى التصييف على الكواكب الأخرى . وننتقل من الأرض الى كل الكواكب القريبة والبعيدة اما هم فقد عاشوا مأسورين بتلك الجاذبية التى كانت شديدة الحنو عليهم والتى كانت تجمعهم فى حياة قصيرة لا يعرفون معناها . لقد كانوا بؤساء حقا . فلم يعرفوا شيئا سوى عالمهم الخاص . واستأثرت بهم تلك الجاذبية المجهولة ...

ـ لقد كانت اذن جاذبية شريرة .

ـ ولكنهم سعدوا بها حتى ذلك اليوم المشئوم الذى عرفوا فيه سراً من عالم غير عالمهم .

ـ أما كان يمكنهم أن يتحكموا فى ميولهم ..

ـ هذا هو الجهاز يسجل ذبذبة تشير الى اقتراب أحد من الباب . اسمح لى يا سيدى أن أسكت قليلا عن هذا الموضوع .

ـ انه طوطوان تلميذى الذى ذهب يستكشف كوكب النائدو . ها أنت ذا قد عدت يا طوطوان من رحلتك بعد غيبة طويلة . كيف حالك يا بنى ؟ .

ـ اننى على خير حال يا سيدى الأستاذ . اننى مبتهج جدا . لقد استطعت أن أحقق نصرا علميا هاما .

ـ ما هو يا بنى ذلك النصر . تكلم ولا تخش شيئا فان زميلك هلهال ليس غريبا عنا .

ـ نهارك سعيد يا هلهال .

ـ نهارك سعيد يا طوطوان . أطلعنا على ما وصلت اليه .

ـ اكتشفت يا سيدى الأستاذ قوى جاذبية جديدة من كوكب بعيد عنا . انه كوكب لامع لا شك . وهو بعيد جدا عن كوكب النائدو الذى عشت فوق ظهره ستة أشهر كاملة . وبالتالى فهو اكثر بعدا عن الأرض . اننى أذيع سرا خطيرا الآن يا سيدى . فبعض الحديد هناك يجذب الحديد الآخر اليه بمجرد اقترابه منه . اننا فى بداية عهد جديد يا سيدى لاستخدام نوع آخر من الجاذبية . انها جاذبية تلقائية تصدر عن بعض الأجسام . انها الحب يا سيدى الذى عرفته حضارة الأقدمين ولم يعرفه الانسان الحديث .

ـ لا تفزعنى يا طوطوان ببشائر العهد الجديد .

ـ هل سمعت يا سيدى الأستاذ . أن طوطوان يتحدث عن الحب .

ـ نعم يا هلهال . سوف تشهد عصرا جديدا نعارض فيه مناهج فنطاؤوس التى حكمت أطوار العلم حتى الآن . سنتذوق الخبز ممزوجا بطعم لاذع له نكهة وأريج . سنعرف قوى جاذبية أخرى سوى جاذبية الذرات . سوف نستشعر التحاب الذى كان يشغل الانسان القديم .

ـ اننى أخاف على حضارتنا من هذه البشارة يا أبنائى . قد لا نعرف كيف نسوس هذه الجاذبية الجديدة . انها من عالم غير هذا العالم . وويل لنا ان لم ندرك خفاياها على عجل . سننحدر عند أعتابها كما فعل الأقدمون بالذرة . هذا التحاب لم أعرفه ولم يعرفه أبواى . وها أنتم تعرفونه الآن . اننى أشارك معكم بكل قواى فى هذه الجريمة الجديدة . ولكن دعونا نتأنى قليلا فى معرفة خباياها . لعلنا نصل بها الى عالم آخر دون أن نفتك بحضارتنا القائمة . ترى الى أين نتزلق بأرضنا فى المرة القادمة .

ـ ماذا تقول يا سيدى الأستاذ .. نتزلق بأرضنا ..

ـ لا تخش شيئا يا طوطوان . فقد تحدثت مع الأستاذ قبل أن تجىء فى موضوع ستعرفه فيما بعد .

ـ أما الآن يا أبنائى فاحذروا منهج فنطاؤوس العلمى . منذ اليوم لا تتبعوا نظرياته . وأقول لكم هذا المبدأ الجديد : عيشوا واستلهموا العبرة من الوراء الجميل الحنون .



# ليل وحنان

## بقلم : سعد حامد

انتهى كل شيء كانه كابوس مروع .. وانفض كل من حولى .. وأطفئت الأنوار .. وبقيت وحدى ..

انصرف اصدقائى وزملائى ومعارفى عائدين الى بيوتهم .. ليأكلوا ويشربوا ويداعبوا أطفالهم ويضحكوا ويتذوقوا رشفات من الحب والحنان بين افراد اسرتهم ، وكان شيئا لم يحدث لعزيز لديهم ، ولعلهم سرعان ما نسوا ان حيـاته قد تقوضت وأصبحت حطاما .. ولكن هل انتهى الكابوس حقا .. كلا وألف كلا .. لقد بدأ الكابوس بالأمس ، ولا أظن اننى سأستيقظ منه حتى نهاية العمر ...

كانت الليلة من ليالى الشتاء الباردة ، ولذلك فان المعزين انصرفوا مبكرين فاضطر المقرىء أن يختم قراءته ، وكانت الساعة حوالى الحادية عشرة مساء ، وحمل « الفراش » الكراسى والسجاجيد ، واطفأ الكهربائى المصابيح ، وحملا أشياءهما وانصرفا ، وخيم على الشـارع الساكن والبيت الحزين ظلام كثيف ..

والضاحية كلها .. حلوان .. ترقد فى الظلمة المعتمة ، وفى هذا الشتاء القارس يشملها سكون عميق وصمت كأنها خالية من الحياة والأحياء . الظلام غامض رهيب كذلك الظلام الكثيف الذى اكتنف حياتى من الأمس .. أجل لقد انتهى كل شيء ، وانصرف كل لشأنه ، وبقيت وحيدا كسير القلب محطما أدور فى شقتى الصغيرة مضطربا يائسا تعسـا كحيوان حبيس استرجع سلسلة لا نهاية لها من الذكريات ..

اننى لا أصدق ابدا ان كل شيء قد انتهى بهذه البساطة ، وأننى اصبحت وحيدا ضائعا فى هـــذه الدنيا الواسعة .. لقد ماتت المرأة الوحيدة التى شاركتنى حياتى ، والتى كانت كل شيء لى فى هــذه الدنيا .. ماتت زوجتى بالأمس وشيعنا جثمانها صباح اليوم الى مقرها الأخير ...

لم يعد لى بعدها شيء يجعلنى احرص على الحياة أو امنحها شيئا من اهتمامى . كانت هى كل شيء فى هــذه الحياة .. كانت أهلى وأصـــدقائى وأولادى ، فلم تنجب أطفـالا منذ تزوجنا منذ حوالى عشرين عاما ..

جئت من قريتى فى مستهل الشباب شابا ريفيا خجولا ، وقد غادرت تلك القرية وعيناى مغرورقتان بالدمع . كنت حزينـا على فراق تلك الأماكن الحبيبـة التى عشت فيها طفولتى وصباى ، ولم أكن

قد فارقت أهلي من قبل ، فكان الفراق قاسيا على قلبي فأحسست به يتمزق في صدري والقطار يتحرك بي مغادرا أهلي وقريتي ، ودعوات أبي وأمي ترن في سمعي .. لكن كان لابد من هــذا الفراق لأتم تعليمي في القاهرة .

والتحقت باحــدى المدارس الفنية المتوسطة ، وعشت في المدينة في بيت يملكه رجل طيب أصبح بمثابة الأب لي ، فقــد أحاطني وزوجته الطيبة برعايتهما وحنانهما ، وعطفا على غربتي ووحــدتي في المدينة المزدحمة ..

كنت أقضي وقتي بين المدرسة والبيت لا أكاد أعرف من القــاهرة سوى الحي الذي به مدرستي ، وكنت أقضي أوقات فراغي في شقة صاحب البيت وزوجته الطيبة .. وهناك وقع بصري على ابنتهما ، وتبادلنا ودا صافيا نقيا ،واحتلت الفتاة في قلبي مكانا لم تشغله أنثى من قبل ..

وعندما أنهيت دراستي وتوظفت لم أفكر في مغادرة القاهرة ، وخطبت تلك الفتاة وتزوجتها .. كنت أتقاضى راتبا صغيرا ، فكانت خير زوجة رأيتها في الوجود . كرست حياتها من أجل راحتي وسعادتي .. رضيت بالقليل ولم تشك أو تتذمر حينما كانت تمر بنــا أيام عسيرة ، وصبرت واحتملت كل جهد في سبيل اســعادي ، وعندما فكرت أن أواصل دراستي حتى أنال شهادة عالية شجعتني ووقفت الى جانبي تحفزني على المضي الى الأمام . كانت تسهر الليل الى جانبي تصنع لي أقداح الشاي والقهوة لتساعدني على السهر ، ولم تكن تأوي الى فراشــها حتى أفرغ من استذكار كل دروسي .. كانت المصباح الذي أضاء لي طريق حياتي .

وفزت بشهادتي العالية ، وأصبحت أحمل لقب مهندس ، وزاد راتبي ، فوفرت لها جميع أسباب السعادة .. كانت تربط بيننا عاطفة حب قوية .. كنت كل شيء في حياتها ، وكانت كل شيء في حياتي . كان الحب يضم عشنا الصغير تحت جناحيه ، ولكننا في بعض الاحيان كنا نفتقد السعادة ..

كان يحزنني احيــانا ان ارى في عيني زوجتي وهي ترمق أطفال صديقاتها أو أطفال الجيران نظرات من الحزن الدفين ، ولم أكن بحاجة الى ان تصارحني بأن أقصى امانيها أن يكون لها طفل ، فان الأمومة هي أعظم أماني المرأة ، وكنت ايضــا أحب الأطفــال لكن اهتمامي بدراساتي وعملي شغل كل وقتي فلم تشغلني هذه الفكرة ، أما هي فكانت كثيرا ما تبدو حزينة رغم ما كنا نعيش فيه من تآلف ورخاء ، لكنها طوت احزانها في صدرها ، ولم تصارحني بشيء ، وكان حزنها هذا يحز في نفسي كثيرا ..

وقد ترددنا على بعض الأطباء ، وكانت نتيجة الفحص أن السبب مني ، فهونت على الأمر ، وحاولت أن تبدو غير مكترثة لكنني كنت على يقين من أنهــا كانت تتألم في صمت ، ومرت بنا الأيام ، ولم يكن ينقصنا سوى وجود طفل يفيء بسمائه بيتنا ويشع بضحكاته روح السعادة في حياتنا ..

وصادف يوما أن دخلت على زوجتي وهي منفردة في احــدى حجرات الشقة ، فرأيت الدمع يلمع في عينيها ، ولما سألتها عن سبب بكائها زعمت لي أنها تحس ببعض الضيق الذي لا تستطيع أن تعزوه

الى شيء سوى اجهـــاد فى الأعصاب .. لكننى لم أصدق كلامها فقد كنت أعلم السبب الذى يحزنها ويقوض سعادتها ، وقد تكرر هذا الأمر أكثر من مرة ، فصارحتها فى حنان ورفق باننى أعلم سبب حزنها وأننا يجب أن ننفصل ، وعسى أن يوفقها الله الى زوج آخر يمنحها الطفل الذى تصبو اليه والذى تتم به سعادتها ، لكنها أجهشت بالبكاء وهى تستمع لى وأقسمت أنهـــا لو وضع الرجال جميعا فى كفة ميزان وأنا فى كفة لكانت كفتى هى الراجحة لديها ، وانني وحدى مصدر سعادتها وملتقى آمالها أما تفكيرها فى الأطفال فهو حماقة ستكف عن التفكير فيها من الآن ..

وقد فعلت حقا ، فلم أعد أراها دامعة العينين او حزينة ، وكانت تبدو ضاحكة سعيدة لتسعدنى ، وأصبحت تحوطنى بحنانها ورعايتها ، وكأننى طفلها الكبير،وعشنا سعداء كأننا عاشقان صغيران يمرحان فى جنة الحب حتى دهمها المرض ..

واستدعيت لها أشهر الأطباء ، وكرست كل دقيقة من وقتى لخدمتها وأشرفت على شئونها بنفسى ، واستحضرت لها الدواء من الخارج بالطائرة ، وسهرت الى جانب فراشـها الليالى الطويلة ، وقلبى يرتجف فى صدرى خوفا عليها ، ولكن الأجل المحتوم كان فوق كل شيء ..

وفى لحظة كلمح البصر انتهت حياة شريكة حياتى الغالية ..

وفجأة وجدتنىوحيدا ، ضائعا ،كسير القلب محطما ، وقد انصرف كل الناس من حولى ، والسكون عميق عميق ، والظلام كثيف يلف الضاحية كلها ، ويغمر الدنيا ، ويخيم على صدرى ..



ودرت فى الشقة أبحث عنها ، وأتطلع الى ثيابهـــا المعلقة على الشماعة ، وأشم رائحة عطرها ، وأهتف باسمها فى صوت خافت ، وأنا على يقين من أنها تسمعنى ولن تلبث أن ترد على ..

كان الليل لم ينتصف بعد .. وكانت هناك ساعات طويلة ، حتى ينبثق ضوء الفجر ، فكيف أقضى هذه الساعات .. كان لابد أن أغادر الشقة وأنطلق الى الخارج حتى لا أصاب بالجنون ..

سرت لا أعرف الى أين .. مضيت أترنح فى الطرقات على غير هدى حتى وجـــدت نفسى فى محطة القطار ، وكان على الرصيف قطار يطلق صفارته استعدادا ليغادر المحطة الى القاهرة ، ووجدت نفسى ألقى بجسدى فى احدى عرباته وهو يوشك أن يتحرك ..

لم أكن أعرف الى أين أنا ذاهب .. انما كنت أريد فقط أن أهرب من حلوان ومن مثوى ذكرياتى ، ومن نفسى .. أهرب الى أى مكان على الاطلاق ..

ألقيت بجسدى فى صالون خال ، وأسندت رأسى المحموم على مسند المقعد ، وأرخيت جفنى . لم أكن أدرى فيم كنت أفكر .. كانت تتلاحق فى رأسى أفكار سريعة مضطربة كمعتوه فقد رشده ..

انطلق القطار يشق الظلام ، ودوى عجـلاته يبدد السكون السائد ، وكل ما كنت أتمناه ساعتها

وصوت دوى العجلات الرتيب يطرق سمعى أن يحملنى هذا القطار الى مكان بعيد .. بعيد جـدا .. الى عالم خال من الألم والتعاسة والأحزان ..

كان القطار يقف فى المحطات ثم يتحرك وانا لا احس بوقوفه ولا بسيره . كنت شاردا تماما عن كل ما حـــولى ..

وانتبهت من شرودى على سيدة تدخل الصالون ، وبيدها راديو « ترانزستور » تنطلق منه الموسيقى ، وجلست امامى ، وحدست انها ركبت من احدى المحطات . كانت فى مقتبل العمر وان كان التعب يبدو واضحا على وجهها برغم المساحيق التى وضعتها عليه ، وكانت عيناها ذابلتين مجهدتين من السهر والتعب وقد تركت خصلات شعرها منسدلة على جبينها وكتفيها فى اغراء ، ولم تكن ترتدى معطفا فكانت ترتعش من البرد ، وفتحت حقيبتها وتناولت سيجارة واشعلتها ، واسترخت على مقعدها ..

كان منظرها والمساحيق الصارخة التى تلون وجهها ، وطريقة تصفيف شعرها ، والسيجارة بين شفتيها ، كل ذلك يوحى بأنها من نساء الليل ، وانها عائدة الى بيتها من سهرة ما ، واشحت بوجهى الى نافذة القطار ، وطرق سمعى صوت ام كلثوم ينطلق من الراديو « الترانزستور » الذى تحمله السيدة الجالسة امامى ، وهى تغنى اغنيتها المشهورة :

كان لك معايا اجمل حكاية فى العمر كله

ونفذ الصوت الساحر الى أعماقى ، وهز نفسى هزا عنيفا ..

كان لك معـــــايا اجمل حـكاية فى العمـر كله

ســــنين ومـرت زى الثـوانى فى حبـك انت

اجل .. لقد مرت السنين كالثوانى .. مرت يا شريكة العمر .. مرت وانتهت ..

وانهمرت دموعى .. كالفيضان .. ورحت ابكى وأجهش بالبكاء ، وانا لا ادرى لماذا ابكى ، ولماذا انا فى القطار فى هذه الساعة ، والى اين انا ذاهب .. نسيت كل شىء عن حياتى ولم اعد اذكر شيئا .. أصبح عقلى كصفحة بيضاء ..

انتقلت السيدة الجالسة امامى الى جانبى على الكنبة ، وراحت تسائلنى عما بى ، وهل هناك ما يؤلمنى وانا لا اجيب عليها ، وفتحت حقيبتها وتناولت منها زجاجة عطر واخذت ترش منها على وجهى وتواسينى حتى هدأت لكن الدموع ظلت تسيل من عينى رغما عنى ..

قالت لى فى حنان :

– لماذا تبكى يا سيدى ؟ .

– لا أدرى .. !

– انك تبدو حزينا جدا . هل أستطيع مساعدتك ؟

فقلت وانا لا اعى ما اقول :

ـ اشكرك . ان حزنى لا حد له . انا حزين . حزين جدا لكننى لا اعلم لماذا انا حزين .. !!

ـ هل من سبب حرك هذا الحزن فى نفسك ؟

ـ لا أدرى .. فى صدرى حزن عميق ليس فى استطاعة انسان أن يتصور عمقه . اننى حزين النفس محطم القلب أريد أن أبكى وأظل أبكى ..

ـ أمرك غريب يا سيدى . لابد أن هناك شيئا يؤلمك ..

ـ اننى وحيد يا سيدتى . هل تفهمين معنى كلمة وحيد يا بنتى . انك فى ربيع شبابك ولو كانت لى ابنة لكانت فى مثل عمرك . انا وحيد بكل ما فى هذه الكلمة من ألم ممض .. انسان وحيد فى هـــذه الدنيا الواسعة المزدحمة بملايين الملايين من البشر .

كانت السيدة الصغيرة تتطلع الى وجهى فى حيرة واشفاق ملائكى .. وامامنا على الكنبة الأخرى كان الراديو الترانزستور ملقى هناك ، وأم كلثوم ما زالت تردد « سنين ومرت زى الثوانى .. سنين ومرت زى الثوانى » ، وكان الدمع ما زال يتجمع فى عينى ، ويتساقط قطرات ..

كنت أريد أن أتكلم .. أن أنفس عن هذا الحزن القاتل الذى يجثم على صدرى . قلت للفتاة المبهوتة :

ـ أنت طبعا لم تعرفى معنى الوحدة ولم تعانيها .. الوحدة التى تجعل الانسان يحس بالغربة وهو فى حشد من الناس أو وهو سائر فى الطريق وسط الزحام . انه يحس بأنه غريب .. غريب عن هؤلاء الناس جميعا .. ليس له انسان يشاركه حياته أو يحس بآلامه أو يبادله الحب أو يمنحه الحنان أو على الأقل يهبه العطف والاشفاق .. هل تخيلت وحدة المرضى فى المستشفيات حينما يهبط الليل عليهم ، وكل منهم راقد على فراشـــه وحيدا مريضا متألما بعيدا عن أسرته وأحبـائه .. هل تصورت السجين فى زنزانته يقتله الشوق الى نظرة واحدة من أطفاله الصغار أو من زوجته .. هل تصورت حياة الأطفال الأبرياء اليتامى فى الملاجىء وشوقهم الملح العـــارم الى كلمة عطف ولمسة حنان .. هل تخيلت أمسياتهم الموحشة عندما يأوى كل منهم الى فراشـــه فى العنبر الواسع الخافت الضوء وهو يحلم بعطف الأمومة وحنانها بينما يبكى قلبه فى صدره من فرط الحنين الى الأسرة والى اجتماع الشمل ثم يغلبه النوم وهـــو يتصور أمه التى لم ترها عيناه وهى تضمه الى صدرها ويتخيل أباه الذى تركه صغيرا وهو يربت عليه فى حنان وحب .. هل تصورت حياة الرهبان هناك بعيدا فى الأديرة العتيقة فى قلب الصحراء الصامتة .. هل حاولت أن تتصورى حيـــاة أحدهم وهو وحيد بين أربعة جدران منقطع عن الحياة والأحياء .. هل تصورت حياة الطلبة الغرباء القادمين من بلاد بعيدة ليطلبوا العلم .. هل تخيلت حياة أحدهم الموحشة ووحدته فى حجرته العارية الباردة بلا لمسة حنان من أم رءوم أو همسة عطف من أخت حنون أو كلمة حب من أب عطوف .. هل رأيت طفلا صغيرا ضل عن والديه فى طريق مزدحم .. هل رأيت دموعه وهى تنهمر على خديه كالسيل ونظرة الهلع والحيرة فى عينيـــه .. هل تخيلت وحدته الرهيبة وهو يتلفت فى جزع باحثا عن أبيـــه أو عن أمه وســط الزحام .. هل شـــاهدت موقف وداع بين أب وابنه على رصيف محطة القاهرة .. هل رأيت دموع الأب وهى تنحدر على وجهـــه فى صمت بينما قلبه يتمزق من الأسى ،

والوهم يصور له انه قد لا يلتقى بابنه ثانية ، والقطار ينطلق بابنه بعيدا ، والابن يلقى على أبيه وعلى بلاده الحبيبة نظرة وداع من خلف غشاوة من الدمع .. هل تخيلت احساس الابن بالوحدة وهو ينطلق بعيدا يحمله القطار الى الباخرة .. ثم الى العالم الواسع .. وحيدا كذرة تائهة فى الفضاء الفسيح .. هل تصورت كل هذا يا بنتى .. ؟

قالت لى الفتاة وقطرات دمعها تتساقط على خديها وتترك أثرا على المساحيق التى تلون وجهها :

ـ يا الهى .. ما أشـد شقائك .. ان من يراك يظن انك كغيرك من الناس تعيش الحياة بلا اكتراث لكنك انسـان جريح معذب ، ويخيل الى انك تحمل على كتفيك أحزان البشر جميعا .. ولكن صدقنى ان أفكارك هى سر شقاءك .

كان الحزن يضغط على قلبى ويخنق انفاسى ، وكنت أريد أن اتخفف قليلا من هذا الحمل الباهظ الثقيل الذى يكتم أنفاسى ، فاستطردت أقول كمن يخاطب نفسه :

ـ صدقينى أنا واحد من هؤلاء المساكين الذين حدثتك عنهم .. ليس لى أهل أو زوجة أو ولد .. لا أحد على الاطلاق .. مقطوع من شـجرة .. اننى فى هذا العمر .. فى غروب الحيـاة .. لست أطمع فى شىء .. لست أطمع فى الحب أو فى الحنان ولكن فى العطف فقط .. العطف وحده .. تلك العاطفة النبيلة المقدسة التى يسخر منها بعض الناس ويتصورونها مرادفة للاحسان .. ذلك الذى يدفع الانسان العطوف ليقدم لسائل مسكين جائع كسرة من الخبز يدفع بهـا الجوع عن نفسه . اننى فى اشد الحاجة الى كسرة من العطف أستعين بهـا على الحياة بقية حياتى .. كلمة عطف أو كلمـة اشفاق لن تكلف قائلهـا شيئا ..



كانت الفتاة تستمع لى والدمع يلمع فى عينيها .. ثم قالت فى حزن :

ـ مهلا يا سـيدى ، لست وحدك الذى يعانى من الوحدة . هناك غيرك آلاف وآلاف .. لكن يجب على الانسان أن يتغلب على الوحدة وأن يتصل بالناس ويعاشرهم ويملأ حياته بوجودهم .. ويجب عليه أيضا أن يتعلق بشىء ما .. بأى شىء .. ويجعل حياته تدور حوله حتى يتغلب على فراغ الحياة المخيف ويتخلص من الملل والسأم .. اننى أعرف أرملة عجوز مات زوجها ولم يترك لها ولدا أو بنتا فشغفت بتربية القطط وعندها أكثر من عشر قطط .. ان حياتها كلها وسعادتها تنحصر فى هذه القطط فهى ترعاها وتنظفها وتقدم لها الطعام بيديها ، وتحيط القطط بالسيدة وتجلس على حجرها وتتمسح بساقيها وتجلس على فراشها ، والسيدة تحنو عليها وتمسح على شعرها وكأنها أطفالها الأعزاء .. ماذا كانت تصبح حياتها بدون هذه القطط ؟ لا ريب أن حياتها كانت ستكون كالعدم لو استسلمت لأحزانها ولوحدتها عقب وفاة زوجها .. وأنا .. لقد مات زوجى فى ريعان شبابه فى حادث وترك لى طفلا هو كل سعادتى وكل حياتى .. اننى أعيش من أجله وأعمل وأشقى لأجعل حياته سعيدة ..

ـ ما أسعدك . ان لديك ما تعيشين من أجله . أما ذلك الذى ليس له ما يعيش من أجله فما أشقى حياته وما أقسى وحدته وعذابه ..

ـ لكن يجب عليك ان تعيش حياتك ، وليست الحياة هي جنة الفردوس التي وعد بها المتقون ولكن الانسان يستطيع ان يجعل من الجحيم فردوسا ويستطيع ايضا ان يجعل من الفردوس جحيما .. يا سيدى عش حياتك ولا تحمل هم اى شيء ودع الأمر كله لله ، فنحن لا نملك من امر نفوسنا شيئا . وفى كل مكان تستطيع ان تجد السعادة .. فى الاكواخ والعشش يوجد اناس اكثر سعادة من بعض سكان الشقق الفاخرة والقصور الفخمة . صدقنى ياسيدى ان السعادة تنبع من اعماقنا .. نحن الذين نصنعها ولا تأتى من خارج نفوسنا ، اذا روضنا انفسنا على السخرية من الامنا ولم نعبأ بها ، استطعنا ان نصمد امام الحيـاة ونستشعر السعادة . اقسم لك ان الحيـاة قد علمتنى اشياء كثيرة .. اكثر كثيرا مما يتعلم الطلبـة فى الجامعات ومما يتعلم الناس من الكتب .

وكان القطار قد وصل محطة « باب اللوق » فغادرناه معا ، وعند باب المحطة الخارجي مددت يدى اصافحها مودعا ، فاستبقت يدى فى يدها لحظة ، وقالت لى وهى تتطلع الى وجهى فى اشفاق وحيرة :

ـ انت ذاهب الى بيتك الآن .. ؟

فقلت لها كالثمل ، وذهنى كالصفحة البيضاء تماما :

ـ بيتى .. ! اننى لا ادرى الى اين انا ذاهب الآن . سأتجول قليلا فى شوارع القاهرة ..

فنظرت الى فى دهشة وقالت فى رقة وعطف :

ـ تتجول فى الشوارع فى هذا الوقت المتأخر . من اين انت قادم اذن ؟

فقلت لها كمن يتكلم وهو نائم :

ـ لا ادرى من اين انا قادم . ولا ادرى الى اين انا ذاهب . سامضى الى حيث تقودنى قـدماى ..

قالت وقد اتسعت عيناها الجميلتان من الدهشة :

ـ هل تكرم وتعرفنى بنفسك يا سيدى . انا اسمى سعاد ..

قلت وحيرة شديدة تجتاحنى حتى جعلتنى كمن يهذى :

ـ اسـمى .. لا ادرى .. تستطيعين ان تطلقى على اى اسم يعجبـك . حسين . على فؤاد .. اى اسم يخطر ببالك ..

قالت ونظراتها الفاحصة لا تتحول عن وجهى :

ـ انت فى حالة غير طبيعية . ولا ادرى ظروفك . انك تبدو كطفل تائه . تعالى معى ..

ضحكت فى مرارة ضحكة كالبكاء ، فقد اعجبنى تشبيهها لى بالطفل التائه ، وقلت لها وانا احس بيد قاسية تهصر قلبى :

ـ انت محقة جدا فى قولك . انا طفل ضائع . طفل كبير فى حاجة الى الرعاية والحنان .. انا فى حاجة الى العطف .. الى كسرة من العطف ..

وشرعت ابكى من جديد .. اخذت دموعى تتساقط فى صمت ، وحاولت جاهدا السيطرة عليها ، ولكن جهودى ذهبت عبثا ..



سرت الى جانبها كطفل ساذج لا يدرى من أمره شيئا ، فقد كنت فاقد الذاكرة تماما ..

سرنا في طرقات واسعة متألقة بالأضواء تمرق فيها عربات أنيقة فارهة تحمل أناس سعداء مترفين ذاهبين الى سهراتهم أو عائدين منها ، وكانت العمارات وأضواء النيون الملونة والميادين المتألقة بالمصابيح الوهاجة تبدو لي من خلف غشاوة الدمع كأنها مغلفة بالضباب ، وخيل الى أنني أمضى في طرقات مدينة غريبة لم تطأها قدماى من قبل .. كان المارة قليلين ، وكانوا يحثون الخطى ويحتمون بالجدران من شدة البرد ..

وغادرنا الطرقات الواسعة المتألقة بالأضواء الى طرقات أقل سعة وأقل ضوءا ثم الى طرقات ضيقة خافتة الضوء في حى شعبي . كنا نسير صامتين ، وكان كل منا كان يعيش في عالمه الخاص الى أن قالت صاحبتي ونحن أمام متجر بقال يقع على ناصية شارع :

ـ اسمح لى بدقيقتين أشترى بعض الخبز والطعام ..

وأقبلت بعد لحظات تحمل لفافة الطعام ، واستأنفنا السير في شوارع الحى الشعبي ثم اتجهنا من شارع الى حارة ثم دلفنا الى زقاق مترب يضيئه فانوس غاز لا يكاد ضوءه يبدد الظلام . ودخلنا بيتا صغيرا من طابق واحد ، وفتحت سعاد باب حجرة بمفتاح كان في حقيبتها ثم دخلت وتبعتها ..

كانت حجرة واسعة من المبانى القديمة تضيئها « لمبة » صغيرة وضعت خلف ضلفة الباب المغلقة . وتقدمت سعاد ووضعت لفة الطعام وأشعلت مصباح الغاز ، فشع الضوء في الحجرة ..

كان بالحجرة فراش ترقد عليه امرأة الى جانبها طفل ، وبها كنبتان ودولاب ومنضدة صغيرة وبضعة مقاعد ، واستيقظت السيدة على ضوء المصباح وعلى صوت دخولنا ، وكانت متقدمة في السن ، وقالت وهى تتطلع صوبنا :

ـ جئت يا سعاد ؟ .

فاجابت صاحبتي :

ـ نعم يا أمى . ومعى ضيف كريم ..

غادرت السيدة الفراش وقامت ترحب بى ، وألقيت بجسدى على الكنبة من فرط احساسى بالتعب والانهيار ، واقتربت سعاد من الفراش وأخذت تقبل ابنها وتربت عليه وتهتف باسمه حتى أيقظته ، فاحاط عنقها بذراعيه الصغيرتين وأخذ يقبلها ثم قال لها في صوت ناعس :

ـ هل جئت يا ماما بالشكولاتة التى طلبتها منك ..

فاجابته في حنان :

ـ نعم يا حبيبى ..

وأخرجت من حقيبة يدها قطعة كبيرة من الشكولاتة قدمتها اليه ، فتناولها باسما متهللا ، ونظر صوبى متطلعا فقالت له :

ـ انزل يا فتحى سلم على عمك ..

وقفز الطفل من الفراش وأقبل يصافحنى بيده اليسرى ، فقد كانت قطعة الشكولاتة تشغل يده اليمنى . كان في حوالى السابعة من عمره ، وسيما ، لطيفا ، تشع من وجهه المورد براءة الطفولة الحلوة التى تأسر القلوب ..

امسكت بيده الصغيرة في يدى ثم قبلته على خده ، واحسست بقلبى يضيق بما ملأه من حنان حتى يكاد يتدفق منه ، وشعرت ببصيص من نور الهى يتسلل الى جنبات صدرى المظلم فيشع فيه كوميض

البرق ، فرحت أملأ عينى من وجهـه الملائكى الحلو وأنا فريسـة لانفعالات شتى ليس لى بهـا عهد من قبل ..

وضعت سعاد الطعام على المنضدة الصغيرة ، وألحت على أن أشاركهم الطعام لكننى اعتذرت لهـا فلم أكن أشعر بأية رغبـة فى الطعام ، وطلبت منها أن تعد لى ـ بعد أن تفرغ من عشائها ـ كوبا من شراب دافىء . وجلست تتناول عشاءها مع أمها وابنها ، وأنا جالس على طرف الكنبة مطرقا ، وقد حرك منظرهم فى قلبى احساسا عميقـا بالحنين .. الحنين الى الأسرة واجتماع الشمل ، ولو لم أسيطر على نفسى واضبط مشاعرى لحظتها لطفر الدمع من عينى ..

ولما شربت كوب الينسون الذى أعدته لى سعاد بيديها أصرت على أن يتركوا لى الفراش لأرقد عليه لكننى صممت على ان انام فى مكانى على الكنبة ، فنامت سعاد مع أمها وابنها على الفراش ، وتمددت على الكنبة بعد أن أحضرت لى غطاء كانت محتفظة به للضيوف ..

هل نمت الليل .. لا أدرى .. لقد ظللت بقية الليل محدقا فى السقف بعينين ذاهلتين ، وعقل كف عن التفكير ولا يعى شيئا ، واظن اننى اغفيت عنـد الفجر واستيقظت على اشعة الشمس وهى تتسلل من خصاص النافذة ..

وفى الصباح أفطرنا معا .. سعاد وأمها وطفلها وأنا .. وخيل الى أننى فى وسط أسرتى التى فقدتها منذ زمن بعيـد ثم التقيت بها بعـد مرور أعوام طويلة فرقت فيها بيننا الأيام ، فكانت فرحتى بلقائها لا تقدر .. شعرت بسعادة لا حد لها وأنا أمد يدى باللقمة تلو اللقمة الى فتحى الصغير ، وقد شعرت انه احبنى وتعلق بى كما لو كان يعرفنى منذ سنوات ..

كانت سعاد تحنو على حنوا ملائكيا ، وحاولت ان تخفف آلامى جهد ما استطاعت ، فكانت تخلق جـوا من المرح لترفه عنى .. كان قلبها كبيرا حتى خيل الى انه قلب يستطيع أن يحب الناس جميعا .. لقـد أدركت بفطرتها السليمة اننى فى محنة عصيبة ، واننى انسان منكود سىء الحظ ، فكرست كل لحظة من وقتهـا لاسعادى ..

كانت تبدو لى بريئة كطفلة .. صادقة كراهبة .. نبيلة كقديسـة .. وان كنت قد حدست حقيقة مهنتها .. حدثتنى عن نفسها وعن حياتها ، وانهـا تعمل فى احد المصانع لتستطيع أن تعول أمهـا وابنها .. لم تجرؤ المسكينة على أن تصارحنى بالحقيقة ، فاحترمت صمتها واكبرتها ، وادركت أنهـا تحت ضغط الحاجة وقسوة الفقر ، وبعد ان سـدت فى وجهها جميع أبواب العمل الشريف اضطرت ان تبيع شرفها من اجل لقمة العيش .. لقد حدست ذلك اول ما وقع بصرى عليها فى القطار والسيجارة بين شفتها والمساحيق الصارخة تلون وجهها لكننى صدقتها عندما زعمت لى انها تعمل فى احد المصانع ، وانها تقوم بنوبة العمل ليلا فى بعض الأحيان ..

شعرت نحوها بالاحترام ، وهزتنى قوة احتمالها وتضحيتها النبيلة فى سبيل أمها وطفلها .. ومن يدرى الحقيقة .. قد تكون صادقة ، وقد أكون مخطئا فى ظنى ، والحقيقة يعلمها الله .. انها صغيرة على عاتقها حمل ثقيل ومسئولية ضخمة .. أم وابن ونفقات سكن وطعام وثياب وكفاح من أجل الحياة فى مدينة مكتظة بالناس يجرى فيها الأحيـاء فى سباق رهيب ، ويقاتلون بعضهم بعضا فى سـبيل القوت غير مكترثين بالضعيف بل كثيرا ما يدوسونه تحت أقدامهم ، فهى معذورة ان سلكت اى طريق ..

لم أحاول أن أخدش شعورها أو كرامتها بكلمة تظهر لها أننى أعرف الحقيقة ولماذا أزيد عذابها عذابا وهى تريد أن تبدو أمامى امرأة شريفة كغيرها من النساء تكد وتعمل لتعول أمها وطفلها ..

كانت تسرد على قصتها وأنا اتأمل وجههـــا الشاحب الذى رسمت عليه الأيام خطوطا من الشقاء ، وكانت قطرات دمعها تتساقط على خديها وهى تروى لى ذكرياتها مع زوجها قبل أن يوافيه الأجل المحتوم فى حادث فى الطريق .. قصت على ذكريات سعادتها ثم ذكريات شقائها عندما وجدت نفسها وحيدة أمام قدر معاند .. وكيف تبرمت بالحياة فى ساعات اليأس وفكرت فى الانتحار عندما سدت أمام وجهها جميع ابواب الحياة ، ولكن حبها لابنها منحها الشجاعة لمواجهة الحياة .. ثم قالت لى فى صوت يقطر حزنا وتعاســـــة :

ـ لا تظن انك وحيد فى عذابك .. الدنيا مليئة بالشقاء . انا أيضا تعذبت وعانيت كثيرا لكننى قاومت واحتملت .. من اجل أمى وابنى ..

اصغيت اليهـــا وأنا أحس بشىء يتمزق فى صدرى .. وتصورت حياتها وشقاءها وكفاحها الرهيب فى سبيل الحياة .. ان الخطيئة التى قد تكون لوثت جســـدها لم تقو قط على ان تلوث نفسها وقلبها الكبير .. كم هى مسكينة وكم هى فى حاجة الى العطف والحنان ..

لقد تصورتها احيـــانا ونحن جالسين نأكل انهـــا ابنتى وان فتحى حفيـــدى ، واننا اسرة سعيدة لا ينقصها شىء .. وكانت تغادر البيت احيانا فى النهار .. وأحيانا فى الليل .. وكنت عندما اجـــد نفسى بمفردى أصحب طفلها معى واخرج الى الطريق ، فاشترى له بعض الحلوى ثم نتجول قليلا ونعود الى البيت ، وقد تعلق بى الطفل واحبنى ، وتعلقت به واحببته ، وكأنه ابنى الذى حملتـــه وليدا ، واشرفت على تربيته ..

قضيت فى ضيافة ســـعاد اياما لا ادرى عددها بالضبط .. اكانت يومين او ثلاثة او اربعة ايام .. لم اعش مثلها من قبل .. كانت تربط بينـــنا عاطفة نبيلة مقدسة .. صلة اب عطوف رحيم بابنتـــه العزيزة .. وحتى طفلها الحبيب كان يناديني احيانا بكلمة بابا ، وكانت تلك الكلمة تطرق سمعى كاحلى نغمة سمعتها اثناى طيلة حياتى ، وكانت احلى عندى من الشهد .. كنت سعيدا غاية السعادة ، سعادة لم احلم بها يوما ما ..

حتى كان ذات يوم ..

كان الصباح مشرقا جميلا ، وقد خرجت سعاد وصحبت طفلها لتشترى له بعض الثياب ، وضقت بوحدتى فخرجت الى الشـــارع اتجول قليلا فى الشمس الدافئة . سرت فى الطرقات على غير هدى ، واحسست بالدفء يشع فى جسدى ، والسعادة تغمر صدرى ، والناس من حولى يمضون باسمين مشرقى الوجوه ، والعربات الفاخرة الأنيقة تزحم الطرقات ، والنافورات فى الميادين تطلق مياهها المتألقة فى ضوء الشمس ، ورذاذها يصفع الوجوه فى عذوبة ورقة كلمسات حنون تنبه المرء لجمال الحيـــاة وروعة الوجود ..

وقفت فى الميدان الفسيح أتأمل النافورة الرائعـة ، والحديقة المزدهرة ، بزهورها الملونة وعشبها الأخضر الزاهى ، والأطفـــال يجرون فى ممراتها المفروشـــة بالرمل الأصفر . ويتنقلون على عشـــبها الأخضر كالفراشات الملونة الجميلة . واقترب منى رجل والقى على تحية الصباح ثم مد يده وصافحنى وهو يقول وقد بدت على وجهه سمات الحزن :

ـ البقيـــة فى حياتك يا سيد احمد . والله انا فى غاية الأسف . لم اعلم بالخبر الا بالأمس فقط ..

نظرت اليه كالمشدوه ، ولم ارد عليه بكلمة .. كنت اقول لنفسى فى حيرة واضطراب :

ـ احمد .. من هذا الأحمد الذى يتحدث عنه هذا الرجل ، وعلى من يعزينى .. اننى لا اعرف هذا الرجل .. لابد أن فى الأمر خطأ ما ..

كان الرجل يتطلع الى وجهى فى اشفاق شديد ، ويهز رأسه متعجبا من ذهولى ثم استطرد :

ـ لا حول ولا قوة الا بالله . انا اعرف ان الصـدمة كانت شديدة عليك . ان زوجتك كانت كل شىء فى حياتك . الله يرحمها كانت جـوهرة نادرة وكانت أكمل النساء وأفضلهن . رحمك الله يا سنية هانم رحمة واسعة وجعل الجنة مثواك ..

كنت استمع الى الرجل كملهول فقد رشده .. وخيل الى اننى ادور فى دوامة عنيفة . أحسست بدوار شديد وترنحت حتى كدت أسقط على الأرض مغشيا على .. وشيئا فشيئا بدأت ملامح الرجل تتضح لى كأنما انقشع عنها الضـبـاب الكثيف الذى كان يغمرها ، وخيل الى اننى أستيقظ من نوم عميق .. نعم .. هذا هو صديقى السيد خليل .. وسنية .. زوجتى التى رحلت عن الدنيا وتركتنى وحيدا ضائعا .. كيف نسيت كل هذا ، وما هذا الحجاب الكثيف الذى كان مسدلا على ذاكرتى ..

وقفت فى مكانى مبهوتا .. أتلفت حولى كمن استيقظ لتوه من نوم عميق ، ولم اقو على ان ارد على الرجل بكلمة .. كنت نصف نائم ونصف يقظان ، فدنا السيد خليل منى وربت على كتفى وهو يقول لى فى عطف :

ـ تجلد يا سيد احمد . هكذا حال الدنيا ..

فشكرته بكلمات مضطربة متعثرة ..

انصرف الرجل وتركنى مسمرا فى مكانى تعصف بى الأفكار .. اين انا .. واين كنت اعيش فى الايام الماضية .. انا الآن واقف فى ميدان من ميادين القاهرة أتطلع الى هذه النافورة وهذه الزهـور وهؤلاء الأطفال ، ولكن اين كنت فى الأيام الماضية . انا كنت فى مكان ما .. هنا فى القاهرة .. اعيش مع سيدة صغيرة رقيقة حنون ذات قلب كبير يسع الناس جميعا ، وكان معنا طفل .. طفل صغير أحببته ما وسع قلبى أن يحب ، ولكن فى اى مكان من هـــذه المدينة الواسعة تعيش تلك السيدة وهذا الطفل اللذين احببتهما وأحبانى ، وعشت معهما أياما لن تنمحى من ذاكرتى ما حييت ..

هل حدث هذا حقيقة ام كان حلما .. ؟ يخيل الى انه كان حقيقة واننى عشتها بكل خلجة من نفسى وكل نفس تردد فى صدرى .. ويخيل الى فى نفس الوقت أنه تصورات صنعها خيالى المريض .. مجرد أحلام تخيلها عقلى المضطرب وأحالها الى حقيقـــة .. هل كنت مريضـا فى تلك الأيام ، وكنت ضحية لتصورات حمى خبيثة .. لا .. لا .. ان ما حدث كان حقيقة .. حقيقة لا ريب فيها ، حقيقة كهذا الضوء ، وهذه الزهور ، وهذه الحديقة التى يقع عليها بصرى ..

وقفت حائرا أشحذ ذهنى واحاول جاهدا ان اذكر مكان ذلك البيت الذى عشت فيه تلك الأيام الماضية .. الأيام السعيدة التى لن اعيش مثلها ابدا ، والتى شاء القدر أن تسقط من تقويم حياتى .. كما تسقط اوراق التقويم لتأخذ مكانها فى سلة المهملات ..

كدت ابكى من الغيظ والقهر .. اما من امل .. ؟ أما من بصيص من الضوء يتسلل الى عقلى المظلم فيهدينى الطريق الى مكان تلك السيدة الطيبة والطفل الوسيم .. ؟

كان الندم يسحق قلبى ويلهبنى بسياطه .. ماذا تقول تلك السـيدة الرقيقة ذات القلب الكبير التى منحتنى العطف المقدس بلا ثمن .. أتقول اننى هربت منها كاللص دون ما كلمة شكر أو كلمة وداع ، والطفل الحبيب الذى لمع فى حياتى كالشهاب كيف تفسر له اختفائى فجأة وقد تعلق بى ولم يكن يفارقنى لحظة .. وكيف تصبح حياتى بدونه .. ؟

وسرت فى الطرقات على غير هدى .. كانت الشوارع غاصة بالمارة ، والسيارات الأنيقة والنساء الجميلات يخطرن على الافاريز بثيابهن الملونة من صفراء وخضراء وحمراء وبنفسجية وفى لون الفضة وفى لون الذهب ، وكأنهن زهور مختلفة الألوان لكل زهرة لون خاص وعطر خاص وجمال خاص ، والرجال يحثون الخطى فى حيوية وشباب يسابقون الحياة ، والشبان يسيرون جماعات يطلقون الضحكات من قلوب مرحة ، ويبتسمون للفتيات ويلقون فى أسماعهن كلمات اعجاب هامسة حلوة ، وواجهات المتاجر كلوحات فنية رائعة رسمها فنانون عباقرة ، وحوانيت الزهور تعرض زهورها الجميلة التى تستوقف البصر من خلف زجاج لامع تسيل عليه مياه كمياه الغدران .. كل شيء جميل .. كل شيء يحرك القلب ويجعل الدم يتدفق حارا فى العروق ويحبب الانسان فى الحياة .. ما عداى أنا .. كنت ضائعا تلح على فكرة واحدة ، وتكاد تدفعنى الى الجنون .. لابد أن أعثر على البيت الذى عشت فيه أياما سعيدة لا تتكرر ..

وانقضى النهار ، وغربت الشمس ، وأضاءت المصابيح ، وانا هائم على وجهى فى الطرقات ، وقد فقدت كل امل فى العثور على البيت ، ولم تعد قدماى تقويان على حملى من شدة التعب والاعياء ، وبدا لى من فرط الجهد العقلى الذى كنت اعانيه ان كل ما حدث كان أضغاث أحلام ..

واتجهت الى محطة قطار حلوان محزونا منهوك القوى .. هناك فى الضاحية الهادئة المنعزلة تنتظرنى وحدتى الحزينة المجدبة التى لم استطع أن أهرب منها .. هناك أنا .. من جديد .. مرة أخرى .. أتجول فى حجرات شقتى كسير القلب محطما ..

هنا مثوى ذكرياتى ، ومقر سعادتى القديمة .. هنا طيفها ، وصدى صوتها ، وعطرها ، والماضى كله .. هنا ساعيش بقية حياتى اقتات من ذكرياتى ..

ولكن .. لقد قالت لى تلك السيدة الصغيرة الطيبة ذات القلب الكبير انه يجب على الانسان أن يتصل بالناس ويعاشرهم ويملأ حياته بوجودهم ، وان يتعلق بشيء ما .. بأى شيء .. ويجعل حياته تدور حوله حتى يتغلب على فراغ الحياة المخيف ، وانها كانت تعرف أرملة عجوز تغلبت على أحزانها ووجدت سلواها فى تربية القطط والعناية بها ، وانا هل ساظل اعيش هنا على أحزانى واقتات من ذكرياتى . ان الذكريات طعام الخاملين والمحزونين والضائعين .. هل ساظل أدور فى شقتى كالطائر السجين فى القفص ..

ان الحياة حافلة بكل ما هو طيب جميل .. مليئة بالعلاقات الانسانية النبيلة .. فلماذا أظل قابعا فى جحرى أجتر أحزانى وافكر فى نفسى فحسب .. لماذا لا أحطم هذه القوقعة التى تحصرنى فى داخلها واخرج الى النور والهواء .. لماذا لا اذهب الى قريتى حيث نشأت ولعبت فى دورها طفلا وصبيا وترددت عليها شابا .. لماذا لا اذهب الى هناك حيث تعيش البقية الباقية من أسرتى فاملأ فراغ حياتى بوجودهم واكرس هذه الحياة لاسعادهم واسعاد غيرهم من رفاق طفولتى وصباى بل وأهل القرية جميعا ..

لقد ملأت تلك الأرملة العجوز حياتها بالاهتمام والعناية بتربية القطط .. وهبت حنان قلبها المتدفق للحيوان .. فلماذا لا أهب حياتى للانسان ، واكرسها للعمل من أجله ..

وعندما غادرت بيتى فى الفجر وانا أحمل حقيبة صغيرة بها بعض الثياب الضرورية كان الليل قد رحل بعيدا مخلفا وراءه ظلا رماديا باهتا ..

واتجهت صوب المحطة ، وركبت أول قطار يغادر حلوان ، ووقفت فى النافذة ألقى نظراتى على الضاحية الساكنة ..

عندما تحرك بى القطار بدا كل شيء امام عينى زاهيا مشرقا فى ضوء الشمس البازغة .

# الأم

## القصة الفائزة بجائزة نوبل

عرض : فتحى الابيارى

لقد غرست جميع الأديان والتقاليد حب الأم فى نفوس الأبناء فى كل مكان ، ومن كل لون وجنس . وغرست الطبيعة عاطفة الأمومة الجياشة فى كل أم .. حتى الأم فى الحيوان . وقد وهبتنـــا الظروف الاجتماعية فى بلادنا العربيـة عدة مزايا وخصال تكاد تكون من معالم الأسرة فى بلادنا . فأفراد الأسرة العربية يلتفون حـــول الأم ، بسبب الترابط والتماسك الأسرى ، وخاصة أن أحوالنا الاقتصادية تســـاعدنا على ذلك . أما البلاد التى تجبر كل فرد على أن يعمل ساعات طويلة مرهقة ومضنية فى سبيل لقمةالعيش ، بحيث تخرج الأم ، ويخرج الأب ، ويخرج الأبناء جميعا كل صباح الى أعمالهم أو الى دراساتهم كأنهم قد شدوا فى ساقية لا تقف ابدا . ان تلك الحياة القاسية لا تتيح الفرصة للأبناء أن يلتقوا بأمهم عدة ساعات ، ليرتشفوا منها الحنان والحب والسلام ، والسبب فى ذلك أنها مشغولة دائما فى العمل خارج البيت ، وفى داخله . تلك الحياة القاسية جعلت بعض المفكرين والمصلحين يبتدعون يوما أســـموه « بيوم الأسرة » ، فيه يجتمع جميع أفراد الأسرة ليتحـدثوا ويتسامروا مع بعضهم وليقدم كل صغير هدية للأم وللأب ، وبالعكس . وفى ذلك اليوم أيضا يتعرف الأب والأم على مشاكل أولادهم ليحلوها وليستمعوا الى آلامهم وآمالهم وأحلامهم .

أما الملاحظة التى استرعت انتباهى عندما بحثت فى أدبنا القصصى عن عمل فنى كبير يدور حول الأم ، أننى لم أجد قصة كبيرة مثل قصـــة الأديب العالمى مكسيم جوركى « الأم » ، أو مثل قصة « الأم » للكاتبة العالميـــة بيرل بك التى نالت عليها جائزة نوبل عام ١٩٣٨ . او مثل مسرحية « الأم » للكاتب كارل تشـابك .. وغـيرها من القصص التى تدور حول « الأم » فى عمل فنى كبير . اما الذى عثرت عليه فى أدبنا القصصى ، فهو عدد لا بأس به من القصص القصير عن الأم ، ولعل الأيام المقبلة تظهر لنـــا قصاصا عربيـــا ، يصور بقلمه لوحة خالدة للأم العربية .

وسبب اختيـــارى قصة « الأم » لبيرل بك ، أنها قصة عالمية ، يمكن أن تحدث فى أى مكان ، وفى أى زمان ، لأنها

تحلل النفس البشرية أدق تحليـــل ، وتغوص الكاتبة فى أعماق نفسية « الأم » فى مختلف اطوارها . واذا كانت الكاتبة قد اشتهرت فى العالم بقصتها الرائعة « الأرض الطيبة » ، فان قصة « الأم » هذه فى رأيى تفوق « الأرض الطيبة » ، لأن الكاتبة استطاعت أن تعبر بكل صدق عن مشاهد القصة الخالدة .

لقد حاولت بيرل بك أن تخلد كفاح أم من ملايين الأمهات فى العالم . فجعلت أحداث القصة تدور فى قرية صغيرة ، بدون اسم ، حتى يمكن أن تقع فى أية قرية فى العالم . ولم تطلق على « الأم » أى لقب . وانما أسمتها « الأم » ، وجعلت كل أسماء شخصيات القصة بالرموز ، فسوف نعيش أحداث تلك القصة الفـذة مع الأم والأب ، والابن الأكبر ، والابن الأصغر والابنة ، والعجوز ( أم الزوج ) والعم وزوجته والوكيل .. وبعض اهالى تلك القرية الصغيرة .

كانت «الأم» تقوم بكل الأعمال فهى تساعد زوجها فى الحقل ، وتطهى الطعام ، وتنجب الأطفال وتتحدث مع حماتها العجوز ، وهذا الحديث يعتبر من أهم الأعمال التى ينبغى أن تقوم بها . ونفس الأعمال كانت تقوم بها كل يوم ، حتى تشابهت الأيام ، وانعدم الزمن بالنسبة لها .

فقد كانت تنهض فى الفجر والكل نيام ، فتطلق الدجاج والجاموسة وتقودها الى الفناء . ثم تنظف مرابطها ، وتحمل الروث المتخلف منها الى الكوم الموضوع فى احد أركان الفناء ، وتذهب الى المطبخ حيث تغلى الماء لكى يشربه زوجها وأمه العجوز . وتضع بعض هذا الماء المغلى فى وعاء لكى تغسل به عينى الطفلة . كانت هذه الطفلة تنهض صباح كل يوم موصدة العينين لا ترى بتاتا حتى تغسل الأم عينيها .

وعندما رأت زوجها وهو يتثـاءب ويحك رأسه ، قالت له :

ــ عندما تذهب لبيع قش الأرز فى المرة القادمة ، فاقصد الى حانوت الأدوية القريب من باب المدينـة ، واطلب دواء للعيون المريضة كعينى هذه البنت . لكن الرجل كان ضيق الصدر من تأثير النوم ، وقال متبرما :

ــ ولماذا نضيع مالنا القليل فى شراء دواء للعيون المريضـة ما دام يستحيل أن تموت بهذا السبب ؟ انى كنت أشكو مرض العينين فى صغرى . ولم ينفق أبى شيئا على بسبب هذا المرض ، رغم انى كنت ابنه الوحيد الذى بقى على قيد الحياة .

هكذا كان شأن الأم كل يوم .. لكنها لم تتململ مرة فى تعاقب الأيام على هذا النحو ، ولم تتبرم بتشابهها وتماثلها .. ولو خاطبها احد فى هذا الصدد لحدقت فيه دهشة بعينيها السوداوين ، وقالت له :

ــ لكن الأرض تتطور بين زمن البذور والحصاد ، ثم يجنى المحصول من أرضنا وندفع نصيب مالك هذه الأرض التى نستأجرها .. حبوبا . ثم هنـاك أيام الأعياد والسـنة الجديدة .. نعم .. وحتى الأطفال يتغيرون ويشبون . ثم احمل من جديد .. كل شىء يتغير فى نظرى .. بل كل شىء يتطور ويحملنى

على العمل من مطلع الفجر الى مغرب الشمس .

كانت هـــذه الأم تستمتع بمظاهر حياتها وتعاقب أدوارها فيها . تستمتع بالوضـــع والعمل فى الحقل . والأكل والشرب والنـــوم .. وكنس الــــدار وترتيبها ، وسماع نساء المزرعة يثنين على براعتها فى العمل والحياكة .. بل ان التشاحن مع الرجل كان أمرا طيبا وعاملا على اذكاء عاطفتها ومن أجل هذا كله كانت تستقبل اليوم الجديد بنشاط وحمية .

* * *

واستطاعت بيرل بك بأسلوب السرد المباشر أن تقدم لنا خلال الفصول الثلاثة الأولى كل شىء عن الأم وعن البيئة التى تعيش فيها ، وعن تنسيقها ، وأحلامها ، وآمالها . فى دقة ، وحلاوة أسلوب ، وفى الفصل الرابع تبدأ الكاتبة فى تصوير الجانب الآخر من الحياة التى تعيشها الأم . فترسم لنا صورة « الأب » الذى سيقوم بدور فعال فى أحداث القصة ، وبحيث يلقى ضوءا قويا على شخصية الأم ، طوال المواقف المختلفـــــة حتى النهاية .

فالحياة كانت لا تتغير فى نظر الأب ، ولا أمل أمامه فى جـــديد . بل ان ولادة الأولاد التى كانت الأم تجد فيهـــا لذة وسعادة ، لم تكن بالجديدة أمام ناظريه ، فقد كان الأولاد يولدون جميعـــا سواء متشابهين . لهم عليـــه واجب القوت والكسوة ، واذا كبروا وجب تزويجهم .. ثم يولد لهم أبنــــاء بدورهم فيجيئون جميعا أيضا « ماركة واحدة » وهكذا كانت الأيام تتعاقب متماثلة . وكل يوم لا يأتى بجديد .

وهو نفســـه قد ولد فى هذه المزرعة الصغيرة ، ولم ير فى حيـــاته جديدا الا ما كان من ذهابه أحيانا الى البلدة الصغيرة الكائنة وراء التل على ضفاف النهر . وهو اذا استيقظ فى الصباح ، صافح عينيـــه منظر التلال المنخفضة والسماء التى لا تتغير ولا تتبدل .. ثم يذهب الى الحقل فيظل يكد ويكدح حتى يجن الليل . ثم يعود الى البيت الذى ولد فيه وينام فوق الفراش الذى نام فيه من قبــــل مع والديه حتى كبر ، واعدت له مرتبة خاصة .

بل لم يكن من جديد فى هذا البيت سوى بعض الأدوات القلائل التى جىء بها عند زواجه .. وهى اناء لغلى الشاى وغطاء أزرق فوق الفراش وشـــمعدان جديد ، واله جديد من الورق لصق فوق الحائط ، وكان هذا الاله يمثل رجلا كهلا عليه مظاهر الغنى والمرح ، يرتدى ثوبا مؤلفا من الوان حمراء وزرقاء وصفراء متعانقة مؤتلفة .. لكنه رغم هذا المظهر الباذخ لم يجىء بالغنى المنشود الى هذه الدار ، وطالما تطلع الرجل الى هـــذا الاله ، ولعنه فى ضميره ؛ لأنه كان يطل فى مرح على هذه الغرفة الحقيرة التى كانت حقارتها لا تتغير ولا تتبدل .

وتظل هذه الأسرة الصغيرة تكد وتكدح مثل باقى الأسر الموجودة فى تلك القرية . ولكن الأب لا يحتمل تلك الحياة ذات يوم ، فيرتدى أفخم ثيابه ، ويسرق كل القطع الفضـــية التى كانت « الأم »

تخبئهـــا للطوارىء ، ويغـادر القرية ولا يعود اليها أبدا .

وقد ارادت بيرل بك بهذا الحدث ، ان تجعل شـــخصية « الأم » الاستاتيكية تتحول الى شخصية اخرى ديناميكية ، كلها حياة متطورة ، فيها صراع عنيف مع أعماق النفس ، ومع تقاليد القرية ، ومع أبنائها ، ومع الزمن . عند هــذه النقطة بدأت « الأم » تواجه عدة مشاكل فكل من فى القرية يســـألها أين ذهب زوجها ، حتى المرأة العجوز والأطفال . كلهم يســـألون .. اين ذهب الرجل ، ولماذا ذهب ، وبدأت همسات النسوة تتكاثر ، ولكن « الأم » كانت تبتدع فى كل مرة أكذوبة ، حتى أصبحت الأكذوبة الكبيرة التى ابتدعتها حقيقة واقعة ، بل لقد صدقت هى تلك الأكذوبة وعاشت فيها .

* * *

بدأت أحـــداث تطورات شخصية « الأم » بعد ان اختفى الزوج ، وظلت المرأة العجوز تسأل وتلح فى السؤال :

ـ ترى أين ولدى ؟ هل قال ابنى الى اين ذهب يا ابنتى ؟ عجيب .. أين ذهب ابنى ؟ .

وتجيب الأم قائلة :

ـ سيعود غـــدا ولا شك يا أمى ، فارقدى الآن ونامى .. سيعود غدا .
وتجيب الأم عندما يسألها أطفالها :

ـ سينام فى البلد بغير شك ، ويرجع غدا أو بعد يومين .. سيعود ولا ريب بعد ان تنفد منه تلك النقود .

وتستطرد فى لهجة مريرة :

ـ وبعد أن يتسخ رداؤه الجـــديد ، ولا يبقى بد من غسله .

ومرت الأيام ولكن الرجل لم يعد ، وزاد همس النسوة ، وجُن اليها ذات يوم ، ليعرفن سبب هجـــر الرجل . وعندئذ اختلقت لهن قصـــة ، لتحافظ على كبريائها وكرامتهـــا . فقـــالت لهن بجرأة :

ـ ان له صديقا فى مدينة بعيدة ، وقد أخبره هذا الصديق بوجود مكان يعمل فيه ويربح اجرا طيبا ، فلا نحتاج الى اجهاد انفسنا بالعمل فى الحقول . واذا لم يناسبه هذا العمل فسيعود سريعا ، اما اذا أعجبه ، فلن يعود حتى يمنحه سيده عطلة .

وذهلت العجوز وهتفت :

ـ ولمـــاذا لم يخبرنى بهذه القصة الطيبة وأنا أمه ؟ .

فانتحلت الأم قصة أخرى وأجابت :

ـ طاب منى يا أمى ألا أخبرك بهـا لأنه يعرف لسانك « السايب » ويخاف أن يعرف أهل القرية أكثر مما يجب . ولأنه يريد ألا يعرفوا شيئا اذا يستمر فى العمل .

فقالت العجوز وقد آلمها هذا القول :

ـ هل قال هــــذا حقا ؟ .. صحيح

يا ابنتى أننى كثيرة الكلام .. لكن لسانى « مش سايب » .

* * *

وهكذا ظلت الأم تكذب ، وتمعن فى الكذب والاختلاق وتحبك أطراف كذبها حتى تسبغ عليه طابع الحقيقة . واحتفظت بالهدوء والسكينة . وظلت تكدح بمفردها فى الحقل . وكان يشق عليها كما كان يشق على سائر الفلاحين أن تمنح المالك نصيبا من ثمار كدها .. لكنهم كانوا يتنازلون عنه صاغرين ، فكانت تحذو حذوهم .

لكنها كانت اذا انتصف الليل ، تبكى فى سكون ومرارة ولوعة . كانت تبكى لأنه ذهب وهجرها ، ولأنها أصبحت تستهدف للعار والفضيحة .. ولأنها امرأة وحيدة ، وقد بدت لها الحياة شديدة القسوة وهى تعول أربعة أنفس يعتمدون عليها .

وأخيرا وجدت حلا لأزمتها وحيرتها . فقد ذهبت الى كاتب رسائل ، بعد أن باعت كل ما ادخرته من الأرز ، وحصلت على ورقة نقدية ثمنا لها . فقالت لكاتب الرسائل :

ــ أريد أن أكتب رسالة باسان أخ لى يشتغل ولا يمكنه أن يعود الى بيته ، فاكتب ما أقول لك .. وهو مريض طريح الفراش .. ولذلك فانى أكتب بلسانه ..

وذكرت الأم اسم زوجها باعتباره اسم الأخ ، وذكرت اسم مدينة بعيدة كانت تعرف قربها لمسقط رأسها ، ثم ذكرت اسمها هى باعتباره اسم زوجة الأخ التى ستوجه الرسالة اليها ، كما ذكرت أسم قريتها لكى يبعث بالرسالة اليها ، وقالت له :

ــ اسمع ما يريد أخى ان يقول لزوجته :

« انى أشتغل شغلا متواصلا ولى مركز طيب ، والأكل متوفر لى ، وسيدى رجل كريم . وكل ما أؤديه من العمل هو اعداد الشاى لسيدى وتقديم قصبة التدخين له ، وحمل رسائله الى أصحابه وانى أتناول طعامى عنده وأنال ثلاث قطع من النقود الفضية فى الشهر ، وقد اقتصدت من أجرتى عشر قطع فضية حولتها ورقا ماليا له قيمة الفضة فى هذه الايام ، فانفقيها على أمى وعلى نفسك وعلى الأولاد .

فقال لها الكاتب : اهذا كل شيء ؟ .

فاجابت الأم : لا .. قل هذا ايضا .

« لم أتمكن من الحضور فى عيد السنة الجديدة لأن سيدى يحبنى كثيرا ولم يتيسر له أن يستغنى عنى . لكنى

سأحضر فى السنة القادمة اذا تمكنت ، واذا لم أتمكن فسوف ارسل اليك كل ما ادخره من أجرتى مرة فى السنة » .

وقل هذا ايضا .. « اخبرى امى العجوز انى سأحضر لها عند رجوعى قماشا احمر لصنع كفنها الثالث ، وسيكون من أجود الأصناف .. » .

وهكذا استطاعت الأم بتلك الأكذوبة المحبوكة أن تنقذ كرامتها وأن ترك زوجها للقرية ، انما كان للبحث عن عمل أرقى وأفضل . وأخرست الأكذوبة كل الأقاويل والهمسات .. بل لقد مكنت لأكذوبتها البقاء فترة طويلة حينما قالت فى رسالتها « واذا لم أتمكن فسوف ارسل اليك كل ما ادخره من أجرتى مرة فى السنة » . وعندما وصلت الرسالة الى القرية ، فرح الأطفال ، وظل الغلام يقول لكل من يصادفه ان رسالة وردت من ابيه . وأحدثت الرسالة دويا كبيرا فى القرية الصغيرة ، وتأكدوا من صحتها عندما راوا مع « الأم » الورقة المالية . فتراجعوا أمامها فى تجلة واحترام ، وسارت الأم الى بيتها فخورة مزهوة ، يتبعها الطفلان وهما يشاطرانها هذا المجد . ولكنها عندما خلت الى نفسها ظلت تبكى فى صمت وسكون . ولم تكن الرسالة ولا الورقة المالية سوى هباء أو كالهباء بالقياس الى كرامتها المجروحة . ولكن تلك الأكذوبة كانت لها قيمة كبيرة ، اذ لم يعد أحد من أهل القرية يعيرها بأنها امرأة هجرها زوجها . بل لقد جعلت بعض اهالى القرية يسعون اليها سرا للاقتراض منها ، وكان فى طليعتهم كاتب القرية وبعض الرجال المتبطلين الذين أرسلوا زوجاتهم للحصول على هذا القرض .

* * *

لقد كانت هذه « الأم » منذ بدء شبابها مخلوقة ذات مشاعر متأصلة ، واحساسات عميقة ، ولكنها ساكنة صامتة . كانت امرأة عميقة الفؤاد ، موفورة الحياء .. ولم يحدث قبل زواجها ، وحين كانت فتاة عذراء أن اتجهت بخواطرها الى الرجال من حيث هم رجال . وكانت اذا هزتها المشاعر العنيفة والأشواق الغريبة عن نفسها لا تتطلع قط الى الرجال لترى كنههم وتستقصى شأنهم ، بل كانت تطوى الضلوع على حنينها وأشواقها وتحتملها فى صبر وسكون وانتظار . فلما تزوجت وأدركت كنه الرجل ، سطع أمام عينيها قدر يسير من ذلك الحنين العميق الصامت الذى كان يجيش فى نفسها .

وفى براعة فائقة طفقت بيرل بك ، تحلل وتمهد الطريق للموقف العنيف الذى ستقع فيه الأم . فقد صورت لنا فى سطور قليلة بدون اسهاب او اطالة ، عذرية وشباب هذه الأم .. الى أن وصلت الى ذروة النضوج ، وعنفوان حياتها .. ثم هروب الزوج ، وتركها فى قمة الشباب ، مكبلة بأغلال المسئولية .. مسئولية أربعة أرواح . وبأغلال الكذب فلو كان فى عداد الأموات ، لأصبحت أرملة ، واتضح كل شىء . ولكنها كانت مضطرة كل يوم الى الكذب حين يسألها كل من يصادفها عن زوجها . لكنها عندما

تستقر فى بيتها ، تتمزق قلبا بهذا الكذب المتصل ، وكانت أحيانا تغمرها الوحدة ، ويطغى عليها الحزن ، فتهتف من أعماق قلبها : « ما أتعسنى وأشد وحشتى .. أنا التى أخلق لنفسى رجـلا من عالم الكذب والأوهام .. ! » .

* * *

ولم يفطن أحد الى ما تعانيه « الأم » من قسوة الوحدة ، والشوق الى الرجل الآ وكيل مالك الأرض ، الذى كان يحضر الى القرية ليأخذ نصيب المالك ونصيبه . استطاع هذا الرجل بخبرته ، وبغريزته ان يعرف ان هذه المرأة فى حاجة الى شىء . فظل يتردد اليها . ولم يأخـذ منها نصيبه ، قائلا لها :

« أنت الآن امرأة وحيدة وقد ذهب زوجك عن البيت ، وكل هذا المحصول من عملك الخـاص . ولن آخـذ من المحصول سوى نصيب المالك .. ولن آخـذ أى أجر منك أيتها الزوجـة الطيبة . »

وظل يحوم حولها ، حتى لم تقو على المقاومة . ونجحت بيرلد بك فى تصوير هذا الموقف الشائك ، أو مشهد الذلة التى وقعت فيهـا « الأم » بعد صراع عنيف جبار مع نفسيتها ، ولكن الغريزة المتأصلة فى أعماق الانسان كانت أقوى وأعنف . كانت كالاعصار الرهيب الذى يطوى كل شىء يصادفه . وجرف فى تياره « الأم » أيضا .

ففى الفصل العاشر ، صورت الكاتبة المشهد الشائك ، دون أن ينزلق قلمها فى مهاوى البورتوجرافية ، التى تتعمد اثارة الغرائز الجنسية فقط .

« واستولى عليهـا ذعر شديد لم تحس مثله فى حياتها » فقد أدركت أن هذا النهم الذى يساورها الآن سيزيد استعارا وضراما اذا لم ...

وهى لم تحلم بأنهـا سـتقوى على الرفض والتمنع وهى تعلم الآن أن هذا النهم الذى بها هو نفس النهم الذى به . وجعلت تئن أنينا عاليا وتناجى نفسها قائلة :

ـ من الخير الا ينالنى ! .. أواه .. كم أود الا ينالنى .. وأن أنجو ..

على أنها نهضت . عن الفراش ، حتى وهى ترسل هذا الأنين وغادرت القرية النائمة وعادت الى الحقول . وسارت فى الطـريق الضيق الملتوى الى حيث كان ينعطف حول معبد صغير مهجور .. حيث وقف الرجل عند بابه ينتظرها .. ولم تستطع أن تجاوزه .. كلا .. فقد دخل المعبد وانتظر ..

فتبعته الى الباب وأرسلت نظرها .. فاذا هـو واقف فى الداخـل يترقب ، وقد لمعت عيناه فى المكان الظليل كعينى الحيوان الوحشى .. فدخلت .

وقفا يتطلعان أحدهما الى الآخر فى الضوء الكليل ..

كانا مخلوقين غارقـين فى حـلم .

مستيئسين .. لا توقفهما قوى الدنيا في هذه اللحظة .. وتأهب كلاهما للأمر المحتوم ..

غير أن المرأة أمسكت لحظة .. فقد أفاقت من حلمها ورأت آلهـة المعبد الثلاثة .. كبيرهم كهل وقور يحدق أمامه ، والى جانبيه تابعات أقل شأنا .. وهم جميعا أرباب طيبون أقيمت أنصابهم في جانب الطريق للمسافرين ممن يتعبدون أو يلتمسون الاعتصام بالمعبد ..:

فتناولت الرداء الذي وضعته جانبا وذهبت الى الآلهة فطرحته فوق رءوسها ، وحجبت أعينها الناظرة المحدقة ... »

* * *

لقد ارتكبت « الأم » هذه الخطيئة مرة واحدة ، ولم تعد اليها ، وان كانت في شوق وحنين الى العودة اليها . ولكن بيرل بك لم تغفر لهذه الأم خطيئتها تلك ، بل صبت عليها اللعنات ، وعاقبتها أشد معاقبة . اذ أصيبت ابنتها الوحيدة الجميلة بالعمى . وعندئذ بدأت المرحلة الثانية من حياة « الأم » شاعرة بأنها قد اجرمت في حق ابنتها المسكينة ، وذلك بعد ان سمعت كلام الرجل الذي يبيع العقاقير :

« وما فائدة الحزن ؟ هذا مصيرها .. لأنها في حياة أخرى قد ارتكبت عملا شريرا أو نظرت الى مشهد محرم ، فاستحلت هذه اللعنة أو أن يكون أبوها أو أنت أيتها الزوجة الطيبة قد ارتكبتما اثما .. فمن يعلم سر الانسان ويطلع على خفايا قلبه ؟ لكن مهما تكن الحقيقة فان اللعنة واقعة هنا على هذه الصبية ولا قدرة لمخلوق على دفع القضاء ، ونقض ارادة السماء .. » .

لقد كان العقاب صارما ، خاصة وانه لم يقع على الأم مباشرة ، وانما حل بمخلوقة بريئة . عندئذ استحوذ على الأم شعور بالنفور والمقت من نفسها ، واحست بأنها تخلصت نهائيا من شهوات الشباب ونزواته وجماحه ، وانطوت صحائفه من سجل حياتها ، واطمأنت في نفسها صورة الرجل من حيث هو رجل .. ولم يبق في سمائها سوى ولديها وابنتها العمياء .. والعجوز .

وولى عهد الشباب عن الأم ، ونيفت سنها على الثالثة والأربعين . وتمرد الابن الأكبر ، وصرخ فيها عندما علم أنها وعدت الابن الأصغر بخاتم فقال لها :

« وهل كنت طفلا وأنا في الرابعة عشرة ؟ هل كنت العب في موسم الحصاد وأنا في الرابعة عشرة من عمري ؟ وهل كنت ترشينني بخاتم أو رداء جديد أو غيره ، مما لم أكن أربحه وأناله بكدي ؟ » .

ثم قال لها منفجرا « نعم ! .. أنت تحتفظين بالنقود ! .. وأنا أعطيك كل ما نربحه ! .. وأنا لا آخذ بنسا واحدا لشخصي ولا أدخن قصبة صغيرة ، ولا أشرب قدحا من الخمر ، ولا أشترى لنفسي شيئا مما يناله اى شاب ويعده حقا لنفسه ! .. ومع ذلك فانت تعدينه بكل ما لم أنله فى حياتى ! .. ولأى داع ؟ « لكى يقوم بالعمل الذى يجب أن يؤديه بلا مقابل حتى يدفع ثمن ما يأكل وما يشرب ! . »

* * *

عندئذ أحست « الأم » « أن الزمن يدور » ، وان الابن قد كبر . لذلك سارعت بتزويجه . وأحست انها تعيش فى دور جديد من أدوار حياتها .. دور الحماة . واستغرقت الكاتبة أكثر من فصلين لتحليل مشاعر الأم فى تلك المرحلة الجديدة والمشاكسات التى كانت تدور بينها وبين زوجة ابنها التى لا تلد . ونجحت « الأم » بعد لأى فى تزويج ابنتها لزوج لم تره . فقد جاء أحد اقربائه وأخذ ابنتها الى مكان مجهول . ومضت الأيام سراعا ، فاشتاقت الأم الى رؤية ابنتها ، فذهبت اليها بعد رحلة شاقة ، وعندما وصلت الى المكان الموحش الذى توجد فيه ابنتها . فوجئت بأنها . قد ماتت منذ لحظات . وكانت صدمة عنيفة وقاسية لأنها شعرت بأنها قد اجرمت فى حق ابنتها المسكينة وزوجتها دون أن ترى الزوج وأهل زوجها .

* * *

وتوالت الصدمات ، فقد قبض على ابنها الأصغر بتهمة الشيوعية ، وحاولت أن تنقذه ، ولكن فقرها حال دون ذلك وذهبت لترى ابنها وهم يعدمونه . وعادت الى القرية والأحزان تطفح منها . وهاتف من الأعماق يقول لها « كل هذا بسبب خطيئتك » . ولكن أليس للعقاب نهاية ؟ وما ذنب الأولاد الأبرياء . لقد عميت ابنتها وماتت بعيدة عنها . ثم رأت بعينيها الدم ينبثق من رقبة ابنها وهو يعدم . والآن .. انها تجلس وحيدة ، قلقة ، حتى أنها لم تر حفيد ابنها فقد مرت السنوات وزوجة ابنها الأكبر لم تلد .

كانت كل حياتها ، أن تجلس أمام الدار ، تستعيد ذكريات شباب أيام أن كانت تراقب اولادها وهم يلعبون فى التراب ، وأيام ان كانت تنتظر عودة زوجها من الحقل . واستعادت ذكريات الأكذوبة التى جعلت القرية تعيش فيها حتى أنهت الأكذوبة بعد مرور عشرين عاما ، بأكذوبة أخرى ، وهى موت زوجها لتستريح من التفكير المتواصل فى

زوجها ، ولتؤمن بالحقيقة الواقعة أن هذا الزوج قد ذهب ولن يعود .

وفيما كانت غارقة فى احلام ذكرياتها ، جذبها الى عالم الواقع صوت ابنهـا الأكبر صارخا :

ــ أمى .. أمى .. جاء ولـدى .. حفيدك يا أمى ! ..

وعنـدئذ شاعت الفرحة على جميع قسمات وجهها ، وذهبت مسرعة لترى حفيدها . وراحت تنظر اليه من رأسه الى قدميـــه وتضحك وتعاود النظر . واخيرا دارت بعينيها فى أرجاء الغرفة تلتمس زوجـة العم ــ المرأة الوحيدة التى كانت تعرف سر الخطيئة لأنها قامت باجهاض الأم ــ فاذا هى واقفـة بين النساء وقد تعلق بها بعض أحفـادها لرؤية هذا المشـهد .. وما كادت الأم « العجوز ترى زوجة العم حتى رفعت الطفل بيديها لكى تراه صاحبتها .. وهتفت وهى تضحك عاليا ، وقد نسيت امتلاء الغرفة بالنساء ، وبدت عيناها منتفختين من أثر البكاء المتصل :

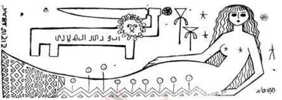
ــ انظرى يا بنت عمى ! .. انى أشك فى امتلاء نفسى بالذنوب ــ كما خيل الى فيما مضى .. هل رأيت حفيدى ؟.

وبتلك العبارة أنهت بيرل بك أروع قصصها « الأم » . واستطاعت خلال تسعة عشر فصلا أن تجعلنا نعيش بكل احاسيسنا ووجداننا مع تلك الشخصية النامية شخصية «الأم» ، ومع شخصية ابنها الأكبر ، وابنها الأصغر . بل مع كل شخصية فى القصـــة . فقد كانت حبكتها الفنية من الجودة والروعة بحيث لا يمكن أن تنتزع كلمة واحدة . ونجحت الكاتبة عن طريق السرد المباشر فى تحليل نفسية الأم ، تحليلا نفسيا دقيقا فى كل مرحلة من مراحل تطور الشخصية .

**▪ الحق . . أن هذه القصـة تعتبر من أبدع القصص الانسـانية التى تدور حول « الأم » . اذ بعدت عن الدعاية السياسية كما حدث فى قصة « الأم » لمكسيم جوركى . وتخلصت من الصـنعة وبعض الافتعال كما حـدث فى مسرحية « الأم » لكارل تشابك . ولذلك تعتبر القصة خير هدية لكل أم .. فى العالم .**

# مِن أقاصيص الأولين

عرض : د . محمد أحمد خلف الله



●● حدث ابو دلامة قال :

اتى بى المنصور وانا سكران ، فحلف ليخرجنى فى بعث حرب ، فاخرجنى مع روح بن حاتم المهلبى لقتال الشراه ـ الخوارج ـ .

ولما التقى الجمعان قلت لروح : ـ أما والله لو أن تحتى فرسك ومعى سلاحك لاثرت فى عدوك اليوم اثرا ترتضيه .

فضحك وقال : ـ والله العظيم لادفعن ذلك اليك ، ولآخـذنك بالوفاء بشرطك . ونزل عن فرسه ونزع سلاحه ودفعهما الى ، ودعا بغيرهما فاستبدل به .

فلما حصل ذلك فى يدى وزالت عنى حلاوة الطمع ، قلت له : ـ ايها الأمير ، هذا مقام العائذ بك ، وقد قلت بيتين فاسمعهما .

قال : ـ هات

فانشـدته :

| | |
|---|---|
| انى اسـتجرتك ان اقـــدم فى الوغى | لتطـــاعن وتنـــازل وضراب |
| فهب السـيوف رايتهـا مشـهورة | فتركتهـــا ومضيت فى الهـــراب |
| ماذا تقـول لمـــا يجىء وما يرى | من واردات المـوت فى النشـــاب |

فقال : ـ دع عنك هذا وستعلم .

وبرز رجل من الخوارج يدعو للمبارزة ، فقال : ـ اخرج اليه يا أبا دلامة .

فقلت : ـ انشدك الله ايها الأمير فى دمى .

قال : ـ والله لتخرجن .

فقلت : ـ أيها الأمير فانه اول يوم من الآخرة وآخر يوم من الدنيا ، وانا والله جائع ما شبعت منى جارحة من الجوع ، فمر لى بشىء آكله ثم اخرج .

فامر لى برغيفين ودجاجة ، فاخذت ذلك وبرزت عن الصف .

فلما رآنى الشارى ـ الخارجى ـ اقبل نحوى عليه فرو وقد أصابه المطر فابتل ، وأصابته الشمس فاقفعل ـ تقبض ـ . وعيناه تقدان ، فاسرع الى .

فقلت له : ـ على رسلك يا هذا ، كما أنت .



فوقف .

فقلت : ـ اتقتل من لا يقاتلك ؟ .

قال : ـ لا .

قلت : ـ اتقتل رجلا على دينك ؟ .

قال : ـ لا .

قلت : ـ افتستحل ذلك قبل أن تدعو من تقاتله الى دينك ؟ .

قال : ـ لا ، فاذهب عنى الى لعنة الله .

قلت : ـ لا افعل أو تسمع منى .

قال : ـ قـــل .

قلت : ـ هل كانت بيننا قط عداوة أو تره ، او تعرفنى بحال تحفظك على ، أو تعلم بين اهلى واهلك وترا ؟ .

قال : ـ لا والله .

قلت : ـ ولا انا والله ، وما أحمل لك الا جميل الرأى ، وانى لاهواك وانتحل مذهبك وأدين دينك وأريد السوء لمن أراده لك .

قال : ـ يا هـــذا جزاك الله خيرا فانصرف .

قلت : ـ ان معى زادا أحب أن آكله معك ، وأحب مواكلتك لتتوكد المودة بيننا ، ويرى اهـــل العسكر هوانهم علينا .

قال : ـ فافعـــل .

فتقدمت اليه حتى اختلفت أعناق دوابنا وجمعنا أرجلنا على معارفها والناس قد غلبوا ضحكا . فلما استوفينا ودعنى .

ثم قلت له : ـ ان هـــذا الجاهل ان أقمت على طلب المبارزة ندبنى اليك فتتعبنى وتتعب . فان رأيت الا تبرز اليوم فافعل .

قال : ـ قد فعلت .

ثم انصرف وانصرفت .

وقلت لروح : ـ اما أنا فقد كفيتك قرنى فقل لغيرى أن يكفيك قرنه كما كفيتك ، فامسك .

وخرج آخر يدعو الى البراز ، فقال لى : ـ اخرج .

فقلت : ـ

انى أعـــوذ بروح أن يقـــدمنى ... الى البراز فتخزى بى بنو اســـد

ان البـــراز الى الأقـــران اعلمـــه ... مما يفرق بين الـــروح والجســـد

قد حالفتك المنايا اذ صمدت لهـــا ... وأصبحت لجميع الخلق بالرصـــد

ان المهلب حب المـــوت أورثـــكم ... وما ورثت اختيـــار الموت عن أحـــد

لو أن لى مهجـــة اخرى لجدت بهـــا ... لـــكنها خلقت فـــردا فـــلم أجـــد

فضحك واعفانى .

●● جاء ابن أبى دلامة يوما الى أبيه وهو فى محفل من جيرانه وعشيرته جالس ، فجلس بين يديه ، ثم أقبل على الجماعة فقال لهم : ـ

ان شيخى كما ترون ، قد كبرت سنه ، ورق جلده ، ودق عظمه ، وبنا الى حياتهحاجة شديدة ، فلا ازال أشير عليه بالشىء يمسك رمقه ويبقى قوته ، فيخالفنى فيه . وأنا أسالكم ان تسالوه قضاء حاجة لى أذكرها بحضرتكم ، فيها صلاح لجسمه ، وبقاء لحياته ، فاسعفونى بمسالته .

فقالوا : نفعل حبا وكرامة .

ثم أقبلوا على أبى دلامة بالسنتهم وتناولوه بالعتاب حتى رضى وهو ساكت .

فقال : ـ قولوا للخبيث فليقل ما يريد ، فستعلمون أنه لم يات الا ببلية .

فقالوا له : ـ قل .

فقال : ـ ان أبى انما يقتله كثرة الجماع ، فتعاونوا عليـه حتى اخصيه ، فلن يقطعه عن ذلك غير ذلك ، فيكون أصح لجسمه واطول لعمره .

فعجبوا من ذلك وعلموا انه انما اراد أن يعبث بأبيه ويخجله حتى يشيع ذلك عنه فيرتفع له بذلك ذكر ، فضحكوا منه.

ثم قالوا لابى دلامة : ـ قد سمعت فاجب .

قال : ـ قد سمعتم انتم وعرفتكم انه لن ياتى بخير .

قالوا : ـ فما عندك فى هذا ؟ .

قال : ـ قد جعلت امه حكما بينى وبينه فقوموا بنا اليها .

فقاموا باجمعهم فدخلوا اليها ، وقص ابو دلامة القصة عليها ، وقال لها : ـ قد حكمتك .

فاقبلت على الجماعة فقالت : ـ ان ابنى ـ أصلحه الله ـ قد نصح اباه وبره ولم يال جهدا ، وما انا الى بقاء ابيه باحوج منى الى بقائه ، وهذا امر لم تقع به تجربة منا ، ولا جرت بمثله عادة لنا ، وما اشك فى معرفته بذلك . فليبدا بنفسه ، فاذا عوفى ورأينا ذلك قد اثر عليه اثرا محمودا استعمله ابوه .

فنعر ابوه وجعل يضحك به ، وخجل ابنه ، وانصرف القوم يضحكون ويعجبون من خبثهم جميعا واتفاقهم فى ذلك المذهب .

●● اقبل صرم من جرم ساقته السنة والجدب من بلاده الى بلاد بنى قشير ، وكان بينهم وبين بنى قشير حرب عظيمة ، فلم يجدوا بدا من رمى قشير بانفسهم لما قد ساقهم من الجدب والمجاعة ودقة الأموال وما اشرفوا عليه من الهلكة . ووقع الربيع فى بلاد بنى قشير ، فنصبت قشير لهم الحرب .

فقالت جرم : ـ انما جئنا مستجيرين غير محاربين .

قالوا : ـ مماذا ؟

قالوا : ـ من السنة والجدب والهلكة التى لا باقية لها .

فاجارتهم قشير وسالمتهم وارعتهم طرفا من بلادها .

وكان فى جرم فتى يقال له ميـاد ، وكان غزلا حسن الوجه ، تام القامة ، آخذا بقلوب النساء . والغزل فى جرم جائز حسن ، وهو فى قشير مكروه .

فلما نازلت جرم قشيرا وجاورتها أصبح مياد الجرمى فغدا الى القشيريات يطلب منهن الغزل والصبا والحديث ، واستبراز الفتيات عند غيبة الرجال واشتغالهم بالسقى والرعية وما اشبه ذلك ، فدفعنه عنهن وأسمعنه ما يكره . وراحت رجالهن عليهن وهن مغضبات .

فقال عجائز منهن : ـ والله ما ندرى أرعيتم جرما المرعى ام ارعيتموهم نساءكم ؟ .

فاشتد ذلك عليهم فقالوا : ـ وما أدراكنه ؟ .

قلن : ـ رجل منذ اليوم ظل محجرا لنا ما يطلع منا رأس واحدة ، يدور بين بيوتنا .

فقال بعضهم : ـ بيتوا جرما فاستأصلوها .

وقال بعضهم : ـ قبيح . قوم قد سقيتموهم ميـاهكم ، وارعيتموهم مراعيـكم ، وخلطتموهم بانفسكم ، واجرتموهم من القحط والسنة ، تفتاتون عليهم هذا الافتيات ، لا تفعلوا . ولكن تصبحوا وتقدموا الى هؤلاء القوم فى هـذا الرجل ، فانه سفيه من سفهائهم فليأخذوا على يديه . فان يفعلوا فاتموا لهم احسانكم ، وان يمتنعوا ويقروا ما كان منه يحل لـكم البسط عليهم وتخرجـوا من ذمتهم ، فاجمعوا على ذلك .

فلما أصبحوا غدا نفر منهم على جرم فقالوا : ـ ما هذه البدعة التى قد جاورتمونا بها ؟ ان كانت هذه البدعة سجية لكم فليس لكم عندنا ارعاء ولا اسقاء ، فبرزوا عنا انفسكم واذنوا بحرب ، وان كان افتتانا فغيروا على من فعله .

وانهم لم يعدوا ان قالوا لجرم ذلك .

فقال رجال من جرم وقالوا : ـ ما هذا الذى نالكم ؟ .

قالوا : ـ رجل منكم امس ظل يجر اذياله بين ابياتنا ما ندرى علام كان أمره ؟ .

فقهقهت جرم من جفـاء القشيرين وعجرفتها ، وقالوا : ـ انكم لتحسون من نسـائكم ببلاء ، الا فابعثوا الى بيوتنا رجلا ورجلا .

فقالوا : ـ والله ما نحس من نسـائنا ببلاء ، وما نعرف منهن الا العفة والكرم ، ولكن فيكم الذى قلتم .

قالوا : ـ فانا نبعث رجلا الى بيوتكم يا بنى قشير اذا غدت الرجال واخلف النساء ، وتبعثون رجلا الى البيوت ، ونتحالف أنه لا يتقدم رجل منـا الى زوجة ولا اخت ولا بنت ولا يعلمها بشىء مما دار بين القوم ، فيظل كلاهما فى بيوت اصحابه حتى يردا علينا عشيا الماء وتخلى لهما البيوت ، ولا تبرز امراة ولا تصـادق منهما واحدا فيقبل منهما صرف ولا عـدل الا بموثق يأخذه عليها وعلامة تكون معه منها .

قالوا : ـ اللهم نعم .

فظلوا يومهم ذلك وباتوا ليلتهم ، حتى اذا كان من الغد غـدوا الى الماء وتحالفوا انه لا يعود الى البيوت منهم أحد دون الليل .

غدا ميعاد الجرمى الى القشيريات . وغدا يزيد بن الطثرية القشيرى الى الجرميات ـ وقد كان من احسن من مضى وجها وأطيبه حديثا .

ظل يزيد عندهن باكرم مظل لا يصير الى واحـدة منهن الا افتتنت به وتابعته الى المودة والاخاء وقبض منها رهنـا وسالته الا يدخل من بيوت جرم الا بيتهـا ، فيقول لها : ـ وأى شىء تخافين وقد اخذت منى المواثيق العهود ليس لأحد فى قلبى نصيب غيرك ، حتى صليت العصر . فانصرف يزيد بامشاط وأساور وبراقع . وانصرف مكحولا مدهونا شبعان ريان مرجل اللمة .



وظل مياد الجرمى يدور بين بيوت القشيريات مرجوما مقصى لا يتقرب الى بيت الا استقبلته الولائد بالجندل فتهالك لهن وظن انه ارتيـاد منهن له ، حتى اخذه ضرب كثير بالجندل ورأى الباس منهن وجهده العطش ، فانصرف حتى جاء الى سمرة قريبا الى نصف النهار ، فتوسد يده ونام تحتها نويمة حتى أفرجت عنه الظهيرة وقامت الأظلال وسكن بعض ما به من الم الضرب وبرد عطشه قليلا ، ثم قرب الى الماء حتى ورد على القوم قبل يزيد ، فوجد أمة تذود غنما فى بعض الظعن ، فاخذ برقعها فقال : ـ هذا برقع واحدة من نسائكم ، فطرحه بين يدى القوم ، وجاءت الأمة تعدو فتعلقت ببرقعها فرد عليها وخجل مياد خجلا شديدا .

وجاء يزيد ممسيا وقد كاد القوم أن يتفرقوا ، فنثر كمـه بين ايديهم ملان براقع وامشـاط واساور ، وقد حلف القوم الا يعرف رجل شيئا الا رفعة .

فلما نثر ما معه اسودت وجوه جرم وامسكوا بايديهم امساكه .

فقالت قشير : ـ أنتم تعرفون ما كان بيننا أمس من العهود والمواثيق وتحرج الأموال والأهل ، فمن شاء أن ينصرف الى حرام فليمسك يده .

فبسط كل رجل يده الى ما عرف فاخذه . وتفرقوا عن حرب .

وقالوا : ـ هذه مكيدة يا قشير .

فقال فى ذلك يزيد بن الطثرية .

فان شئت يا ميـاد زرنا وزرتم ... ولم ننفس الدنيـا على من يصيبها
ايذهب ميـاد بالبـاب نسوتى ... ونسـوة ميـاد صحيح قلوبهـا

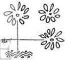
# القرية التي عرفت الحب

بقلم: محمد جبريل

فجاة . صارت القرية الوادعة وكأنها خلية نحل : ناس تذهب وناس تجيء ، ورجال تناثروا فى هذه الناحية وتلك ، وكلام كثير عن محمد سليمان وحكايته المثيرة ..

والحكاية مثيرة حقا ..

فقد كان الشاب عائدا الى بيته — ذات ليلة — والدنيا ظلام . وصادف فى طريقه أربعة كلاب تمارس وأثناها علاقة حب . ولم يكن فى ذلك ما يثيره أو يدهشه ، فقد اعتاد أشياء عند عودته ، كل ليلة ، من دكان الحاج يوسف .. يصادف بعض الأعراب ، يتبـــادلون أنفـــاس الحشيش بعيدا عن أعين الرقباء ، ويرمى سلامه ويمضى . لكم دينكم ولى دين . ويتعثر فى عنـــاق بين عبد المولى الخفير النظامى وســـنية خادمة بيت العمدة ، فيبسمل ويمضى . ولله فى خلقه شئون . والكل قرية واحدة .. أسرة واحدة ، ولا غرباء . فعائلة الحمصـــانى تقيم فى الناحية الشرقية ، وعائلة حفنى تقيم فى الناحيـــة الغربية ، وعائلة ابراهيم القاضى — والتى لا يتجاوز عدد أفرادها أربعة عشر شخصا — تقطن على مجرى النيل . فقط ، ثلاث عائلات والغيطان والكوبرى والجرن ومطحن الذرة وشونة بنك التسليف ، والبيوت الواطئـــة من الطين ، والنخيل السامق كمردة تناطح السحاب .. وهذا يحيى ، وذاك يسلم ،



وكيف حال خالة تفيدة ، وبقرة عبد التواب مريضة ، وجاموسة ابراهيم تدير الساقيتين . ونفيسة عليها الطلق وفرح لواحظ يوم السبت ، ومساء الخير يا حضرة العمدة ، وأنا خفير البلد : أنا الكل فى الكل .

وهذه الكلاب ، لا شيء يثيره أو يدهشه .. فقد مضى العهد بينه وبين الشقاوة والبحلقة . ويبتسم بلا ارادة منه لما يتذكر ذلك الجانب المضيء من حياته .. عنكب يا عنكب وكرة الشراب والطابة والاستحمام فى الترعة وجنى القطن وليالى الحصاد ، والآذان تنصت فى شغف الى حديث يوسف الخولى عن حسان ابن العمدة وكيف دخل على زوجته بهية دون ماشطة ، والعبارات الجنسية الصارخة التى تقولها سلامة العرباوية فتتبادلها الشفاه الصغيرة فى لذة ونشوة ، وحادثة بيومى النوبى مع وهيبة الغازية ، انها لازالت عالقة بذهنه كأنها مضت منذ عهد قريب .. ثم جلوسه والشبان على المصاطب فى هدوء ورزانة ، وقد نمت الشوارب ، وغلظت الأصوات ، وتوارت البنات فى البيوت ، وأصاخت الآذان سمعها لكلمات خطيرة مثل المنكر والعيب .

وجاوز محمد سليمان الكلاب بأمتار ، ولم يحاول حتى أن يهش عليها .. ولكن الأنثى الخبيثة ــ لسبب لا يدريه ــ تصنعت الفزع ، وجرت ..

واستحالت شهوة الكلاب حقدا مسعورا على محمد ، تعضه وتنهش لحمه .. والشاب يصرخ ويستغيث ، ويدفع بيديائسة أفواه الكلاب أن تصيب بطنه . لم يكن صراخ الشاب مبعثه الألم ، شغله الحرص على بطنه من أن تنالها أفواه الكلاب ، فيموت . نسى الألم ، ولكنه تذكر نصيحة سمعها ، يوما ، بأن يحرص على بطنه من فم الكلب ، فلا شيء أخطر من هذا . ولما ظهرت المشاعل فى أطراف المكان ، كانت الكلاب قد عقرت ساقيه وظهر كفه ، ثم جرت ..

ظلت الحكاية اياما ، محورا لأحاديث القرية . قال الشيخ زناتى أن بطن الشاب سلمت من الأذى .. فهو اذن سيعيش ! . وهمس بعض العائدين من البندر ، ان جسد الشاب أصبح كالمنخل من الابر الكثيرة التى حقن بها فى المستشفى ، وربما يموت ! .

وتحولت الأحاديث ــ فجأة ــ من مجرد التعليقات التى ترثى وتشفق وتحلل الأمور ، الى ما يشبه الهذيان الذى لا يجد بداية ولا نهاية ولا رابطا . نسى الجميع محمد سليمان وتذكروا أنفسهم . خطر مفزع ، أغلق الأبواب المفتوحة ، وأطفأ الكلوبات السهرانة ، وانام القرية من المغرب .. فقد ظهر أحد الكلاب عند مدخل القرية ، وعقر طفلا . قال الشيخ زناتى :

ــ هذه الحادثة لها ما بعدها يا أولاد فالكلاب مسعورة وانتهى الأمر ..

ــ وماذا نفعل يا سيدنا ؟ .

ــ أنتم رجال .

ــ القتل ليس حرفتنا ! .

ــ ولكنه الآن حرفة الكلاب ..

ــ فماذا نفعل ؟ .

هز الشيخ كتفيه ، ولم يحر جوابا . استغرقته غيبوبة صوفية عميقة ، صرفته عن الناس ، وعن كل ما حوله .

ونفض عبد المولى الغبار عن سلاح قديم وهبه لمن يقف الى جانبه ، فيد واحدة لا تصفق . تفحص حسان السلاح جيدا وقلبه بين يديه ، ثم قال فى أسى :

ـ لا يصلح لقتل ذبابة ! .

قال عبد المولى :

ـ ابن الأبالسة سرق السلاح كله ..

ـ عطوة ؟ .

ـ كاد أول أمس يسرق سلاحى الميرى ..

ـ والحل ؟ .

نطق الشيخ :

ـ ساكلم عطوة .

الشيخ زناتى يكلم عطوة ؟ ! . يقابله ويسلم عليه ويأخذ منه ويعطى له ؟ .. هل الشمس ما زالت تطلع من الشرق ؟ . وهل الكون كما هو ، لم يختل نظامه ؟ وهل جذبت الصوفية الشيخ زناتى ، فلم يعد يدرى من هو عطوة !؟ .

كان عطوة ـ حقيقة ـ واحدا من أبناء القرية . وكان والده الشيخ أمين يخرج الى الغيط ويعود ، مثل كل الرجال ، وعلامة الصلاة كأنها النبقة فوق جبهته . ولكن عطوة لم يعد من أبناء القرية .. أغلق الجميع أبوابهم فى وجهه . حتى الشيخ زناتى كان ، حين يراه ، يلوى بوزه ويتمتم : لا أكلمك حتى تستقيم . بدأ بسرقة بعض الأوانى النحاسية من بيت وهيبة الغازية ، وانتهى بسرقة السلاح من القرية كلها ، حتى يأمن الأذى .

العجيب العجيب أن الشاب لم يرفع السلاح مرة فى وجه أحد . بل ان أحدا لا يستطيع أن يضع الشهادة بأنه هو السارق فعلا .. والشاب يرسم على وجهه ابتسامة طيبة ويقول لعبد المولى :

ـ هل آذيت أحدا ؟ .. هل يملك أحدكم الدليل على أننى السارق ؟ ..

ويصرخ فيه عبد المولى :

ـ اذن .. ماذا تعمل ؟ ..

ـ اتصرف .

ـ تهزأ بى ؟ .. سأبلغ المركز وليكن ما يكون ! .

ـ ألا ترى أن بندقيتك ما زالت فوق كتفك ؟ .. ضياع البندقية الميرى جناية يا عبد المولى ..

ويبحلق عبد المولى فى فزع ، ويتحسس بندقيته فوق كتفه ، ثم يتحول عن الشاب فى خطوات ثائرة ..

قال الرجال :

ـ أما من حل آخر ؟ .

قال الشيخ :

ـ لا حل سواه .

ـ نأتى بسلاح جديد ..

ـ البندر على مسيرة أيام .. وعطوة على مسيرة لحظات .

ـ هل نفتح له أبواب بيوتنا ؟ .

ـ افتحوا له قلوبكم .

ـ لكنه لص ؟ .

ـ هل رأيتموه يسرق ؟ هل قتل أحدكم ؟ .

ـ أنت تردد كلامه ..

ـ ربما .. لكنه الحق .



واشاح حسان ـ لأول مرة ـ فى وجه الشيخ زناتى ـ بيده ، وصاح فى غضب :

ـ لا نضع أيدينا فى يد مجرم .

قال الشيخ :

ـ فليرحمكم الله .

.. عطوه فى القرية . بندقيتــه على كتفــه ، وخطواته ثابتــة ، والرجال يخالطونه بحــذر ، والأعين المتلصصة ترقبه خلال النوافذ المغلقة . وانفلت جودة ابن سكينة الماشطة من باب البيت ليرى عطوة ويسلم عليه ، ولكن أمه جرت وراءه وأعادته وهى تبسمل وتحوقل وتلعن اولاد الحرام وروى الشيخ زناتى حكايات كثيرة عن عطوة والشقاوة التى دفعته الى السرقة ، ولكنه فى الأصل ابن ناس طيبين .. فوالده الشيخ أمين ، رجل ولا كل الرجال ، يعيش على فدان ونصف وحياته مثل الصراط المستقيم . وطالمــا نصح عطوة ان يرجع الى عقله ويساعده فى الغيط ، ويصعب الشيخ على قلب عطــوة ، فيعود الى البيت والغيط ، ولكن الطبيعة الشقية ما تلبث أن تعاوده ، فيسرق أى شىء ، ويواصل سيرته الأولى ..

ـ لماذا يا سيدنا ؟ .

ـ حتى يصبح عطوة .

ـ لسنا نفهم ؟ .

ـ حتى لا يصبح الكل عطوة .

ـ تشتمنا يا سيدنا ؟ .

ـ فى القرية اسماء وأسماء ، كانهــا ذرات التــراب .. فى القــرية عشرات العطوات .. ولــكن اسم عطوة عنــدما يردده الجميع لا يعنى الا شـــــخصا واحدا .

ـ لأنه يسرقنا ..

ـ لأنه يثيركم .

ـ تريد أن تسرق ؟ .

ـ حفظ القرآن فى الثامنة أمر مثير .

ـ انه سارق ..

ـ ما معنى البداية والنهاية اذا كان الوسط فارغا ؟

ـ لقد شغله بالسرقة ..

ـ لقد أصبح الرجل المهم .

.. تفرق الرجال فى الغيطـــان وبين عيدان الذرة ، وكانوا يطلقون النار على أى جسم يتحرك ، حتى كلب حســان الأرمنت أردته رصاصة . ومر يوم وثان وفى اليوم الثالث قتل بيومى ببندقيته أول الكلاب ، وكان فى طريقه الى خارج القرية . ثم حاصر عبد الغنى أحـــد الكلاب داخل الجرن القـــديم ، وضربه بالهراوة حتى مات . والقى عطوة ، عصر اليوم الرابع ، بجثـــة كلب ثالث أمام الرجال . كانوا أربعة ، هكذا قال محمد سليمان قبل أن يرحلوا به الى البندر . وفى الليل تناهى الى الآذان ، عبر الغيطان الممتدة ، عواء غريب متقطع .. ثم أطلقت سكينة الماشطة ــ فى الصباح ــ صرخة ملتاعة ، فقد سطا الكلب على معزتهـا ومزق بطنها ..

رفع عطوة بندقيته على كتفه ومضى . هم عبد المولى بمرافقته ، لكن عطوة قال فى جد :

ــ يبدو انه أخطر الكلاب .. دعه لى

وتغضت الساعات بطيئة قلقة حائرة .

وقال عبد المولى وهو يتسلل بعينيه الى وجوه الرجال :

ــ أخاف على عطوة .

قال حسان فى ثقة :

ــ عطوة رجل .

وخرج الشيخ من غيبوبته :

ــ عطوة الرجل المهم .

وظل عواء الكلب المتقطع يتناهى عبر الغيطان . ومالت الشمس الى المغيب ، والرجال فى أماكنهم ، والصمت الزافر يسود كل شيء .. ثم علا العواء فجأة واختلط ، فكأنه أصوات عديدة متداخلة ودوت رصاصة ، ثم عاد الصمت أكثر عمقا ، قبل أن يظهر عطوة عند مدخل القرية .

.. سار عطوة فى شـــوارع القرية ، ورجال وعيال يكلمونه وينظرون اليه ، وأحاط حسان خصره بساعده فى مودة ، واختلطت الكلمات والدعابات والضحكات وفتحت البيوت أبوابها ، وظلت الكلوبات مضـــاءة حتى الفجر ، والتف الرجال حول وهيبة الغازية ، حتى انهد جسمها من الرقص .. وقال الشيخ زناتى :

ــ ربما أصبح عطوة واحدا من القرية ، وربما أصبحت القرية عطوة .. والأمر يستوى .

# الذى مات

بقلم
فخرى فايد

— ١ —

من خلال حديد الشرفة تسلل غصن أخضر تفتحت أطرافه عن زهور جميلة لونها خليط من الأبيض الناصع والأزرق المشرب بالحمرة . ليستقر فوق مقعد من قماش .

فى مواجهة المقعد . علق على الحائط قفص بداخله عصفور يقفز مزقزقا فى حبور للصبح الجديد .

من باب الشرفة أقبل فتى يمتلىء حيوية . وتفيض قسماته بالبشر جلس على المقعد ، وتطلعت عيناه الى العصفور ، وابتسم فى حب ، وهمس يحادثه .

— ايه عصفورى الحبيب . لقد آن لك أن تنطلق من قفصك الى الحياة الرحبة لتحقق ارادتك . انه عهد قطعته على نفسى أن أدعك طليقا فور انتهائى من دراستى . وها أنا قد أتممتها بنجاح . وأى نجاح . ثانى دفعتى . أى أننى ساعين معيدا . فلقد عين الثلاث الأول فى العام الماضى معيدين — وتنهد فى سعادة — نعم سأصبح معيدا وتتاح لى الفرصة لكى أدرس . وأدرس . وأتوسع ..

وشرد بصر الفتى . واستحال همسه الى صمت . وغامت عيناه بالرؤى .

فاذا به جالس الى مكتبه يبحث . وينقب . ويستخلص معارف جديدة تجعله يستعذب ما يبذل من جهد . فيستمر . ويتعمق .. حتى تكشفت له كل الطلاسم التى حيرت أساتذته فأوقفتهم أمامها متسائلين فى عجز عن مسبباتها ! .

ثم يقفز به خياله فاذا به يحمل رسالته لتناقش أمام لجنة من فطاحل العلماء الذين جلسوا منصتين له فى اعجاب ، وقد بهرهم ما يسوق من حديث . حتى ان أستاذه القديم نهض متجها اليه ، وراح يشد على يده مهنئا وهو يردد فى اعتزاز .

— نعم التلميذ أنت . رائع . رائع يا أستاذ . بل اكثر من رائع . فتتلاحق دقات قلبه ، وتغمر الفتى سعادة لاحد لها . يتوقف أمامها خياله لا يريد أن يفلتها دون ان يستخلص منها أقصى متعة . فيروح يستعيد الصورة مرة . ومرة : فاذ بالأستاذ ينهض . واذ باليد تعانق اليد . واذ بالفم يعيد .

— رائع يا أستاذ . رائع . بل أكثر من رائع .

وتنساب كلمة : أستاذ بين حناياه تدغدغها بحذر اللذيذ . فغاية الأمل أن يكون أستاذا .

ولكن هل يرتضى الجمود عند حدود معينة ؟! ..

لا . أبدا . انه لن يتوقف . سيسمى دائبا الى آفاق أرحب وأسمى .

وسرعان ما يستجيب خيال الفتى : فاذا بواجهات المكتبات تزدان بكتبه . واذا به صاحب مذهب محدد ، ومدرسة معروفة . واذا بالبيئة العلمية تتخاطفه ، فتدعوه لحفلاتها ، وتقيم له الندوات . بل وتصدر عنه كتبا عديدة تحكى قصة نجاحه .

ويفيق الفتى على صوت أمه ينساب من داخل البيت مستفسرا .

ــ الن تذهب الى كليتك يا بنى لتعرف ما صار اليه أمرك . فلك ايام لا تفعل شيئا غير الجلوس الى عصفورك واطعامه

ــ ٢ ــ

كف العصفور عن تحليقه داخل القفص . وتشبثت أظافره بالحديد البارد . ودعك الفتى عيناه . وهز رأسه مرات ليفيق ثم تمتم .

ــ انى ذاهب لتوى يا أماه .

وقام من مجلسه . ووقف قبالة القفص ، ومد أصبعه من خلال القضبان محاولا أن يلمس العصفور . لكنه لم يستطع . فلقد حال الحديد بينه وما يريد ، فتنهد .

ــ عليك يا عصفورى أن تنتظر قليلا حتى اطمئن واعرف الى اين ستمضى . نعم يجب أن تنتظر أياما أخر . فمصيرك فى الواقع لم يزل مجهولا . ومن النزق أن أدعك تمضى هكذا دون استناد الى واقع مادى يطمئننى على مستقبلك حتى لا تروح تتخبط وسط متاهات لا تحدها حدود . فتمتلىء نفسك بالمرارة والأسى . فما أقسى أن نشعر باننا نضرب فى الحياة بلا هدف . فى حين تتساقط لحظات وجودنا فى رتابة كالعدم فننتهى وكاننا لم نكن ليمتصنا باطن الأرض فى قبور بلا شواهد .

وغلفت وجه الفتى سحابة حزن . ثم استدار مبتعدا

ومر الوقت ..

وبدات الشمس تغوص مختفية فى الأفق الغربى ، فانكمش العصفور يزقزق بصوت خفيض أغنية الوداع . وانفتح باب الشرفة عن الفتى . الذى انهار فوق المقعد ، ونظر الى العصفور فى حزن ثم غطى وجهه بكفيه وراح يغمغم فى قنوط .

ــ ليس لك الا أن تموت . ليس لك الا أن تموت .

وبعد لحظات . رفع وجهه . وتطلعت المنكمش فى قاع القفص ، وقطرت كلماته عيناه وقد أشرقت بالدمع الى العصفور مرارة .

ــ لقد أنتهى كل شىء .

وعاد يدفن وجهه بين كفيه : لقد انتهى كل شىء . لن يأخذوا معيدين هذا العام .

فجاة صفى ذهنه فتساءل : هل يدعو هذا لليأس ؟!

تحرك العصفور فنفض ريشه : بحق لم اليأس ومجالات الدراسة مفتوحة ، ومجالات العمل أوسع . فلم لا ينزل الى الحياة العملية ليطبق أفكاره ويحققها ! .

ورأى الفتى نفسه فيما يرى النائم ، وقد وقف فى أحد المعامل يحلل . ويختبر . ويستنبط . وكان يرتدى معطفا أبيضا ... أبيض كسحابة صيف .

— ٣ —

جلس الفتى فى سريره يقلب صفحات الجرائد :

« مطلوب كاتب حسابات متمرن » .

« شركة تطلب مشرفا اجتماعيا » .

« مكتب كبير بحاجة لسعاة » .

« مطلوب مترجم »

« أمين مخزن » .

« مندوبين بالعمولة » ..

« فراشون » .

— أليس هنــاك من يحتاج الى مبتكر ؟! ..

ويقلب الفتى الصفحة ..

ثم يبدل الجريدة ..

وتتبدل الأيام ..

وتســاله امه : ألم تعثر على عمل يناسبك بعد ؟ .

— جميعهم يريدون آلات . أجساد لا عقول .

— ولكن يجب أن تعمل يابنى .

— مستحيل ان اقبل مثل تلك الأعمال . والا فلم أجهــدت نفسى فى الدرس والتحصيل !! .

وتشفق الأم عليه فتبتلع ما كانت تود ان تقول . تسكت لحظات ، ثم تقتنع بأن عليها أن تقول . يجب .

— يابنى أن . انه صاحب البيت . انه يطــالبنا بالايجار . كذا البقــال والجزار كل يريد ماله ، ومعاش أبيك الذى كنت تناله انقطع مذ تخرجك . وما آخذه انا لا يكفى كلانا . لم لا تنزل الى الطريق لتطرق الأبواب بقبضتيك ! .

— وماذا أقــول . هــل أصرخ مع دقاتى : فتى مجتهد للبيع ؟ .

— لا أقول لك أفعل هــذا يا بنى . ولكنى أرى أنك تملك العلم والشباب وكلاهما يكفل لك الوصول لما تريد .

— ٤ —

.. وينزل الفتى الى الطــريق . وتحمله ساقاه الى كل مسلك . ويقابل بابتسامة مشجعة : قد تجد ما تريد عند الآخرين . ان ما نريد هو ذلك الذى أعلنا عنه بالجرائد .

ويتحرك الفتى . يذهب الى الآخرين ليقولوا له : عند الآخرين .

والحذاء نعله تمزق . والطريق الذى كانت تسقط فوقه خطواته . ليتحرك فى سهولة ، أخذ يلتهب ، ثم يتشبث لاسعا ببقايا الحذاء والجورب . وأكدت الأم .

ـ لابد لك من حـــذاء جـــديد والا ستشل ساقاك .

ـ من اين ؟ .

ـ من كدك .

همس فى استسلام :

ـ نعم . من كدى . من كرامتى . من آمالى .

ـ يا بنى اذا أردنا أن نبدأ فعلينا أن نضحى ببعض من مظـاهر طموحنا .

اما اللب فعلينا الا نفرط فى ذرة منه .

ـ اذن ساذهب غـــدا لأتسلم ذلك العمل الحقـــير . لكن لن أستسلم . سادرس فى فترات راحتى .

وشعر الفتى بانه يكره قدميـــه . والجـــزار . وصـــاحب البيت . وكل ماديات الحياة التى تدفعه لكل هـــذه المهانة .

ولم يجد الفتى راحته الا فى البكاء .



– ٥ –

جلس الفتى وأمامه آلة حاسبة يدق أزرارها فى رتابة ثم يضغط ببطن يده زر عريض فتتحرك الأذرع مجمعة رقما كبيرا فى اللوحة الشفافة .

أرقام ضخمة . جنيهات يستطيع ان يشترى بها مراجع ومراجع . آخر الشهر .

حينما امسك بالجنيهات التى وضعوها فى كفه تبخرت آماله . وشعر بحنق ومرارة عظيمين : يا الهى . أهكذا يكون كد الانسان بخسا فلا يكفى حتى لسداد مطالب فمه !! .

وبلا وعى راح الفتى يقلب الجنيهات بين كفيه وهو يحس بالمهانة ! .

– ٦ –

قالت الأم : يجب أن تحاول العمل أكثر من هذا يا ولدى . فالشتاء على الأبواب . وملابسك كادت تضحى أثمالا .

وتوسل الفتى حتى استطاع ان يظفر بساعات عمل اضافية تبخر اجرها فى وقفة امام واجهة احدى المكتبات .

وكان عليه أن يستمر فى عمله الجديد بعد أن اقنعته لسعات البرد بضرورة شراء حلة جديدة .

فى الليل . كان الفتى ينظر الى ما اشترى من كتب والحسرة تمزق أعماقه ، والألم يعتصر جسده المكدود ثم يرتمى فوق فراشه وقد شمله قنوط مريع .

– ٧ –

تساءلت الأم ذات صباح قبل أن يغادر البيت : لقد نسيت عصفورك يابنى فلم تعد تطعمه . ولقد كاد خزينه ينفد .

أجابها متأففا وهو يسحب الباب وراءه : ساحضر له طعامه . وان كنت أرى أنه لم يعد يهمنى . فلقد كان مصدر آلامى . ليته يموت . وتمر الأيام ..

والأم تلح . والفتى لا يجد من الوقت ما ينفقه فى ابتياع غذاء لعصفوره .

– ٨ –

سأله زميل فى العمل عن المراحل التى قطعها فى اعداد رسالته ، وعلل تساؤله بأنه قرأ فى جريدة اليوم ان هناك هيئة كبيرة ستعطى منحة تفرغ للأول الذين سيتقدمون بتخطيط مدروس .

ماجت أعماق الفتى بانقباض قاتم .

وخرجت كلماته لا تحمل اسمه ، جواب . مجرد صرخات يائسة :

ـ انها تدفعنى دائما من وراء . انها تصرخ فى : طعامك لا يكفى .

ملابسك لا تلائم . دائما تصرخ فى . دائما . دائما فلا أكاد أدرك الى أين أمضى

ومضت الساعات . .

وفى طريق العودة عرج الفتى على دكان ليشترى طعاما لعصفوره لكن الدكان كان مغلقا . فاتجه لبيته . ولما سالته أمه :

ـ ألا تتعشى يابنى ؟ .

أجاب بانه لا يريد أن ياكل ، فلا ميل به للطعام .

- ٩ -

حينما أوشك الليل على الانتصاف . شعر الفتى بحنين جارف لرؤية عصفوره فنفض عنه الغطاء وفتح باب الشرفة . كانت الريح تعوى ، والرعد يدوى . والبرق يضىء فى ومضات محمومة مرتعشة .

اقترب الفتى من القفص وبحلقت عيناه فلم تريا شيئا . كان الظلام قاتما . وانتفاضات البرق خامدة .

قرب وجهه من القفص حتى التصق الحديد باردا بجبهته .

ودوى صوت الرعد . وتألق نور البرق خاطفا . للحظة لمحت عيناه العصفور وقد ارتمى ميتا على أرض القفص . وتوجعت أعماق الفتى . وود بكله لو انه الذى مات . ودوى صوت الرعد من جديد لكن البرق لم يومض . وتسمر الفتى يرتعد وسط قتامة الظلام .

- ١٠ -

من بعيد أتاه صوت أمه متسائلا فى قلق :

ـ لم انت مستيقظ للآن يابنى . انسيت أنه يجب عليك أن تصحو مبكرا لتستطيع اللحاق بعملك ؟! .

استدار الفتى عائدا الى حجرته وهو يرتعد . ثم رفع صوته فخرج متسلخا كانه بكاء :

ـ لا لم أنس يا أمى .

وارتمى فوق فراشه فاحس بالوحشة وزادت انتفاضات بدنه . فمد يده يجذب الغطاء فوقه . وشعر بالدفء فتمتم متنهدا :

ـ حقا يجب أن أستعد لغدى . كل ما علىّ أن أغمض عيناى وسأنام .

وانفرش اللحاف فوق الفتى فغطاه . وبدا الفراش فى الظلام منبعجا من الوسط كقبر بلا شاهد .

# القصة حول العالم

النسبية بين القصة والاقصوصة

يقدمها : على شلش

## اخبـــار القصة فى العالم

كان المطر يتساقط فى الخارج مع زفيف الرياح ، وحين سكنت هـــذه اصبح رذاذا ذا ايقاع رتيب . وكان البخار يغطى نافذة عربة الطعام الملحقة بالقطار ، وثمة رجل جالس بمفرده فى مقصورة يمسح البخار من حين لآخر ، ويحملق فى الليـل الحالك . ويلبث هكذا حتى يرى أضواء كاشفة لسيارة وهى تكتسح الطريق البرى المنزلق ، فيراقب المصابيح الحمراء فى مؤخرتهـــا وهى تغيب عن بصره ، ثم يدير راسه ، ويرشف قهوته .

ــ هات فنجانا آخر من القهوة .

رفع الساقى عينيه من صحيفة سباق الخيل التى كان يدرسها ، وصب من اناء القهوة فنجانا على مهل .

قال : « هذه الليلة ليست شديدة الوطاة ، اليس كذلك ؟ » . ثم وضع الفنجان على المائدة .

نظر الرجل الجالس حوله فى عربة الطعام الخالية وقال : « بل هى ليلة ليلاء » ثم راح يقلب السكر فى قهوته .

حك الساقى راسه وقال مرة اخرى :

ــ كنت اقصد ان الجو ردىء للغاية فى الخارج . الطقس سيىء .

كف الرجل عن تحريك السكر ورفع عينيه :

ــ ادركت تماما انك كنت تتحدث عن الطقس .

قال الساقى : « ليكن » ، ثم عاد الى صحيفته .

نهض الرجل الجالس فى المقصورة وسار الى المنضدة التى يقف الساقى وراءها . قال وهو يخفض صوته كانه اراد أن يدلى بشىء سرى للغاية :

ــ كل شىء نسبى . نسبى بدرجة مطلقة لا تقبل الشك .

اخذ الساقى ينظف أسنانه بمسواك الأسنان . وشرع فى أن يقول شيئا ، لكنه توقف ، وغير رأيه ، ثم قال :

ــ كل ما قلته كان أن هذه الليلة ليست شديدة الوطاة .

ــ بالضبط . وليس بالضبط اذا تحدثنا بلغة النسبية . لكن هنا توجد الخدعة .

وحملق فى وجه الساقى ثم استطرد :

الشىء النسبى قابل للتغير . قابل للتغير بدرجة مطلقة . معظم الناس يعرفون ان الاشياء نسبية ، لكنهم ينسون أن الشىء النسبى قابل للتغير .

طوى الساقى صحيفة السباق ، وبدأ يمسح المنضدة بخرقة . وراح الرجل الذى جلس الى الجانب الآخر من المنضدة يراقب الحركات الدائرية للخرقة وكأنه نوم تنويما مغناطيسيا .

توقف الساقى فى النهاية وقال :

ــ اسمع ، يا حضرة . لا تجعل من الحبة قبة . انك تثير أعصابى .

وحملق فى الرجل ، ثم ركز عينيه على المنضدة ، وخبط عليها بيده خبطة قوية وقال :

لو لم تكن الليلة ليلة عفنة لقذفت بك الى الخارج !

ارتسمت ابتسامة على وجه الرجل وتوتر مرة ثانية اذ تحدث .

ــ ها ! انك تدلل على صحة رأيى .

واشعل سيجارة :

تقول انها ليلة سيئة . وهذا القول يمكن ان يكون صحيحا لو اضفنا اليه انك تقارنها بليلة لم تمطر ، يتلألأ فيها القمر ، وتهمس فيها الريح همسا رقيقا بدل العويل . والذى لا شك فيه ولا تدريه أن تعليقك على الطقس نبع من ملحوظة كهذه . لكن ...

عندئذ توقف ودق بسبابته على المنضدة ثم استطرد :

انت نسيت عاملا مهما . نسيت ان الشىء النسبى قابل للتغير . وجذب نفسا عميقا من السيجارة ، ثم طحنها بعناية على المنضدة النظيفة ، ومضى الى الخارج فى الليل الذى ينبح دون انقطاع .

**تلك قصة « بتمامها » لكاتب أرمنى يدعى ديكران أكيليان ، كتبها بالانجليزية تحت العنوان السابق ، ونشرتها « المجلة الأرمنية » التى تصدر فى الولايات المتحدة الأمريكية كل ثلاثة شهور .**

**وهذه القصة « القصيرة القصيرة » على حد التعبير الانجليزى تثير مشكلة هامة فى القصة القصيرة بشكل عام ، هى مشكلة الحجم . ذلك لأن كثيرين من الكتاب المعروفين لجأوا الى هذا الحجم ــ بل الى أقصر منه ــ ومنهم من برع فيه كارنست هيمنجواى ووليم سارويان الأرمنى الأصل الأمريكى الجنسية ، كما نجده لدى بعض كتابنا ، وخاصة لدى يوسف ادريس فى قصته « نظرة » التى تضمها مجموعته الأولى « أرخص ليالى » .**

ولقد أجهد النقاد والدارسون أنفسهم لتحديد حجم القصة القصيرة لتمييزها من الرواية الطويلة والقصيرة ، وميزوا بين نوعين من الكتابة القصصية التى تتصف بالقصر ، أولهما هو القصة القصيرة والثانى هو القصة القصيرة القصيرة أو ما نسميه بالأقصوصة . وقد حاول ادجار الن بو أن يحدد حجم القصة القصيرة العادية فقال انها تحتاج عند مطالعتها مطالعة متصلة غير متقطعة الى زمن يتراوح بين نصف ساعة وساعة واحدة أو ساعتين على الأكثر ، وقال آخرون ان كلماتها تتراوح بين ١٥٠٠ ، ١٠ آلاف كلمة . أما الأقصوصة فقالوا ان مطالعتها تستغرق زمنا يتراوح بين عشر دقائق ونصف ساعة على الأكثر .

وهذه الأقصوصة « النسبية » ليست من هذا النوع أو ذاك ، فمطالعتها لا تستغرق أكثر من خمس دقائق ، ومع هذا تجتمع فيها كل عناصر العمل الفنى الجيد . وقد استغل الكاتب امكانية الحوار باقتدار وذكاء ، فجعله بديلا للسرد فى عدة مواضع . ولم يغرق نفسه فى بحر التفاصيل والجزئيات التى يترهل بسببها اى عمل فنى ما لم تكن ذات دلالة وضرورة . فليس ثمة أسماء لأشخاص أو اماكن، وليس ثمة تحديد لزمن أو مكان معينين ، لأنها أو غيرها تفاصيل تكون هنا كالزخرف الذى لا قيمة له . كما نجح فى اختيار عدد من الجزئيات الدالة الموحية ليعمق فينا الاحساس بالرتابة والملل الذى يسيطر على شخصية الرجل بصفة أساسية ويتسلل الى شخصية الساقى ايضا ، مثل رتابة ايقاع المطر ، والتسلى بمشاهدة السيارات من خلال النافذة ، وطلب فنجان آخر من القهوة ، وبالمثل مطالعة الساقى فى الصحيفة التى تنشر أخبار سباق الخيل ، وقد صورها الكاتب بكلمة يدرس » كان الساقى تلميذ يحفظ نصا مدرسيا . ورغم هذا الملل الذى يشحن الجو بالتوتر فى النهاية ، الا أن الشخصيتين منفصلتان تماما ، ولكل منها عالمها الخاص . غير أن الملل او الرتابة أو التوتر أمور نسبية تتبدى نسبيتها فى الحاح كل من الرجلين على الاقتراب من الآخر واستدراجه فى الحديث ، وفشل فى التأثير عليه .

ومجمل القول أن تحديد حجم القصة القصيرة وربيبتها الأقصوصة بما تستغرقه من زمن للمطالعة يتساوى فى رأيى مع تحديده بما تضمه من كلمات ، فكلاهما صحيح ومقبول لخلوصه الى وضع قضية الحجم بين حدين ، اعلى وأدنى ، منعا للاسفاف والفوضى . غير أن هذا التحديد يظل الى النهاية أمرا نسبيا قابلا للتغير من كاتب الى كاتب ، ومن قصة الى قصة .

■ ذكرى جيمس جويس ○○

■ عنوان مؤقت لجون ○○

■ الريف الايطالى والسجن ○○

● **احتفلت** الدوائر الأدبية الانجليزية بذكرى مرور ٢٤ عاما على وفاة الروائى والشاعر المعروف **جيمس جويس ، الايرلندى الاصل ، الذى مات خارج بلاده**

فى ١٣ يناير ١٩٤١ . وقد نشر الملحق الأدبى لصحيفة « ذى صنداى تايمز » مقالا طريفا بهذه المناسبة تحت عنوان : « الايام الأخيرة فى حياة جيمس جويس » اشترك فى كتابته جون وفيرا رسل . وقد استهلاه بأن جويس يرقد منذ وفاته بمدينة زيوريخ السويسرية فى مقبرة عادية تحمل رقم ١٤٤٩ ، ويضمها المدفن الرئيسى بضاحية فلونترن المجاور لحديقة الحيوان بالمدينة . وقد تقرر اخيرا ان ينقل جثمانه وجثمان زوجته التى دفنت معه الى مقبرة خاصة تكريما له .

ولا زال فى زيوريخ أناس كانوا على صداقة مع جويس ترجع الى سنى الحرب الأولى ( ١٩١٤ — ١٩١٨ ) .. ويروى جون وزوجته ان جويس كان يهوى مياه الأنهار ، ويعتقد ان « **الكلمات ولدت فى الماء** » ، وقد اعتاد أن يقف طويلا عند ملتقى نهرى ليمات وزيهل يتأمل مياه النهرين المختلطة وهى تنساب فى رقة أمام عينيه . وقد اخذت له صورة تذكارية طريفة فى ذلك المكان نشرتها الصحيفة الانجليزية ، وهى تمثله وقد أعطى ظهره لمسز جيبديون زوجة صديق له قامت بالتقاطها ، وهو واقف ويداه فى خاصرته ، وعصاه تتدلى من يمناه ، وعلى رأسه قبعة وعلى جسده معطف ثقيل ، وقد فتح ساقيه قليلا ، وراح ينظر الى الماء كأنما يراه لأول مرة ! .. وقد علق هو على هذه الصورة بعبارة أطرف منها تقول : « **هـــذه هى صورتى المفضلة . أشكرك يا مسز جيبديون . فها لدى أخيرا منظر يمثلنى ويتيح لى أن انظر اليه بشىء من المتعة** » !

وكان جويس صديقا حميما لمسز جيبديون هذه وزوجها ، يصحباه دائما فى امسيات عيد الميلاد مع اسرته ، ويرافقاه فى نزهاته وتجواله بشوارع المدينة التى احبها من قلبها ، وجعلته يقول عن سويسرا انها « تمثل الجلد والعزم » ..



وفى مساء ٩ يناير ١٩٤١ دعت اسرة جويس صديقا لها يدعى بول روجيرو على طعام العشاء فى مطعم « كرونتهال » الذى كان أثيرا لدى جويس ، رغم انه كثيرا ما ثار فى وجه اصدقائه السويسريين على خضوعهم العجيب لأوامر الشرطة باغلاق المحلات العامة والملاهى وايقاف نشاط السكان فى الحادية عشرة والنصف مساء . فما ان كان نداء الشرطة « **حان وقت الانصراف !** » يعلو مؤذنا بمنع التجول والحركة فى الشوارع حتى يتفرق الجميع ، ويعلق هو بقوله : « **أهذه حريتكم ؟ ينطقون العبارة فتنصرفون ؟** » .. فى ذلك المساء بعينه دار معظم حديثه عن السنوات التى قضاها فى زيوريخ لاجئا ابان الحرب الأولى حتى انصرف الجميع فى الحادية عشرة والنصف ، وعاد مع اسرته الى حيث يقيم بينسيون ولفين .

**وفى الرابعة والنصف من صباح الجمعة ١٠ يناير استيقظ جويس وهو يعانى ألما حادا حار الأطباء فى تشخيصه . واضطروا الى نقله فى المساء الى المستشفى حيث أجريت له عملية على وجه السرعة فى صباح اليوم التالى . ثم تحسنت حالته قليلا ، لكنها ما لبثت أن ساءت مرة أخرى بعد ظهر ١٢ يناير ، وانتهت بأن أسلم الروح فى الثانية والنصف من صباح الاثنين ١٣ يناير ، وهو يوم كان يفزع منه دائما !**

ويختتم الكاتبان مقالهما بان الذين شهدوا جنازته يذكرون أن جاره فى **البنسيون ، وهو رجل عجوز ضئيل الجسم ، لم يكن يدرى شيئا عن قيمته او صنعته ، وظل يتساءل عن عدم احتفال الجنازة بالتقاليد الدينية ، وهو يسأل من حوله : « لكن من هو الهرجويس ؟ وكيف تنطقون اسمه ؟ » ، ثم يحاول نطق الاسم المرة تلو المرة بصوت عال يحافظ على مخارج الحروف . وهكذا « اختفى استاذ الكلمة العظيم تحت الثرى ، وكأنما ظل مشكوكا فيه حتى النهاية » !**

● **الروائى** الأمريكى المعروف **جون شتاينبك** يعد كتابا جديدا تحت عنوان مؤقت هو « **أمريكا والأمريكيون** » ، وهو عبارة عن صورة لحياة الشعب الأمريكى استقاها الكاتب من خبرته وثقافته وحدسه ، وزودها بالصور الفوتوغرافية التى انتقاها بنفسه .. يظهر الكتاب فى الخريف القادم .

● **ميشيل مور** المدير الأدبى لدار النشر الفرنسية « جاليمار » يكتب الفصول الأخيرة فى روايته القادمة « الريف الايطالى » ، وتدور حوادثها فى ايطاليا حيث تنشأ علاقة حب بين ضابط فرنسى شاب وفتاة ريفية ايطالية قبيل الحرب الثانية مباشرة .. سبق أن صدر لمور كتابان ، احدهما رواية بعنوان « السجن البحرى »، والآخر دراسة نقدية بعنوان « الرواية الأمريكية الجديدة » .

● **صدر** عن دار جاليمار كتابان هامان يتناولان مدرسة الرواية الجديدة فى فرنسا بالبحث والدراسة من خلال انتاج زعيمها الان روب جرييه وزميله ميشيل بوتور .



**أولهما بعنوان** « الان روب جرييه : رواية اللارواية » **تاليف أولجا برنال ، والثانى بعنوان « ميشيل بوتور أو كتاب المستقبل » تاليف جان رودو .**

● **الروائية** الأمريكية **دافنى دى مورييه** التى عرفت بقصتها المعروفة « **ربيكا** » صدرت لها رواية جديدة بعنوان « **رحلة الصقر** » عن دار جو للانز بلندن . وتدور فى ايطاليا ، وبطلها موظف ايطالى شاب يعمل مرافقا سياحيا ، يخرج مع عدد من السياح الانجليز والأمريكيين ذات يوم فى جولة . وحين يقتربون من مدينة توسكان يتخلى عنهم ويهرع الى المدينة الصغيرة التى قضى فيها طفولته ، حيث يغوص فى ماضيه ، وتنهال على ذهنه صور الطفولة ، **لكنه يحس بالذنب ازاء مربيته العجوز التى اغتيلت فى المدينة ، ويعتبر نفسه فجأة مسئولا عن مصرعها ! .**

● **قصة « زوربا اليونانى »** للروائى اليونانى الفائز بجائزة نوبل « **نيكوس كازانتزاكيس** » تحولت الى فيلم .. نشرت دار فابروفابر ترجمتها الانجليزية أخيرا .. **وتدور حول رجل غريب الأطوار بدائى العواطف والأفكار ، يعتقد أن الحياة الحقيقية فى خوض التجارب بشجاعة دون نظر الى المثل والمحرمات .. الرجل اسمه زوربا ويمثله على الشاشة أنتونى كوين .**




**أحب أن أعتذر للقراء الذين أرسلوا خطاباتهم الى هذا الباب منذ شهور طويلة ولم يتلقوا ردا حتى الآن . وأرجو ألا يعتبروا هذا دليلا فى ذاته يمس سوء انتاجهم وانما هو دليل فقط على أن الطاقة البشرية لها حدود تقف عندها لا تستطيع أن تعدوها . والكمية التى أستطيع قراءتها فى الشهر محدودة والمكان الذى أستطيع أن اشغله من المجلة محدود هو أيضا . وهكذا أجد بين يدى الآن خطابات وقصصا جاءت الى المجلة منذ شهر يونية الماضى . ولا شك أن أصحابها ساخطون الآن ، وانى اناشدهم أن يقترحوا على فكرة تمكننى من قراءة كل ما يأتى الى المجلة فان عجزوا فعليهم أن يقدروا أن الطبيعة البشرية تستطيع أن تعجز وعليهم ألا يغضبوا وألا يرتبوا على عدم الرد على قصصهم اية آثار فنية . كل ما فى الأمر اننى لم أستطع قراءتها . وليعلموا أيضا اننى لا أعرف واحدا ممن ارد على قصصهم وكل ما فى الأمر اننى أقرأ القصص حسب تاريخ ورودها الى المجلة .. ترى هل مهدت لنفسى العذر عند هؤلاء الأصدقاء الذين تأخرت عليهم فى الرد .. أرجو ذلك .**



**خضير عبد الأمير ـ بغداد :**

قصتك فيها وصف دقيق ، ولا شك ان لك قلما يطيعك ان أردت الوصف. ولكن القصة عندك تختفى وراء هذا الوصف اختفاء تاما . والمشكلة ليست واضحة . فنحن لم نعرف من هؤلاء الذين تركوا المجلة ولا نحن عرفنا من هؤلاء الذين قدموا اليها ولماذا ارتحل من ارتحل ولماذا جاء من جاء . وانت تستعمل ألفاظا محلية لا نستطيع نحن فى القاهرة ان نفهمها . فما الدشاديش.. فهمت انها نوع من الملابس لكنى لم أفهم ما هى .. لعل هذا اللبس الذى نقع فيه ينهض حجة قوية ضد الذين يدعون الى استعمال الألفاظ الدارجة . عجبت لقوم جمع الله بينهم بلغة عربية غنية ويأبون هم الا ان يمزقوا لغتهم . وانى لا أسوق هذا الحديث اليك وانما أنتهز الفرصة من استعمالك لفظا محليا

لأسوق دليلا على وجوب تمسكنا باللغة الأم .

اعتقد يا سيدى اننى سأنشر لك عما قريب وكل ما ارجوه منك أن تختار واقعة بعينها وتكتبها حتى يتبلور فنك القصصى بلورة تتيح لنا أن نتبين معالمه.

**عفاف حمدى الربيعى ـ بغداد :**

قصتك جميلة فيها مشاعر فياضة صادقة وفيها ايضا شاعرية محببة .. ولولا ضيق المجال فى عدد هذا الشهر لنشرتها فيه فانتظريها فى العدد القادم ان شاء الله .

**نواف ابو الهيجاء ـ دمشق :**

العرض فى قصتك لا بأس به . وقد استطعت ان ترسم مشاعر الفتى رسما فيه كثير من الدقة . وكنت موفقا ايضا فى رسمك لمشاعر القلق التى كان يحس بها وهو ينتظر حبيبته . ولكن القصة فيها افتقار كثير فيما أرى ... يبدو على الوقائع أنك ركبتها تركيبا لتصل الى النهاية التى أعددتها .. تلك النهاية التى يبدو انك خلقتها اولا لتخلق عليها قصتك .. والقصة كما رويتها غير مقنعة .. فتاة صغيرة تحب رجلا متزوجا ثم تبدأ القصة والحبيب يحاول أن يصل ما انقطع بينهما بعد أن تعاهدا على الا يلتقيا حتى اذا يئس الحبيب انبأ حبيبته أنه مسافر فى غده فتارك دمشق جمعا فاذا الحبيبة جازعة واذا هى ترضخ لمطالبته لها باللقاء وينتهى بينهما الحديث التليفونى على وعد باللقاء فى الغد حتى اذا كان الغد لا تأتى ويسأل الحبيب فيجد حبيبته قد سافرت مع خطيبها ... فهى اذن قد خطبت دون أن تنبئه وانت تريد أن تقول انها كانت تخادعه ويبدو انك تريد أن تنحو عليها باللائمة لأنها لم تأت اليه فى الميعاد وهو الرجل المتزوج وهى الفتاة الصغيرة التى لا تجد اى أمل فى هذا اللقاء وهذا الحب . أنا لا اعتقد ان صاحبك المتزوج محق فى غضبه وأنا أرى أن هذه القصة قد ركبت أنت حوادثها دون أن توفق فى اخفاء الصنعة فيها .. ولكنى اعتقد انك ستستطيع ان تقدم لنا شيئا أحسن من هذه القصة وانى فى انتظار قصتك القادمة .

**ابو ذر الأنصارى ـ العمارة ـ العراق:**

قصتك يا سيدى قصيرة غاية القصر وهى معذورة فى قصرها هذا فانها مجموعة مشاعر متباينة ورؤى واحلام تبين ومضا لتختفى ولكن يبدو على كتابتك انك كثير القراءة للأدب الغربى الحديث واعتقادى انك تستطيع أن تكتب قصة مكتملة .. واهم شىء تحتاج اليه قصتك هى وحدة الموضوع والا يغال فى هذا الموضوع حين تعثر عليه .. فانه لا تكفى مجرد أفكار تنثرها نثرا حتى تتكون القصة التى تريد . وان جاز هذا فى القصة الطويلة فما أظنه يجوز فى القصة القصيرة وان كان هذا النوع مقبولا فى الغرب فما اظن ان القراء فى الشرق يستطيعون تقبله حتى الآن . وقد كنت خليقا ان اقبل التجربة لو وجدت فيها تعمقا لهذه المشاعر ولكن اخشى ان اقول اننى لم

اجد هذا التعمق . فى قصتك هذه .. اننى فى انتظار قصتك القادمة .

**شهناز الزينى ـ دار العلوم ـ القاهرة:**

أجيبك اولا عن سؤالك فيما يتصل بأسلوب قصة البنت والحداة والكتكوت والواقع اننى اعجبت بأسلوب هذه القصة ولكن يجب أن اقرر أن اعجابى بأسلوبها مقصور على هذا الأسلوب فى هذه القصة بالذات فالقصة هى التى تحدد الأسلوب الذى تكتب به . وأسلوب قصة البنت والحداة والكتكوت يلائم القصة فى عرضها كل الملاءمة ولا يعنى هذا أن يصبح هذا الأسلوب صالحا لكل قصة .

أما عن قصتك أنت فهى صريحة اكثر مما يجب واقصد بالصراحة طبعا الخطابة وان كنت لا ارى مانعا أن تفهمى من الصراحة معانى اخرى . أعتقد ان الحبكة القصصية غير مكتملة عندك بعد واعتقد انك ان قرأت كثيرا فى فن القصة ستستطيعين ان تقدمى شيئا ترضين عنه .

آنستى .. ما كنت احب لطالبة فى دار العلوم أن تخطىء فى النحو فأنت فى معقل اللغة العربية فأرجوك ياآنسة .. أرجوك مخلصا أن تخلصى لمعهدك هذا .. فالمفروض فيك وفى زملائك وزميلاتك أن تصححوا انتم الخطأ لمن يقع فيه ..

**محمد أبو الحسن السيد ابراهيم :**

قصتك تتكون من ثلاث مقاطع ... اولا ذلك الرجل الذى يدق الجرس فى المدرسة الابتدائية ولا ادرى لماذا تحدث عن الموت وانه مدرك الناس ولو كانوا فى بروج مشيدة والمقطع الثانى المفتش والفصل والرد العنيف الذى واجهت به تلميذتك المفتش والمقطع الثالث ابو هذه التلميذة وامها يبحثان عنها بينما كانت هى فى الفصل تلاقى عقابها على ردها العنيف .. وصلت المقاطع الثلاثة صلات غير فنية فقارع الناقوس ذكر الموت ولم تذكر لنا لماذا والأب توهم موت ابنته بعد ذلك لقد افتعلت ذكر الموت فى أول القصة لتمهد لنهايتها دون أن يكون هناك موت لتمهد له .. والواقع أيضا أن الهدف من قصتك غير واضح فأنا لم افهم ماذا تريد ان تقول: اتراك تريد ان تقول انه لا يجوز أن يعاقب المدرس البنات بأن يبقيهن فترة اخرى بعد موعد الانصراف . ام تراك تريد أن ترسم مشاعر الأبوة .. لا شك ان فترة البناء القصصى عندك تحتاج الى تدعيم واعتقادى انك بالقراءة تستطيع أن تقدم لنا اعمالا اكثر جدية.

* * *

من القصص اخترت للتقديم
هذا الشهر قصة : مبروكة

# مبروكة

بقلم عنتر عبد السلام مخيمر

انفجر الطفل باكيا فزمت مبروكة شفتيها فى ضجر ، ونهضت من مكانها فى الشرفة وهرولت اليه ، وحملته ثم اخذت تدور به فى غرف المسكن وهى تلاطفه وتناغيه وتغنى له بصوت تقطر نبراته مرارة وحسرة .

وبدلا من ان يسكت الطفل ارتفع صوت بكائه وكانما قد ازعجه غناء مبروكة . وتضايقت هذه ، وارسلت زفرة غيظ ، وصرت على اسنانها وهى تصفعه بنظرة كراهية ثم زمجرت قائلة :

ـ الا تسكت ابدا .. مثل امك تماما .. لا تجلب سوى الغم والهم والتعب .

ولم يكف الطفل عن البكاء فانطلقت مبروكة تلعن ابويه واجداده وتندب حظها العاثر الذى جعلها تشتغل خادمة فى بيوت الناس .

وبعد ان تواترت دقائق صرخ جرس باب المسكن ! .. وفزعت مبروكة ، وارتعد قلبها .

من الطارق يا ترى .. مصيبة اذا كانت سيدتى .. لابد انها هى .. هذا ليس موعد عودة سيدى من عمله . انى اعرف . حظى اسود دائما .

وهرعت الى الباب فى قلق ، وما ان فتحته حتى مرقت سيدتها الى الداخل وقد كشرت عن اسنانها .

وحدقت السيدة الى خادمتها فى قسوة وغيظ ثم قالت صارخة بعد ان صفقت الباب فى عنف :

ـ الا اخرج مرة وارجع فاجد الولد هادئا لا يبكى ؟ .

همهمت مبروكة فى ذلة :

ـ ماذا افعل يا سيدتى .

فصرخت السيدة وقد استبد بها الغضب :

ـ ماذا تفعلين ؟ .. ساريك !

وانتزعت ابنها من بين يدى مبروكة ، ثم ضمته الى صدرها فى رفق ، ولاطفته قليلا فهدأ على الفور .

وزمت مبروكة شفتيها .

طبعا .. اليست امه . تذهب الى صديقاتها من الجيران لتثرثر معهن بالساعات بينما تركتنى مع ابنها .. بالطبع لابد ان يبكى .. اما السيدة فقد زمجرت فى شماتة وقسوة :

ـ ارايت ؟! .

ـ الست امه .

فتطاير شرر الغضب من عينى السيدة ، وقالت بعد ان لكزتها بيدها فى صدرها :

ـ هذا ما تجيدينه .. لا تجيدين غير الكلام وطول اللسان . ولم تقل مبروكة شيئا ، ومضت الى الشرفة ، وجلست وقد اسندت ظهرها على حاجزها .

اهذه حياة . الكلمة الطيبة لا أسمعها الا نادرا . كانها ليست بلا قلب . لا شيء غير الضرب والشتائم والحرمان . انها تحرمنى من كل شيء .. حتى من ان ادع راسى عارية ! .. طبعا .. انها تغار منى .. شعرى طويل أسود ناعم كالحرير .. اما شعرها وتمثلت مبروكة ـ فى ذهنها ـ شعر سيدتها فقفزت الى شفتيها ابتسامة خفيفة .

لست ادرى كيف تزوجها سيدى .

ومطت شفتيها فى حسرة ·

سيدى طيب القلب .. ولكن ..

وتنهدت ثم استطردت تقول لنفسها ..

ولكنه العوبة فى يدها . رجال المدن ! .. أين هو من المرحوم أبى . لقد كانت امى ترهبه وتحترمه وتعمل لغضبه الف حساب ·· اما سيدى فلا يقدر على ان يقول لامراته : لا انه لا يفعل شيئا بغير امرها ورضاها . تقول له اذا اراد ان يخرج من البيت ليذهب الى المقهى ليجلس مع صديق من اصدقائه : لا تخرج ... فلا يجرؤ أن يعترض ويقول لا .. بل يبتسم ثم يلوذ بالصمت . مسكين سيدى .. طيب القلب ، ولكن لا فائدة من طيبته .. الطيبة لا تنفع مع النساء ! .

وزمت شفتيها ، ثم نهضت لتهرب من احزانها بالتطلع الى الطريق . ولم تمض ثوان حتى مس اذنيها صوت ضحكة صافية أطلقتها طفلة صغيرة ، فارسلت بصرها ناحية مصدر الصوت فابصرت فى شرفة قريبة رجلا أجلس ابنته على فخذيه وقد اخذ يلاعبها فى حنان .

واحست مبروكة بآلام مريرة تعتصر قلبها ، وبحسرة ضارية تنهش فى اعماقها ، وندت عن شفتيها آهة طويلة .. ثم تفجرت براكين الذكريات .

ابوها وهو يحتضنها ويقبلها فى حنان ..

ـ كم تحبين اباك يا حبيبتى ؟ .

ـ احبه بقدر هذه الدنيا كلها ..

ابوها وهو عائد من عمله . يطرق الباب بطريقة تحبها وتنتظرها دائما فى شوق ولهفة ، وتجرى الى الباب ، وتفتحه .. وتبصر لفافة فى يده فتاخذها منه وهى تساله فى سعادة :

ماذا احضرت معك يا ابى ؟ .. ويبتسم ، ويربت على شعرها بيده ، ويجيب سؤالها بقوله : ماذا طلبت منى صباح اليوم ؟ .

وتطلق صيحة الفرح وتفتح اللفافة فى سعادة .

واحست مبروكة وكانها توشك ان تلفظ آخر انفاسها .. وترقرقت فى مقلتيها دموع الشقاء .

وقبل ان تجف دموعها انفجر فى سمعها صوت سيدتها :

ـ مبروكة .. انت يا مقصوفة الرقبة .

وفزعت مبروكة ..

ـ يارب .. متى ترحمنى من العذاب الذى اعيش فيه .

ورفعت راسها ، وتطلعت الى السماء فى ضراعة واسترحام ، ثم اسرعت الى سيدتها وقد اخذ قلبها ينتفض قلقا بين ضلوعها ·

# فهرس

## فى هذا العدد